رواية

تيسير خلف

المسيح الأندلسي

مكتبة

المتوسط

المسيح الأندلسي

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

مكتبة
t.me/soramnqraa

Al-Masih Al-Andalusi *by* "Taissier Khalaf"
© **Almutawassit Books** / © 2024 by Taissier Khalaf

المؤلف: تيسير خلف / عنوان الكتاب: المسيح الأندلسي
الطبعة الأولى: 2024
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-5591-036-7

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

تيسير خلف

المسيح الأندلسي

مكتبة
t.me/soramnqraa

المتوسط

إلى نوري الجرّاح .. في اتفاقات الأسفار

إشارة

مكتبة
t.me/soramnqraa

كتبتُ هذه الرواية؛ بالاعتماد على عدد كبير من المخطوطات المنسوخة بخطوط عربية مختلفة: أندلسية، ومغربية، ومشرقية، وأيضاً بأعجمية ما بعد سقوط غَرْنَاطَة التي يسمّونها «**الخميادو**»، وهي لغة قَشْتَالِيَّة بحروف عربية أندلسية. واستفدتُ أيضاً من رسائل أندلسيّي القرن السابع عشر، المكتوبة بالقَشْتَالِيَّة، والتي نُقلَت في غالبيّتها إلى العربية المعاصرة بسويَّات مختلفة.

وألزَمَنِي ورود أسماء بعض أبطال الرواية الحقيقيِّيْن، بشكل عَرَضي، في مصادرمختلفة، بالانهماك في تتبّع مطبوعات القرن السابع عشر، على ما فيها من اختلافات كبيرة، سواء في رسم الحروف اللاتينية، أو تغيُّر دلالات المصطلحات، وعقد مقارنات بينها وبين المخطوطات العربية، للوقوف على تفاصيل، قد تبدو غير ذات قيمة للقارئ العادي، ولكنها أساسية بالنسبة إلى الرواية.

وكمثال على ذلك؛ أنني خلال تتبّعي لانتقالات محمّد بن أبي العاص، وهو إحدى الشخصيات المحورية في هذه الرواية، بين أكثر من مكان، لاحظتُ وجود اختلافات، طفيفة أو كبيرة في اسمه بين مصدر وآخر، ففي مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية في باريس رَقْم «3027»، المعنون بـ **رسالة في تحقيق الوبا** يرد اسمه كما يلي: **العلّامة محمّد بن أبي العاص الأندلسي طبيب زمانه، وحكيم عصره وأوانه، وإبَّانه، غفر**

الله له ولجميع إخوانه، وهو مخطوط كُتب في عاصمة السلطنة العثمانية إسطنبول عام 1614 للميلاد. أمَّا في الوثائق الهولندية العائدة للسفير كورنيليُس هاغا (Cornelius Haga) المقيم في إسطنبول خلال الفترة ذاتها، فيرد اسمه كما يلي: **الطبيب الإسباني محمّد أبولاك، أو أبولاس** (Hispanus Medicus Mehemet Abulac).

وفي حين يكتب الرحّالة الأندلسي أفوقاي، أحمد بن قاسم الحجري، في رحلته **ناصر الدِّيْن على القوم الكافرين** المدوّنة بالعربية اسمه على الشكل التالي: «**الحكيم محمّد بن أبي العاص، حفيد الشيخ الجبيس**»، يرد الاسم في رسالة بالقَشْتَالِيَّة للرحّالة نفسه كما يلي: **الدكتور بيراث بولهاس** (doctor Perez Bolhaç)! أمّا المفاجأة؛ فكانت اسماً إسبانياً لشخصية بطلنا ظهر في ملفّات محاكم التفتيش، لا علاقة له بأيّ من الأسماء المذكورة، وهو اسم لا يستوي كشفه الآن للقارىء لأسباب تخصّ الرواية!

في هذا الخضمّ من الأسماء والوقائع المكتوبة بأكثر من لغة، وخطّ، وجدتُني مضطرّاً لاعتماد الكثير من المصطلحات العائدة للقرن السابع عشر، وكذلك تهجئة أسماء الأمكنة والأعلام كما وردت في المخطوطات الأصلية. وكي لا أُثقل على القارئ في البحث عن الأسماء الغريبة وما يقابلها كما قرَّت عليه في الزمن المعاصر، ألحقتُ بالرواية جدولاً خاصّاً بتلك الأسماء وما يقابلها الآن بالعربية.

تيسير خلف
إسطنبول، بكركوي، مقهى الطاحونة الصغيرة
1 كانون الأوّل/ ديسمبر 2023

أسفار عيسى بن محمّد الأندلسي نزيل گَلَطَه و إِسْطَنْبُل

غفر الله له ولجميع إخوانه

وهي ستّة: سِفْر گَلَطَه وبرجها، وسِفْر الأندلس، وسِفْر الدَّيْر، وسِفْر فيروزة، وسِفْر الكُتُب والأسرار، وسِفْر الختام

سِفر گَلَطَه وبرجها
في ستة فصول

وهي: 'فابريقة الحرير'، و'ليلة البرج'، و'سرُّ المفتاح'، و'بيت الغريب الأندلسي'، و'منديل عطر الناردين'، و'السفر إلى البندقية في مهمة'

فابريقة الحرير المرقوم

هي الأقدار؛ تقود خُطانا حيث تشاء. نسير حيث تريد لنا أن نسير، ونَقفُ حيث تريد لنا أن نتوقّف. لا فرق إن كنّا عمياناً أم مبصرين، حمقى أم حصيفين، شجعاناً أم مرتعدين، فما سيحدث سوف يحدث ..

الآن، وقد عبرت بي السنون إلى الكهولة، أقولها وأنا على يقين: لم تكن حياتي الماضية كلّها إلّا سلسلة متشابكة من المصادفات، لستُ متيقّناً حتّى اللحظة إن كانت مصادفات حمقاء، أم من تدبير عقل حاذق ينظر إليَّ باسماً من خلف سدم السموات البعيدة.

كان يمكنني أن أعيش حياتي كلّها كرجل إشباني كاثوليكي صالح، بلسان قشتالي، يُدعى **خيسوس غونثالث**، لولا بضع كلمات أوصت أمّي، وهي تودِّع الحياة، بأن يخبرني خالي بابلو بابيخو بها حين يرى أنني بتُّ أهلاً لذلك. تلك الكلمات هي: أنتَ عربي مسلم، واسمكَ **عيسى بن محمّد**.

يا لقوّة الكلمات! كيف يمكنها أن تنقلكَ من أمّة إلى أمّة أخرى .. من لغة كنتَ تستمتع بوقع حروفها وهي تداعب رأس لسانكَ، إلى لغة أخرى تصدر من جوف حلقكَ، فتغدو بين ليلة وضحاها لغة أحلامكَ .. من دِيْن نشأتُ وترعرتُ على حبِّ كُتُبه وقِدّيسيه وشهدائه، إلى دِيْن آخر، يرى في تلك الكُتُب والقِدِّيسين والشهداء محض أوهام، وضلالات زائفة.

في مطلع شهر يناير 1610 مسيحية، الموافق للخامس من شوّال

1018هجرية، كنتُ أتقلّب في فراشي حائراً، بين البقاء في كَلَطَه، بعد أن أضعتُ خمسة شهور فيها وأنا أبحث، من دون جدوى، عن عدوّي اللدود **خيرونيمو راميريز**، والسفر إلى الجزائر، لعلّي أحظى بفرصة سؤال **القرصان البُونِي** الذي قيل لي إنه اختطفه من مركب جِنْوِيٍّ قبالة سواحل رومة، وباعه لرجل من إِسْطَنْبُل.

في قمّة حَيْرتي تلك؛ صدح أذان الفجر قوياً رائقاً بمقام أندلسي غَرْنَاطِيّ من «**جامع العرب**» القريب من بيتي، فوجدتُني أرتدي عِمَامتي الصهباء، وجُبّتي التركية الثقيلة ذات الفراء، وأدلف مسرعاً، كأني ألبّي نداء موجّهاً لي وحدي.

حين انحدرتُ في طريق الجامع، صرخ صوت داخل رأسي مبكِّتاً:

- أيُّها الهائم على وجهه! ما الذي جعلكَ تصدّق حكاية القرصان البُونِي التي رواها لكَ **التاجر الغَرْنَاطِيّ البدر بن الحَكَم**؟ كيف صدّقتَهُ وهو لم يسند كلامه بدليل واحد؟

ليجيبه صوت آخر:

- صحيح أن البدر بن الحَكَم لم يكن يعرفه، ولكنه، وبسبب عمله الطويل في البُنْدُقِيَّة، كانت أخبار الأندلسيِّيْن تتجمّع عنده من الجهات الأربع .. ثمّ؛ هل نسيتَ ذلك **الأندلسي الغريب**، ذا الصوت العميق الذي صادفتَهُ في مخزن ابن الحَكَم، قرب ميناء البُنْدُقِيَّة الكبير، والذي قال لكَ وهو يتأهّب لركوب القادس المتوجّه إلى إِسْطَنْبُل: «دُون خيرونيمو كان في رومة قبل ثلاثة شهور، وغادرها على مركب جِنْوِيٍّ متّجه إلى إِسْطَنْبُل».

والحقّ؛ أن هذا الأندلسي الغريب الذي ظهر في هُنَيْهَة من الزمن ليقول جملته ويختفي، هو مَنْ دفعني لأن أحسم أمري وآتي إلى إِسْطَنْبُل، فنبرة

صوته العميقة الرصينة، منحتني يومها شعوراً عميقاً بالثقة، وحسمت شكوكي حول قصّة توجّه دُون خيرونيمو من رومة إلى البُنْدُقِيَّة التي ذكرها لي أحد شمامسة الفاتيكان، على سبيل الخداع والتمويه!

كنتُ أوّل الداخلين إلى الجامع، لم يسبقني أحد سوى **المؤذّن الغَرْنَاطِيّ** المنشغل بإيقاد آخر مصابيح قاعة الصلاة. صافحتُهُ وباركتُ له الخدمة الجديدة، وسألتُهُ عن المؤذّن الحلبي، فأخبرني أنه انتقل إلى مسجد الفاتح.

لا أخفيكم أن أذان الحلبي وقراءته للقرآن كانا يحزنانني ويُدخِلانني في نوبة من البكاء، بسبب المقام الحزين، حتّى بلغ بي الأمر أنني صرتُ أقضي صلاتي في بيتي، هرباً من الكآبة التي كانت تضغط على صدري يوماً إثر يوم؛ نتيجة لفشلي في العثور على طرف خيط يقودني إلى دُون خيرونيمو.

تكامل صفّان فقط من صفوف المصلّين حين بدأ الإمام بالتكبير منبّهاً إلى بدء إقامة الصلاة. كانت بيني وبين الرجل الواقف إلى يميني فرجة تتّسع لمصلٍّ آخر، فولجها رجل خمسينيٌّ على عجل، خمَّنت أنه عربي من أولئك الحلبيِّيْن القدماء، سكان گَلَطَه، الذين سمعتُ كثيراً عن تجاراتهم مع البنادقة والجِنْوِيِّيْن.

ولكنْ؛ حين انتهت الصلاة سألني الرجل بتركية صافية:

- هل أنتَ من طائفة الأندلسيِّيْن؟

عندها أدركتُ خطئي، فقلتُ له بتركية مرتبكة:

- نعم، أنا أندلسي وأدعى عيسى بن محمّد.

أردف التركي:

- وهل تجيد الكتابة العربية بخطّكم الجميل؟

- نعم.

عندها؛ بشَّ وقال متشجّعاً:

- اسمي رمضان، وينادونني حاجي رمضان. نحن نحبّكم، طائفة الأندلس، لأنكم قوم مولانا ابن عربي.

تبسّمتُ له ولم أعلّق بشيء، فنحن في الأندلس لا نكاد نعرف عن ابن عربي شيئاً سوى اسمه.

نظر حاجي رمضان مستغرباً صمتي، وقال بعربية ثقيلة:

- هل ترافقني إلى البيت، لتكتب لي آية من القرآن الكريم، ولكَ الأجر عند الله؟

قبلتُ من دون أدنى تردّد، ومضيتُ معه، فسرنا غرباً فشمالاً، بمحاذاة ساحل الخليج، وبعد قليل صعدنا أحد قوارب الـ **بريمي** التي تنقل الركّاب من ساحل گَلَطَه إلى الجهة المقابلة.

كانت الرحلة قصيرة لم أشعر بها، ربّما بسبب الحديث بيني وبين حاجي رمضان، الذي تبيّن لي أن عربيّته أقوى بكثير ممّا توقّعتُ.

ولجنا بَوَّابة بَلَاطِيَة، ومضينا نصعد أزقّة ضيّقة، متلافيَّيْن انزلاق خُفَّيْنا الجِلديَّيْن المثقلَيْن بالماء، حتّى وصلنا إلى بيت من طابقَيْن، أشبه بقصر، يمتدّ على مساحة كبيرة قُرب كنيسة خورا الشهيرة.

بَوَّابة البيت صغيرة، ولكنها تنفتح على مسرب ضيّق، يفضي إلى حجرات كثيرة تستدير حول فسحة سماوية، تتوسّطها فَسْقِيَّة ماء مستديرة

من المَرمَر الوردي. تنتشر في الحجرات حبال رفيعة، تتدلّى عليها قِطَع من الحرير المرقوم بأجمل ما وقعت عيني عليه من تصاوير، وأزهى ما رأيتُ من ألوان.

لفتت نظري قطعة حرير غريبة، عليها رسوم وألوان تحاكي ريش الطاووس، كانت تنشرها للتوّ فتاة يافعة على حبل. سبحانكَ ربيّ! ما هذا الجمال كلّه؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

تبسّم حاجي رمضان حين رآني مذهولاً وقال:

- نسمّيه شال إيبرو، وهو سرّ من أسرار زوجتي إيبرو.

ضحك حاجي رمضان حين رآني واجماً. أدرك بسليقته أنني لم أفهم ما قال، رغم أنه نطقه بالعربية، فأردف شارحاً لي الأمر بكلمات بسيطة:

- هذا الرسم يُدعى إيبرو، وهو يعني بلغتنا حاجب العين، واسم زوجتي أيضاً إيبرو، وقد خمّنتُ أنكَ ظننتَ الشال لها!

لم أدرك طرافة الجملة إلّا بعد أن رجعتُ إلى بيتي في اليوم التالي، يومها ضحكتُ من نفسي كثيراً كالملتاث، ولكنني لحظتها؛ هبط عليّ الوجوم مرّة واحدة، فعاود حاجي رمضان الضحك بقهقهات أعلى وهو يقول:

- هنا في هذه الغرف التي تراها تَرقُم زوجتي وابنتي الرسوم على الحرير، ونبيع جُلّ ما نصنع لتجّار من حلب.

قلتُ محاولاً تخطّي الوجوم الذي أصابني:

- بارك الله لكم في عملكم، والآن؛ على ماذا سأكتب الآية الكريمة؟

تبسّم حاجي رمضان متفهّماً ارتباكي، ودعاني للدخول إلى حجرة واسعة، تتوسّطها منضدة من الرخام الأبيض الصقيل، تمسح أربعة أذرع بأربعة، وتستند على قوائم قصيرة من خشب الجوز، محاطة بالزرابي التركمانية، والمفارش المريحة.

في الحجرة امرأة أربعينية، ومعها شابّة لم تبلغ العشرين، مخمّرتان بخمار أبيض يغطّي الوجه من تحت العينَيْن، عرَّفني أنهما زوجته إيبرو، وابنته فيروزة. يبدو أنهما انتهتا للتوّ من رَقْمٍ وَشيٍ مُذهَّبٍ ومُفضَّضٍ غاية في الفراهة، على ثوب كبير من الحرير المصبوغ بلون أخضر زاهٍ، تَرَكْنَ فيه خطّاً أبيض بعرض شبرَيْن، يدور حول الثوب، فهمتُ أنه مخصّص للآية الكريمة التي طلب منّي حاجي رمضان أن أخُطَّها.

شرعتُ في الكتابة بقلم مخصوص أعطوه لي؛ وعندها أخبرني حاجي رمضان بلغة تختلط فيها التركية بالعربية، أن هذا الثوب سوف يُهدى إلى قبر الرسول الكريم في المدينة المنوّرة، إيفاء لنَذْر نذرتْهُ زوجته، بعد أن شفاها الله من مرض كاد أن يودي بها.

طوال كتابتي للآية الكريمة: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، حرصتُ على أن أغضَّ من بصري ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً. ولكنْ؛ ومن دون أن أدري كيف حدث الأمر؛ حانت منّي التفاتة سريعة إلى فيروزة، فوجدتُها تنظر إليَّ، مأخوذة بخطّي الجميل. غضضتُ من بصري خطفاً، وعدتُ لرسم الحروف جاهداً أن تكون بأبدع ما يمكن من تفنّن وإتقان.

في تلك اللحظات شعرتُ بأن شيئاً ما حملني على الامتنان لخالي بابلو، صاحب الفضل في تعلّمي الكتابة العربية بهذه الصورة المُحكَمة والجميلة .. شيئاً أشعرني بأنني غدوتُ جسماً أثيرياً يسبح في الهواء ..

هو شيء لم أختبره من قبل، ولكنه لذيذ جدّاً، لذيذ إلى درجة أنني أردتُهُ أن يبقى معي إلى أبد الآبدين!

على مائدة فطور تركي لم أر فطوراً يبزّه تنوّعاً من قبل، وفي حجرة واسعة في الطابق الثاني من البيت، تطلّ على خليج القرن الذهبي، أخبرني حاجي رمضان، أنه سيؤدّي فريضة الحجّ والزيارة لهذا العام مع زوجته وابنته. وأنه سيسافر في منتصف شوّال، على متن سفينة الصُّرَّة السلطانية إلى الإسكندرية، ومن هناك سيرافقون المَحمَل المصري إلى أرض الحجاز.

وفيما كنتُ أتناول طعامي بشهية، سألني حاجي رمضان عن سبب قدومي إلى إِسْطَنْبُل، وما إذا كنتُ تاجراً؟ فأجبتُهُ بعربية فصحى، بعد أن أيقنتُ أنه لم يكن يفهم تماماً ما أقول بعربيّتي الأندلسية:

- أتيتُ في مهمّة لصالح المسلمين.

لم أستطع أن أشرح لحاجي رمضان أكثر، ومع ذلك لاحظتُ الحزن في عينَيْه وهو يربّت على كتفي ويقول:

- لديّ صديق أندلسي من جماعتكم يعمل في قصر طوبقابي، إذا لزمكَ شيء من الصدر الأعظم أخبرني.

أدهشني هذا الخبر، إذ لم أسمع طوال إقامتي في هذه البلاد عن أندلسي يعمل في القصر السلطاني، وخمّنتُ أن يكون المقصود الشريف الأندلسي، زعيم طائفتنا في هذه البلاد، فسألتُ بتِلْقَائِيَّة:

- أَهو شيخ؟

- بل هو ترجمان يُدعى سليم أفندي، يعمل في خدمة الصدر الأعظم مراد باشا.

وأردف موضّحاً:

- لقد اعتذر بشدّة عن كتابة الآية الكريمة بسبب سوء خطّه، وهو الذي نصحني بالذهاب إلى «جامع العرب» لكي أجد مَنْ يكتبها لي، وسبحان الله، وجدتُكَ أنتَ!

استرعى اهتمامي اسم الرجل، فسليم ليس اسماً مطروقاً بين الأندلسيِّيْن، رغم أنه جَدٌّ لقبيلة عربية كبيرة، منها بعض الصحابة.

قلتُ وأنا ساهم في اسم الرجل:

- أمّتنا باتت مشرّدة في كلّ مكان، يا حاجي. ولكنْ، هل عرفتَ من أيّ بلاد الأندلس أتى سليم أفندي هذا؟

- للحقّ لسانه التركي ليس طليقاً، وكذلك لسانه العربي، ولذلك وجدتُ صعوبة كبيرة في فهمه، وقد ذكر لي حين أتى لزيارتي هنا، أنه من أحد جبال بلادكم، ولكني لم أفهم أكثر من ذلك.

- إذن، زاركَ هنا؟

- نعم؛ وأكثر من مرّة، لقد أُعجب كثيراً بما نصنع، وقال إنه يعرف تجّاراً من البُنْدُقِيَّة، وأخذ قطعاً عديدة لكي يعرضها عليهم.

- هل ذكر لكَ اسم دون بيدرو أو البدر بن الحَكَم؟

فكّر حاجي رمضان قليلاً، ثمّ قال:

- لم يذكر أسماء.

نضب مَعين الكلمات التركية التي تعلّمتُها، وهو أيضاً غدا عاجزاً عن

إكمال جملة مفيدة بالعربية، أو بالعربية المشوبة بالتركية، بعد أن تشعّب الحديث بيننا إلى مواضيع تخصّ الأندلس، وقَشْتَالَة، وأحوال أهلنا هناك، فباتت إطراقات الصمت أطول من عثرات اللسان بين جملة وأخرى، بانتظار توقّف دفقات المطر الغزيرة المائلة التي كانت ترشق النافذة بقوّة.

تعاظم صوت قرع المطر على النافذة، كأنه يسقط علينا من قَرَبٍ مهولة، فاستأذن حاجي رمضان لقضاء أمر مع عميل طال انتظاره، ودعاني لأن آخذ قسطاً من الراحة على الأريكة ريثما يعود.

نهضتُ إلى النافذة لأرى منظر گَلَطَه من هذه الزاوية. ظهر لي البرج وحيداً كأنه نبت من وسط الغيمة الخفيضة التي غطّت كلّ شيء؛ بيوت گَلَطَه ، ومياه الخليج .. بدا كبيراً للغاية، شاهقاً يشقّ عَنَان السماء. شيئاً فشيئاً راحت الغيمة تتلاشى أمام ناظرَيّ؛ لتبدو أسقف گَلَطَه بكنائسها وأديرتها وبيوتها كما لو أنها طُليَت بالفضّة. لم أتبيّن موقع «جامع العرب» بسبب السور العالي الذي غطّى على الناحية التي أسكن فيها.

فجأة توقّف هَطْل المطر، وانقشعت السماء عن ندف بيضاء سمحت لخيوط الشمس الخجولة بالانتشار على مياه الخليج، فغدت أشبه بصفحة من الذهب السائل. تسلّلتْ إلى الحجرة رائحة عطر النَّارَدِيْن، تلتها حركة عند الباب، فاستدرتُ، وأنا أتوقّع أن أرى حاجي رمضان، وإذ بفيروزة، تسدّد نحوي سهام عينَيْها الساحرتَيْن من خلف خمارها الشفيف. فاجأني حضورها البهي، بقَدّها الممشوق الذي لا يخفيه ثوبها الخمري الطويل، المرقوم بخيوط الذهب.

مدّت لي صينية مُفضّضة، عليها فنجان كبير، وهي تقول بعربية فصحى:

- تفضَّلْ اشربْ، هذا حليب محلَّى بالعسل، ومطيَّب بالدَّارصِينْ.

قلتُ وانا أقترب منها ببطء شديد:

- تعرفين العربية؟؟ أين تعلّمتِ؟

لمحتُ ظلال ابتسامة تشفّ من تحت خمارها الرقيق، ثمّ قالت:

- أعرف قليلاً من العربية، بقدر معرفتكَ بالتركية.

تعجبني الفتاة الذكية اللمّاحة.

مددتُ يدي لآخذ الكأس مأخوذاً بجمال عينَيْها المُبَطَّنَتَيْنْ:

- سبحان مَنْ أبدع هذا الجمال.

فأجأتْها كلماتي التي ظننتُ أنني قلتُها لنفسي، فتورّدت وجنتاها. وحين تأكّدتْ من أنني قبضتُ على الفنجان استدارتْ بخفر، وانصرفتْ مسرعة كما حضرتْ، مثل نسمة صيف هبّتْ عليّ بَغْتَة من حديقة ورود ورياحين.

لم يطل انتظاري طويلاً بعد مغادرة فيروزة حتّى أحضر حاجي رمضان عِمَامَة حمراء مجزعة بمختلف الألوان، من الأرزق إلى الليلكي إلى الأصفر، عرفاناً بالجميل. ألقيتُ عنّي العِمَامة الصهباء الباهتة التي كنتُ أرتديها، ووضعتُ العِمَامة الجديدة التي تشبه عِمَامَات الأندلسيِّينْ في القسطنطينة، وشكرتُهُ على هديّته، فقال:

- بل أنا مَنْ أودّ أن أشكركَ. ولكنْ؛ بقي عندي طلب آخر.

- طلبكَ مجابٌ أيّاً يكن.

ابتسم بحياء وقال:

- هناك قطعتا حرير أودّ أن تكتب عليهما لفظ الجلالة، واسم حضرة سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وهما غير جاهزتَيْن اليوم، إذا تكرّمتَ زُرْنا غداً أو بعد غد؛ تجدهما بانتظارك، وأكون لكَ من الشاكرين.

دَلَفْتُ عائداً إلى گَلَطَه، مُشيَّعاً بعبارات الشكر والعرفان التي لاحقني بها حاجي رمضان إلى عتبة الباب. وطوال طريقي من بَلَاطْيَة إلى گَلَطَه، على متن قارب الـ **بريمي**، لم تفارقني تلك الابتسامة الحَيِيَّة لفيروزة. صرتُ أراها أينما ولّيتُ وجهي، على صفحة الماء، وعلى وجوه رفاق القارب، ولم ينتشلني من ذلك العالم اللذيذ، سوى ارتطام كتفي بكتف رجل يُسرِع بالخروج من بَوَّابة گَلَطَه باتّجاه إِسْكِلَة القوارب. كانت الارتطامة قوية، بحيث كادت أن تُطوِّح بي أرضاً، لولا يد الرجل التي أمسكتْني بقوّة وساعدتني على الثبات. وسرعان ما انقلبت تقطيبة الرجل إلى ابتسامة عريضة وهو يقول بعربية أندلسية:

- هل عثرتَ على **دُون خيرونيمو**؟

صعقني سؤال الرجل الغريب، فرحتُ أتميّزه علّني أتذكّر أين رأيتُهُ؟ الرجل أندلسي من دون أدنى ريب، ولكنني لا أذكر بأنني رأيتُهُ قبلاً.

حين رأى حَيْرتي بادرني بالقول:

- أظنّكَ نسيتَ لقاءنا في البُنْدُقِيَّة!

عندها؛ شهقتُ وأنا أطابق بين الصوت العميق المميّز لذلك الأندلسي الغريب الذي صادفتُهُ في مخزن البدر بن الحَكَم، بزِيّه الفرنجي الباذخ، وقبّعته السوداء المزيّنة بريشة حمراء، وبين صوت الرجل الواقف أمامي

بجُبَّته التونسية الثقيلة، وعِمَامته القطنية البيضاء، المزيّنة بعروق صفراء من الحرير اللمّاع:

- نعم، تذكّرتكُ تماماً!

ثمّ أردفتُ بانكسار:

- للأسف لم أعثر عليه حتّى اليوم.

- لماذا تبحث عنه هكذا، بهذا الدأب؟

- أحمل له رسالة من عزيز.

نظر الأندلسي الغريب إليَّ بدهشة، ثمّ قال:

- وإذنْ؛ هل تأكّدتَ من أنه هنا في إِسْطَنْبُل؟

- لستُ واثقاً من ذلك، ولكنْ، هل أنتَ واثق من أنكَ كنتَ تقصد **دُون خيرونيمو راميرز**، الراهب الجِزْوِيْتي.

- نعم؛ وبكلّ تأكيد، **فأنا أعرفه كما لا يعرفه أحد مثلي!**

أثارت كلمات هذا الأندلسي ريبتي، فما معنى أنه يعرفه كما لا يعرفه أحد مثله؟

- هل تصفه لي؟

فوجئ بسؤالي، فقال وهو يتميّزني بغضب:

- هل تكذّبني؟

- لا أكذّبكَ، بل أسألكَ عنه، فأنا لا أعرف سوى اسمه، ولم أره من قبل.

راح الأندلسي الغريب يتأمّلني باهتمام غريب، فابتعدتُ عنه حذراً، وخطر لي خاطر عجيب لحظتها، فسألتُهُ مباغتاً:

- هل أنتَ سليم أفندي الأندلسي؟

بدا الذهول على وجه الرجل، فقال مستنكراً:

- مَنْ سليم أفندي هذا؟

- ترجمان من أمّتنا يعمل في خدمة الصدر الأعظم.

قال متبرّماً:

- لستُ ترجماناً، بل أنا طبيب، أُدعى دُون بيراث إل شابيز، واسمي العربي محمّد بن أبي العاص.

وأتبع جملته:

- على الأقلّ هنا في إِسْطَنْبُل.

وقبل أن يستدير ليغادر؛ قال:

- اسمعْ، يا بني؛ لا تثقْ بالأسماء، أسماؤنا مثل أرديتنا، نستبدلها نحن الأندلسيِّيْن حين نخرج من بيوتنا، وحين نأوي للفراش، وحين نبدّل بالبلاد بلاداً أخرى.

مضى الرجل مسرعاً إلى قارب الـ **البريمي**، وعزمتُ، من فوري، على زيارة **الشريف الأندلسي** لأسأله عن **محمّد بن أبي العاص** هذا، وعن **سليم أفندي**، وربّما استشرتُهُ في موضوع سفري إلى الجزائر.

مضيتُ صاعداً جادّة برج گَلَطَه، وفي مسمعي يتردّد صوت الأندلسي الغريب: «لا تثقْ بالأسماء، لا تثقْ بالأسماء».

ليلة البرج

في طريقي نحو بيت **الشريف الأندلسي**، استولى على مخيّلتي وجه الغريب الذي قال إن اسمه **الطبيب دون بيراث**، **محمّد ابن أبي العاص**، وراح يشغل مساحة تفكيري، ليحلّ مرّة واحدة محلّ وجه **فيروزة** . وجدتُهُ وجهاً مألوفاً في كلّ مَلمَح من ملامحه. في العينَيْن الزيتونيَّتَيْن، والأنف الدقيق، والفم المكتنز، واللحية الشقراء المشوبة بشيب خفيف. كان وجهاً مألوفاً إلى درجة شكَّكتْني بنفسي. كيف يكون مألوف الوجه لي إلى هذا الحَدِّ؛ وأنا واثق تمام الثقة بأنني لم أره من قبل؟!

في لقائنا العابر عند **البدر بن الحَكَم**؛ لم أتبيّن ملامحه البتّة، بسبب العتمة التي دهمتْني حين ولجتُ إلى المخزن مسرعاً، هارباً من شمس رابعة النهار. ولكنني تذكّرتُهُ من نبرة صوته .. من نبرة صوته فقط.

فاجأتني بركة موحلة زلقة، كان لا بدّ من اجتيازها للوصول إلى بيت **الشريف الأندلسي**، وإلّا؛ كان عليّ أن أسلك طريقاً آخر، سوف يكلّفني وقتاً وجهداً كبيرَيْن، فحزمتُ أمري وجازفتُ بالسير على حوافّها، على أن ألجأ إلى الزقاق السهل الذي يسكنه الفرنجة المتربّصون بكلّ ذي عِمَامَة.

بعد جهد جهيد؛ تجاوزتُ تلك البركة، ونجحتُ في تجنّب طريق الفرنجة، وعندها لمعت في ذهني فكرة غريبة، ولكنها شديدة المعقولية: **لمَ لا يكون هذا الطبيب ابن أبي العاص هو نفسه دُون خيرونيمو**

راميريز؟ الدلائل كلّها تشير إلى أنهما شخص واحد، حتّى الجملة الأخيرة التي قالها: **لا أحد يعرفه مثلي** هي حجّة عليه. كيف غَرُب عنّي ذلك الأمر؟!

وصلتُ سريعاً إلى بيت الشيخ، ولكنني، ولسوء حظّي، لم أجده؛ كان قد خرج للتوّ ليقضي بعض الأمور مع شيخ الإسلام في إِسْطَنْبُل، كما أخبرني ابنه الصغير حين فتح لي الباب ودعاني لانتظاره.

- ألحّ والدي علينا بأن نُدخِلكَ لتنتظره، فهو على أُهْبَة الوصول.

- سأبقى هنا في الجوار، أنتظر عودته.

بيت الشيخ ليس ببعيد عن **برج كَلَطَه** الذي يروي الأندلسيون عنه برهبة؛ الكثير من القصص، وخصوصاً قصّة **الأصوات المخيفة** المنبعثة منه في ليالي الصيف المقمرة!

فكّرتُ في أن أستفيد من وقتي بالصعود إلى أعلى البرج ريثما يصل الشيخ. اقتربتُ من جداره، فصدمتْني خشونة البناء، وعشوائية كسر الحجارة الكلسية البيضاء؛ المخلوطة بكسر حجارة النار السوداء، والآجرّ الأحمر المشوي، والمربوطة جميعاً بمِلَاط غريب أراه للمرّة الأولى، لا يشبه المِلَاط الذي يربطون به حجارة الأبنية في بلادنا.

ثمّة حارس أندلسي سمين أبيض الوجه بخدَّيْن منتفخَيْن ولحية حمراء خفيفة، مسلّح بغَدَّارة وعددٍ من الخناجر، يجلس على كرسيّ متهالك، مشغولاً بشرب منقوع عشبي. عرفتُ أنه أندلسي من عِمَامَته الملوّنة. اقتربتُ منه وقلتُ بعربيّتي الأندلسية:

- السلام على ابن العمّ؟

ابتسم الحارس وهو يعبّ آخر جرعة من كأسه:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- هل تأذن لي بالصعود إلى أعلى البرج؟

- هذا خطر عليكَ؛ قد تسقط وتموت.

- أدعى **عيسى بن محمّد التُّطَيْلِيّ**، ولستُ **عبّاس بن فرناس الرُّنْدِي** .. انظرْ، أنا لا أحمل معي أجنحة للطيران.

نظر الحارس إليَّ مليّاً وهو يبتسم، على الأرجح أنه رآني أنيقاً نظيفاً، يوحي مظهري بأنني من علية القوم، فقال وهو يضع كأسه على حافّة الدرج القصير المؤدّي إلى باب البرج:

- ليس من عادتي أن أسمح لأحد بالصعود إلى الأعلى، ولكنْ، بما إنكَ من أبناء أمّتنا التعسة، سأصحبكَ إلى الأعلى وأعود، وأحذّركَ منذ اللحظة، إن تأخّرتَ هناك، سأغلق الباب وأغادر في موعدي، وعليكَ أن تبقى سجيناً مع الأرواح المحبوسة في البرج حتّى صباح الغد.

عند كلمة الغد؛ انفجر **الحارس الأندلسي** ضاحكاً بطريقة ماجنة أثارت حفيظتي، ولكنني تبعتُهُ من دون أن أعلّق بكلمة واحدة على هذه المداعبات الغريبة.

أخرج الحارس من حزامه الكتّاني مفتاحاً بطول شبر، وفتح باباً صغيراً يتّسع لشخص واحد، يقع في أسفل الدَّرْفَة اليمنى للباب الكبير للبرج، ثمّ دعاني للدخول. أخذ قنديل زيت مشتعل كان على رفٍّ وراء الباب، ثمّ دلف إلى الدرج.

يرتفع القبو الحجري الضيّق المعتم، الذي يحيط بالدرج، مقدار قامة رجل متوسّط الطول، كأنه سرداب من سراديب تقسيم الماء في **طُلَيْطِلَة**، ويرتكز على الجدار الداخلي للبرج، ولذلك يأخذ شكلاً متحلزناً، تتخلّله طلّاقات أسهم دفاعية، وفتحات تهوية، تطلّ كلّ واحدة منها على أحد الطوابق المتراكبة بعضها فوق البعض الآخر، وتأخذ شكل محابس، كان لها فيما مضى أبواب ضيّقة، بالكاد تسمح لرجل واحد بالخروج أو الدخول.

أخبرني الحارس، ونحن نواصل الصعود؛ أن هذه المحابس، كانت حتّى سنوات قليلة مختصّة بأسرى الفرنجة الذين سخَّرهم أمراء البحر لبناء الأسطول. وفي أثناء توقّفنا للاستراحة في الطابق الخامس، لفت نظري أن فتحات التهوية لهذا المِحْبَس بالذات مغلقة بما يشبه الشبابيك، وله باب خشبي مغلق بإحكام. نظرتُ إلى الحارس متسائلاً، فقال حين فهم قصدي:

- لا شأن لكَ بهذا الطابق؛ هل فهمتَ؟ لا شأن لكَ!

امتثلتُ لأمر الحارس، ومضيتُ خلفه إلى السطح المنفتح على فناء رأس البرج شاهق الارتفاع. كان ثمّة عدد من النوافذ الواسعة المقبوّة، المطلّة على الجهات الأربع، وفي أحد الجوانب سُلَّم حديدي يفضي إلى الشرفة المستديرة الضيّقة في أقصى علوِّ البرج.

قال الحارس وهو يهبط الدرج عائداً إلى محرسه عاجزاً عن مداراة ضحكاته:

- إيّاكَ ثمّ إيّاكَ أن تتأخّر، عليكَ أن تنزل بعد قليل، فلن أصعد ثانية لكي أطلب منكَ النزول، وعندها تعرف ما سيحصل!

قرأتُ على الجدار أسماء وذكريات محفورة بحروف لاطينية، لم أتبيّنها جيّداً بسبب تقادُمها، أو جهل كاتبيها، وتهيّأ لي أن أصداء الصرخات التي

تخيف الأطفال في بيوت گَلَطَه، ما تزال تتردّد في زوايا المكان ودهاليزه، لأتنبَّه فجأة إلى أنها صرخات حقيقية أطلقها الحارس على سبيل الدعابة من أسفل الدرج، قبل أن يعاود الضحك الماجن.

بدت لي گَلَطَه أصغر بكثير ممّا كنتُ أظنّ، رأيتُها محاطة بسور مثلّث الأضلاع، مسحتُهُ بنظرة واحدة، قاعدته عريضة قليلاً، لكنها مقوَّسة مع تقوُّس الساحل، تبدأ من نهاية ساحل خليج القرن الذهبي قبل أن يستدير باتّجاه **البُوغَاز**، وتنتهي بالبرج الدفاعي المحاذي للإِسْكِلَة الجديدة المسمّاة **ميِّت إِسكِلَة سي**، أمّا رأس المثلّث، فهو النقطة التي كنتُ أطلّ منها على هذا المنظر المهيب.

داخل المثلّث ثمّة مثلّث آخر من الأسوار والأبراج التي بُنيت حديثاً، لتفصل أحياء الجِنْوِيِّيْن الفرنجة، والروم الإغريقو، واليهود القدماء ومعهم الحلبيون، عن حيِّ الأندلسيِّيْن بعد أن زادت التعدّيات بين الجانبَيْن. كنتُ أعرف شوارع الحيِّ الجِنْوِيِّ وأزقّته زقاقاً زقاقاً، فقد أمضيتُ الشهور الخمسة الماضية وأنا أبحث فيه عن أيِّ شيء يمكن أن يهديَني إلى طرف خيط يُوصِلني إلى دون خيرونيمو.

تلك **كنيسة القدّيس بندكت** في الجهة الشرقية، وتلك أزقّة الجِنْوِيِّيْن وحاناتهم. حين كنتُ أقصدها مدّعياً أنني تاجر حرير قَشْتَالِيّ؛ كنتُ أرتدي بزّتي الإشبانية، بسروالها المنتفخ المحبوس بالأزار أسفل الركبة، وقبّعتها الرمادية الكبيرة باستدارتها، والمزيّنة بريشة حمراء.

تلك **أحياء الإغريقو** ببيوتها الفقيرة المتهالكة، وأزقّتها الضيّقة، التي تلاصق **بيوت اليهود**، وإلى الشمال منها **بيوت الحلبيِّين**، وهي أقرب النواحي لـ **حيِّ الأندلسيِّين وجامع العرب**، وذاك مَرسَى **ميِّت إِسكِلَة**

سي. هذا المَرسَى هو السبب في سكنى الأندلسيِّيْن هنا في گَلَطَه، فبعد أن اتّخذ **الرايس خضر** من ناحية **قاسم باشا** مستقرّاً له، بدأ ينتخب من الأندلسيِّيْن الذين نقلهم في وقت سابق من **مُرْسِيَة** و**غَرْنَاطَة** إلى الجزائر، علماء، وتجّار، وأصحاب حِرَف، ليزرعهم هنا في گَلَطَه، وسط طوائف الفرنجة المتغلّبين على المكان.

جُلُّ الفرنجة من بقايا الجِنْوِيِّيْن المتوطِّنين، وكثير من سفراء اختاروا أن يبنوا مساكنهم وبعثاتهم بعيداً عن «عاصمة بني عثمان» التي كانت مآذنها وقبابها تستفزّهم من الفجر وحتّى مغيب الشمس. ثمّة أعداد متفاوتة من **رهبان فرنسيسكان، ودومينيكان، وجِزْوِيت، وكبوشيين**، يسعون جهدهم لهداية الهراطقة الأرثوذوكس إلى الكاثوليكية الصحيحة، قبل أن يبتلعهم تيّار الإسلام التركي الجارف!

أذكر أن **الشريف الأندلسي** قال لي ذات مرّة إن خطّة **الرايس خضر** هذه لقيت هوى لدى المغفور له **السلطان سليمان**، بعد أن كان اليأس قد بلغ منه مبلغاً وهو يحاول إقناع الترك بأن يسكنوا هذه **المدينة الملعونة**.

يومها سألتُ **الشريف الأندلسي** باستغراب شديد:

- ملعونة، يا شيخ! كيف ذلك؟

- كانت گَلَطَه في نظر أحفاد **الألبلار**، وهم **المتصوّفون الأبطال** أسلاف تُرْك هذه البلاد، مكاناً آثماً يَعِجُّ بالحانات، ودُور البغاء، ولا يليق بأرواحهم النقية، ونفوسهم الأبية أن تسكن فيها، ولذلك شملت مِنَح السلطان وعطاياه الجزيلة الأندلسيِّيْن الذين اعتادوا على العيش بين النصارى من دون أدنى حَرَج.

لقد عرف أبناء أمّتنا كيف يستفيدون من قانون السلطان سليمان المختصّ بمِنَح مزايا وعطايا وهبات لمعتنقي الإسلام من نصارى الروم الإغريقو والبلقان، فحصلوا على المِنَح والعقارات، على قَدَم المساواة مع معتنقي الإسلام الجدد، كونهم أُكرهوا على اعتناق النصرانية والعماد في الكنائس، ولذلك كانوا يبالغون في طقوس استبدال الأزياء الفرنجية بالعباءات والعِمَامات الزاهية الملوّنة على رؤوس الأشهاد، وإقامة حفلات الختان الجماعية الضخمة، وهي احتفالات كانت تستفزّ جمهور الجِنْوِيِّيْن، والبنادقة، ومعتنقي الكاثوليكية من روم إِسْطَنْبُل!

انتشلني من تداعيات فكري التي لا أعرف كم استغرقت من الوقت صوت صياح خارج البرج. صعدتُ سريعاً إلى الشرفة الدائرية ونظرت إلى الأسفل، فرأيتُ مجموعة من الشباب الأندلسيِّيْن، على رأسهم «الحارس الضاحك» يقاتلون بالعصي مجموعة من الفرنجة المسلّحين هم الآخرون بالعصي. وليس ثمّة داع لمعرفة سبب هذا الشجار، فهو قد ينشأ لأتفه الأسباب، ومنها لمجرّد تبادل النظرات.

كان الأندلسيون هم المتفوقون في الشجار، ولكن قائدهم، حارس البرج، تلقّى ضربة قوية على رأسه أوقعته أرضاً، وأسالت دمه. راح الشبّان منهم يلاحقون شبّان الفرنجة في الأزقّة، بينما حمل شابّان الحارس الجريح، ومضيا به إلى أحد البيوت مَغْشِيّاً عليه.

أسرعتُ بالنزول رغم صعوبة الدرج المحلزن وعتمته، ولكنني فوجئتُ بأن الباب مغلَق بالمفتاح. حاولتُ أن أجذبه فلربّما كان مفتوحاً، غير أنني أدركتُ، بعد محاولات فاشلة، حقيقة أن الباب مغلَق، ولن يستطيع أحد فتحه سوى الحارس. أُسْقِطَ في يدي، وجلستُ في العتمة أنتظر قدوم أحد ما يمكن أن يخلّصني من هذا المأزق.

بعد انتظار طويل صعدتُ إلى سطح الطابق الخامس، ورحتُ أبحث عن النافذة التي تطلّ على جهة بَلَاطْيَة. كان المطر قد عاود الهطول، وأصبحت الرؤية ضبابية. لاحظتُ أن الغيوم غدت على مستوى نظري، بل لامست النافذة التي أطلّ منها. مطر إِسْطَنْبُل ثقيل غزير، على العكس من مطر الأندلس العالي الخفيف، ومع ذلك سرعان ما كانت غيوم إِسْطَنْبُل تنقشع، وكأن شيئاً لم يكن، لتعود السماء زرقاء، والشمس مشرقة.

ارتوت المآذن والقباب، والأسقف الحمراء بماء المطر، فبدت صارخة الألوان نظيفة. رحتُ أبحث عن بيت حاجي رمضان، فعجزتُ للوهلة الأولى عن تحديد مكانه وسط الأسقف المتشابهة، ولكنني، وبعد أن اهتديتُ إلى موقع بَوَّابة بَلَاطْيَة، وتتبّعتُ بنظري الزقاق الذي سلكتُهُ صباحاً، اهتديتُ إلى مكان البيت تماماً. لقد تميَّزتُهُ الآن جيّداً بين البيوت المتراصّة، بعلامة كنيسة خورا، وسقفه القِرمِيْدِيّ الكبير الذي يأخذ شكل مربّع مفتوح إلى السماء.

فجأة عادت إلى مساحة مخيِّلتي **فيروزة** ابنة **حاجي رمضان**، ووجدتُ نفسي أستعيد ابتسامتها المحيِّرة وعينَيْها المبطّنتَيْن الناعستَيْن، بلذّة محبّبة تشبه طعم الحلوى في فم طفل رضيع.

لا أدري كم مضى علي غافياً في مكاني، متلفِّعاً بردائي الثقيل، وحين استيقظتُ وجدتُ الشمس قد فارقت سماء إِسْطَنْبُل، وحلّ الظلام، وانتشر البرد في زوايا المكان. كان الجوع قد بدا يقرقر في بطني، فقاومتُهُ بحبّات من السُّكَّر المعقود بعصير الرمَّان، احتفظتُ بها مصرورة بورق ملوّن، كان **حاجي رمضان** دسّها في جيبي وهو يودّعني.

أخيراً أدركتُ بأنني سأمضي ليلتي في هذا المكان، فسلَّمتُ أمري

لله ورحتُ أفكّر بالزاوية المثلى لقضاء ليلة غير مقرورة بالبرد، وفيما كنتُ سابحاً بأفكاري، أبدّل بوجه فيروزة وجه الأندلسي الغريب، سمعتُ صوت مفتاح يدور دورات عدّة، ومع كلّ دورة صوت تكَّة ذات صدى عميق. شعرتُ برعب شديد، فمَنْ ذا الذي يفتح باباً في هذا الليل البهيم؟!

بالكاد نجحتُ في النهوض من مكاني، وتوجّهتُ إلى سرداب الدرج، لأسترق نظرة نحو مبعث الصوت.

ياللهول؛ ثمّة رجل يحمل سراج الطريق ولج لتوّه باب المِحْبَس الخامس، وأغلقه من الداخل. وبعد هُنَيْهَة انبعث ضوء خافت من فرجة أسفل الباب، ومن حوافّ نوافذ فتحات التهوية الداخلية المغلقة بدَرْفَات خشبية.

جلستُ على إحدى الدرجات التي تسمح لي برؤية الباب، إن مددتُ رأسي قليلاً. فكّرتُ في أن أطرق الباب على الرجل، ولكني تراجعتُ في اللحظة الأخيرة، فأنا لا أعرف مَنْ هو؟ ولماذا أتى في الليل؟ وماذا يفعل في الداخل؟ ولم أشأ أن أقف في موقف لا أعرف عواقبه.

بعد مضي مدّة طويلة من الوقت، لم يحدث شيء. أُطفئت الأضواء في الداخل، ولم أعد أسمع أيّ حركة. يبدو أن الرجل غطّ في نوم عميق، آيته شخير متقطّع.

عدتُ إلى موضعي الأوّل في الأعلى، فوجدتُ البرد شديداً غير محتمَل، ولذلك قرّ رأيي على أن أمضي بقية الليلة في سرداب الدرج، فهو أدفأ، ويمكن أن يسمح لي برؤية الرجل حال خروجه من القاعة.

استيقظتُ على صوت حركة الرجل الآتية من داخل المِحْبَس، وما هي إلّا لحظات حتّى عاد الضوء لينبعث من جديد من حافّة الباب السفلى، وحوافّ نوافذ التهوية. ثمّة أمر يحدث في الداخل. وبعد قليل وصلني

صوت المؤذّن الأندلسي عميقاً يعلن موعد صلاة الفجر. صعدتُ على رؤس أصابعي إلى الأعلى، ورحتُ أبحث عن جامع العرب في هذا الظلام الدامس، كان هناك ضوء حفيف منبعث من نوافذ عديدة، أدركتُ أنها نوافذ الجامع، وبعد قليل بدأ بعض الأندلسيِّيْن بالتقاطر إليه هابطين المنحدرات الزلقة. عندها قرّرتُ أن أصلّي الفجر في مكاني سرّاً، رغم أن الجهر سُنَّة واجبة في مذهب الإمام مالك، ولكنه، عزّ وجلّ، لا يكلِّف نفساً إلّا وسعها.

مع بزوغ شمس الصباح؛ سمعتُ مفتاح باب المِحْبَس يدور دورات عدّة ثمّ ينفتح، ليخرج الرجل حاملاً بيده اليسرى سراج الطريق، وقد سمح لي وقت إغلاق الباب من الخارج أن أتأكّد من ملامحه.

يا للهول؛ إنه **الأندلسي الغريب** الذي صادفتُهُ صبيحة اليوم الماضي وقال إن اسمه الطبيب محمّد بن أبي العاص! هبط الرجل الدرج مسرعاً، وتبعتُهُ بحذر شديد، بعد أن غاب عن ناظرَيّ تماماً. كان ضوء السراج دليلي الوحيد إلى مكان الرجل، لم أشأ أن يراني أو يشعر بوجودي، فقد أيقنتُ أن وراءه سرّاً، ولربّما يقودني هذا السرُّ إلى دون خيرنيمو راميريز، هذا إذا لم يكن هو الدون نفسه.

سرُّ المفتاح

استيقظتُ على ضحكات الحارس الماجنة. في البداية ظننتُها مناماً، ولكنني، حين فتحتُ عينَيَّ، رأيتُ وجه الحارس مغموراً بالظلال المتحرّكة خلف لهب السراج المتراقص في ظلام سرداب الدرج. تعمّد الحارس أن يظهر على هذه الصورة الطريفة إمعاناً في المداعبة. وما إن تأكّد من أنني أسمعه حتّى قال:

- لا تقلْ إنني لم أحذّركَ!

اعتذر منّي بشدّة وهو يغلق باب البرج وينظر إلى السماء التي بدأت تمطر رذاذاً حفيفاً، وقال:

- في الحقيقة تأخّرتُ عليكَ بسبب فقدي للمفتاح في أثناء الشجار، وكان عليّ أن أنتظر حتّى الصباح كي أحضر نسخة من ديوان القاضي.

قلتُ باسماً كي أبدّد عنه الشعور بالذنب:

- لا عليكَ، مرّت الليلة بسلام، ولم تظهر لي الأرواح في البرج.

قهقه عالياً، وزال الحرج عن وجهه، وهو يكشف عن رأسه المعصوب بعصابة قطنية يظهر فيها أثر الدم.

- أراذل الجِنْوِيِّيْن فاجؤونا بالضرب.

قلتُ بشيء من المداعبة:

- حمداً لله على سلامتكَ، رأيتُ الشجار كاملاً من فوق، ورأيتُكَ وأنتَ تكرُّ عليهم كأسد هصور، وهم يتراكضون أمامكَ كالقطط المذعورة.

احمرّت وجنتا الحارس غبطة، وقال:

- بحمد الله تمكّنّا من ردّهم على أعقابهم خاسئين. كلّ يوم يفتعلون مشكلة.

سألتُهُ:

- ما هو هدفهم؟

- منذ مدّة قبضنا على فرنجي متنكّر يحوم حول البرج، وحين قبضنا عليه وسقناه إلى قاضي گَلَطَه، اعترف بأن هدفه كان الصعود إلى البرج.

- لماذا يريد أن يصعد إلى البرج؟

ابتسم الحارس الأندلسي ابتسامة العارف ببواطن الأمور وقال بثقة:

- يريدون أخذ البرج، وتحويله إلى دَيْر للرهبان، فهم يعتقدون بأن السيّد المسيح عيسى بن مريم، عليه السلام، سيهبط منه عند الملحمة الكبرى!

أضحكني موضوع الملحمة الكبرى، فقلت:

- هل تعرف عدد الأبراج التي سيهبط منها المسيح يوم الملحمة؟

فغر الحارس فمه مستغرباً، فقلتُ وأنا أغادر:

- أحصيتُ أكثر من عشرين برجاً.

تركتُ الحارس في ذهوله، وأخذتُ الطريق الهابط إلى بيتي، وحين عبرتُ من أمام بيت **الشريف الأندلسي** ازداد المطر قوّة، فرأيتُها إشارة لزيارة الشيخ.

فور دخولي بادرني الشيخ مشيراً إلى سماط عليه أصناف من الطعام:

- أهلاً بعيسى بن محمّد، حضرتَ في الوقت المناسب، فقد كنتُ أتهيّأ لتناول الفطور. ما وراءكَ؟

قلتُ وأنا أتهيّأ لتناول قطعة خبز غمستُها بطبق العسل:

- في الحقيقة جئتُ البارحة لكي أستشيركَ بأمر سفري إلى الجزائر، كي أبحث عن القرصان البوني، فعنده الخبر اليقين عن خيرونيمو.

قال الشيخ:

- الخيرة فيما اختاره الله.

- أودّ أن أسألكَ عن رجل أندلسي أخبرني أنه طبيب واسمه محمّد بن أبي العاص، هل تعرفه؟

اعتدل الشيخ في جلسته، ونظر إلى عينَيّ، وقال:

- نعم، جاءني قبل وصولكَ بأيّام، وسهّلتُ له أمر الحصول على بيت من بيوت الحيِّ المتروكة، إنه يسكن قريباً منكَ، في البيت الذي بابه عند شجرة الكستناء الضخمة على منعطف الزقاق الذي يأخذ إلى بيتكَ، من جهة الطريق الهابط باتّجاه الجامع.

فاجأني حديث الشيخ، فأنا لم أره سوى البارحة، ووجدتُني أسأله:

- هل كنتَ تعرفه في غَرْنَاطَة؟

هزّ الشيخ رأسه نافياً، قبل أن يقول:

- هذا الرجل حيّرني حقيقة، لا يكاد يختلط بأحد، ويمضي وقته في البحث عن خزائن المخطوطات العربية. تخيّل أنني لم أره ولو مرّة واحدة في صلاة الفجر! قبل أيّام سألتُهُ عن سبب ذلك، فقال إنه حضر صلاة الفجر مرّة واحدة ووجدها تُصلّى على **مذهب أبي حنيفة النعمان**، وتختلف كثيراً عن صلاة المالكية، فقرّر أن يقضيها في بيته.

- هل هذا كلّ شيء؟

نظر الشيخ مليّاً ثمّ قال:

- سمعتُ أن شيخ الإسلام أعطاه أحد طوابق البرج، لكي يجمع فيه مخطوطات الأندلسيِّيْن المنهوبة .. هذا ما سمعتُهُ.

لم أشأ أن أُخبر الشيخ عن ليلتي في البرج، ورؤيتي له، إذ كنتُ أظنّ في تلك اللحظات أن ثمّة سرّاً خطيراً وراء الرجل، عليَّ أن أكشفه، ولذلك قرّرتُ تغيير الموضوع:

- هل تعرف **سليم أفندي الأندلسي**؟

بدا الاستغراب على وجه الشيخ:

- لم أسمع بمثل هذا الاسم من قبل؟ سليم وأندلسي؟

- ما الغريب في ذلك؟

- لا يسمّي الأندلسيون سليماً، ولكنْ، ما شأنه؟

- لا شيء، ذُكر البارحة اسمه أمامي، وقيل لي إنه ترجمان عند الصدر الأعظم!

لم يعلّق الشريف الأندلسي بشيء، ولكنْ، بدا الاهتمام على وجهه، فكيف لا يعلم شيئاً عن سليم أفندي هذا، وهو شيخ طائفة الأندلسيِّيْن في إِسْطَنْبُل؟! عند هذا الحدّ انتهى الكلام عن الرجلَيْن الغريبَيْن، ابن أبي العاص وسليم أفندي، وفي تلك اللحظات، ولمّا فرغت الأطباق من الطعام، اعتدل الشيخ في جلسته، وقال لي:

- سأخبركَ بأمر مستجدّ.

- كلّي آذان صاغية.

تحامل على نفسه، ونهض بقامته الضئيلة، ليخرج من الباب ويغيب حصّة، جال نظري خلالها في تلك الخطوط الزرقاء على مفارش الجلسة، لكم تشبه تلك التي مازالت صورها في ذاكرة طفولتي .. يا للأندلسيِّين كم يتشابهون فيما يُؤثِرون! وبينما هو يدلف الحجرة؛ ناولني صفحة من ورق الكَاغِد، وقال هو يعاود الجلوس على ركبتَيْه:

- هذا الكتاب وصلني قبل أيّام من صديقنا أحمد بن البَرْطَال الغَرنَاطِيّ، أريدكَ أن تترجمه لي كونكَ أكثر معرفة منّي بالقَشْتَالِيَّة، وأرجو أن تُحضِر الترجمة صباح الغد، لكي نرى ما سنفعل.

حملتُ الكتاب، وغادرتُ بيت الشيخ وقد أكّدتُ له أنني سأبذل قصارى جهدي لأن أعود به مترجماً صباح الغد.

ما إن جزتُ بضع خطوات بعيداً عن البيت؛ حتّى عاد المطر ليهطل، وبغزارة أكبر. فكّرتُ في العودة، لأنني كنتُ أرتدي نعالاً يكشف كعابي، ولكن الباب كان قد أُغلق سريعاً، فاستأنفتُ سيري أسرع على الطريق المنحدرة نحو بيتي.

كنتُ حذراً قدر ما أستطيع، من أن تنزلق قدمي إلى إحدى بِرَك الماء

المخادعة التي تخفي تحت سطحها العَكِر حفراً عميقة، أو حجارة ملساء يمكن أن تطوّح بي على منزلق قاس، فيبتلّ الكتاب الذي دسستُ في جبتي ويحول حبره. حذري وهواجسي يتناوبان طريقي.

ازداد هطول المطر، وبدأ يتجمّع في سيل كبير، ترفده سيول أصغر من مختلف الأزقّة، ليمضي متدحرجاً إلى بَوّابة الحيِّ الأندلسي المفتوحة على مياه الخليج العكرة.

نجحتُ في تلافي دفقة ماء كبيرة اندفعتْ نحوي فجأة. المطر نعمة في كلّ مكان، إلّا في إِسْطَنْبُل فهو نقمة. انتبهتُ لهذه السخرية الشيطانية، فاستغفرتُ ربيّ؛ وسارعتُ إلى ارتقاء حجر مكعّب صادفني تحت شرفة بيت، هرباً من سيل وصل ارتفاع مياهه إلى ركبتَيّ.

بدا المطر المتساقط من حوافّ تلك الشرفة أشبه بستارة من سلاسل فضّة، تداعبها نسمات لطيفة. تذكّرتُ أنني قرأتُ في سِفرٍ باللاطينية عن ملك فارسي كان يزيّن قصره بستائر حيكت بخيوط الفضّةً. هل رأى ذلك الملك منظراً كهذا حتّى خطرت له فكرة الستائر الفضّية أم أنه مجرّد ترف جامح؟

يسخر الفرنجة عادة من ترف الفُرْس والعرب، ولكنهم حين يتحدّثون عن التُّرك لا يذكرون هذا الأمر مطلقاً .. يسخرون من أشياء كثيرة، ولكنْ، ليس من بينها موضوع التَّرَف. خلال الشهور الخمسة الماضية عرفتُ السبب الكامن وراء ذلك، فالتُّرك بعيدون كلّ البعد عن التَّرف والكُفر بالنعمة، ولذلك أنا واثق تمام الثقة من أن دولتهم ستعيش طويلاً.

أشدّ ما كان يغيظني في **دولة بني الأحمر**، حكّام **غَرْنَاطَة**، حياة التَّرف الباذخة التي عاشوها، على الرغم من العدوّ المتربّص، المحدِق بهم من الجهات كلّها.

ملتُ ببصري نحو الباب، ففاجأتْني عبارة **لا غالبَ إلّا الله**؛ مكتوبة على الأُسْكُفَّة بخطٍّ غَرْنَاطِيّ مُتقَن داخل زخرفة تشبه زخارف مشيّدات **بني الأحمر**. تبسّمتُ من هذه المصادفة الغريبة، وعادت إلى رأسي تساؤلات قديمة عن سبب اختيار بني الأحمر لهذه العبارة شعاراً لهم؟ هل كانوا يهجسون بمصيرهم الغامض، بينما هم يشيّدون قصورهم وقلاعهم محمولين على وَهْم القوّة والسيطرة والرفاه؟!

ها قد توقّف المطر، وطُويت ستائر الفضّة كأنها لم تكن، وانقشع المدى أمامي، فظهرت بكلّ وضوح مئذنة **جامع العرب** المربّعة، القريبة من طُرُز المآذن الأندلسية، ولكنْ، مضافاً إليها قَلَنْسُوَة مخروطية تميِّز مآذن بني عثمان. أخبرني الشريف الأندلسي الذي كان شاهداً على الحَدَث، أن معماراً أتى من **طوبقابي سراي**، بعد انتهاء تجديد المسجد، وجَّه عمّاله بوضع هذا المخروط الرصاصي فوق المئذنة المربّعة، من دون أن يستأذن الأندلسيِّيْن القائمين على أمر البناء. لكنه قال للشيخ **الشريف الأندلسي**:

- لا أحد يستطيع أن يقول إنها إضافة جميلة، ولكنها ضرورية.

المآذن المخروطية؛ عنوان من عناوين غلبة العثمانيِّيْن على الأراضي التي أخضعوها، تماماً كما هو حال المذهب الحنفي في الفقه، والمذهب الماتُريدي في العقيدة. التُّرك لا يساومون على رموز غلبتهم، وعين هذا هو سبب الرهبة التي زرعوها في قلوب ملوك فَرَانْصَة وإشبانية، ونبلاء شبه جزيرة إيطالية جميعاً، حتّى أطلقوا على سلطان إِسْطَنْبُل لقب **السيّد الكبير**. السيّد الكبير، باللاطينية والإيطاليانية، يعني الشخص المرهوب الجانب، المرهوب من دون أن يضطرّ لقول أو فعل شيء، رهبتُهُ تأتي من ذاته، من نظراته، من صمته!

مع انحسار موجات السيل، بدت حجارة الطريق نظيفة لمَّاعة، فنزلتُ

عن الحجر المكعّب، وتابعتُ سيري، عائداً إلى **لعبة التداعي** التي هيمنت على تفكيري في الآونة الأخيرة، ولم تبارحه منذ مغادرتي بيت الشيخ.

في بدايات وصولي إلى **إسْطَنْبُل** لم أكن أفهم الأتراك جيّداً، كنتُ أستغرب إصرارهم على منح قبور المسلمين القديمة أسماء صحابة ثبتت وفاتهم في الشام أو الحجاز. لن يغرب عن بالي كيف امتقع وجه الشريف الأندلسي حين سألتُهُ مشكّكاً بصحّة تلك القبور، وكيف منعني من الحديث بالأمر أمام أحد سواه! يومها روى لي قصّته مع الضريح المزعوم لمَسْلَمَة بن عبد الملك في **جامع العرب**، فقد كانت لدى الشيخ قناعة تقول: إن ضريح الرجل المسلم القابع في الجهة الجنوبية الغربية من «جامع العرب»، يعود، في حقيقة الأمر، لـ **أبي أيّوب الأنصاري** ذاته، وليس لـ **مَسْلَمَة بن عبد الملك** كما يتوهّمون هنا. وقد أخبرني الشريف الأندلسي أنه حاول أن يُوصِل رأيه لصديقه شيخ الإسلام **خوجة سعد الدِّيْن محمّد جلبي أفندي**، إلّا أن الأخير زجره بشدّة، وقال له غاضباً:

- كيف تجرؤ على التشكيك برؤيا مولانا العارف أق شمس الدِّيْن، التي رأى فيها موضع النور قرب ناحية القسمديون؟

كان شيخ الإسلام يشير إلى حادثة «لقاء الأرواح» التي لم يكن الشريف الأندلسي سمع بها قبلاً، وهي قصّة متداوَلة بين التُّرك تقول: إن معلّم **السلطان محمّد الفاتح، الشيخ أق شمس الدِّيْن الدمشقي البكري**، رأى، فيما يرى النائم، نوراً في المكان، فقال لعلّ قبر **أبي أيّوب** هنا، وتوجّه لذلك الموضع، فالتقت روحاهما، وهنّأه بالفتح، وقال له: شكر الله سعيكم؛ لقد خلّصتُمُوني من ظلمة الكَفَرَة. عندها أخبر الشيخ أق شمس الدِّيْن مريده السلطان محمّد الفاتح بالرؤيا، فأمر السلطان ببناء قبّة في ذلك المكان، ولذلك؛ لزم الشريف الأندلسي الصمت بعد ذلك

اللقاء العاصف، ولم يعد يذكر الأمر إلّا أمام الأندلسيِّيْن المقرّبين، وباللغة القَشْتَالِيَّة، خشية من إغضاب شيخ الإسلام الذي حذّره بشدّة من إعادة التجديف بمثل هذا الكفر!

بتُّ أفهم الآن ما يبدو للآخرين تصلُّباً عند التُّرك في قضايا ليست من أصل الدِّيْن. إنكارها، أو إقرارها لا يمسّ جوهر العقيدة، ولا يُخرج من الملِّة، فهذا التصلّب هو سبب دوام ملكهم. وقد لخّصه القطب الصوفي أق شمس الدِّيْن بمقولة عرفانية قرأتُها كثيراً في زوايا إِسْطَنْبُل ورُبَطها: **مفتاحُ الجنَّةِ معلَّق بـ لا.**

وصلتُ أخيراً إلى الزقاق المؤدّي إلى بيتي، وكنتُ قد تفقّدتُ الكتاب مراراً خلال سيري، حامداً الله أن المطر لم يتسلّل إليها. وبينما كنتُ أنعطف يميناً، لفت نظري جُرَذ كبير يسحب شيئاً لمّاعاً من بركة الماء العكرة، يريد أن يدخل به جُحْره. قرفصتُ لأتحقّق من هذا الشيء الذي أثار شهية الجُرَذ. فإذا به مفتاح مصبوب من النحاس، نجح الجُرَذ بإدخال سنّه وساقه، وبقي قوسه الكبير عَصِيّاً على فتحة الجُحْر. ثمّة كلمة محفورة لم أتبيّنها جيّداً. أمسكتُ قوس المفتاح بسبّابتي وإبهامي وجذبتُهُ. فاجأتني قوّة السحب من داخل الجُحْر! جذبتُ بقوّة أكبر، ونجحتُ بإخراج المفتاح، ولكنْ، مع الجُرَذ الضاغط بأسنانه على سنّ المفتاح.

نفضتُ المفتاح بقوّة مرّات عدّة، والجُرَذ متشبّث فيه. ضربتُهُ بحائط البيت ضربات متوالية أنهكت الجُرَذ، وأجبرته على التخلّي عن المفتاح، ولكنْ، وبعد سقوطه من الضربة الأخيرة على الحائط، انقضّ على قدمي اليمنى، وخدش كعبي بأسنانه الحادّة، فصرختُ متألّماً.

مضى الجُرَذ لائذاً بجُحْره، ورحتُ أتفقّد جرحي النازف .. ثمّة في

الجوار مَنْ سمع صرختي، وإذ بصوت أعرفه جيّداً يقول لي من نافذة الطابق الأوّل:

- سأفتح لكَ الباب، اصعدْ إليّ بسرعة.

نظرتُ إلى الأعلى، وإذ به **الطبيب ابن أبي العاص** مكشوف الرأس، يشير لي بإصرار أن أصعد إليه.

انتبهتُ إلى أن المفتاح ما زال في يدي. دسستُهُ في حزامي، وتوجَهتُ نحو باب البيت الذي انفتح عن الطبيب وهو يدعوني للدخول.

في حجرة كبيرة غير مرتّبة، تعجّ بزجاجات الأشربة والأعشاب الطبّية، والمخطوطات المكدّسة في مكتبة مهملة، جلستُ على كرسيٍّ خشبيٍّ قرب موقد النار الذي أسرع الطبيب بوضع حديد الكيِّ عليه.

قال، وهو منهمك بخلط أشربة داكنة اللون في كوب نحاسيٍّ صغير:

- من حسن حظّكَ أنكَ قرب بيتي. سأكوي جرحكَ الآن، وأعطيكَ هذا الدواء، ولن ترى المرض، بإذن الله.

شربتُ الشراب المُرَّ، ووضعتُ يدي على الطاولة، بعد أن حشا الطبيب فمي بقطعة قماش، طلب منّي أن أعض عليها بقوّة.

مضى الأمر بيُسر .. لم أصرخ كما توقّع الطبيب، فتنفّس براحة وهو يمضي إلى منضدة أدواته ليجلب مرهماً وضِمَاداً من القطن المقصور. وضع المرهم على موضع الكيِّ، ولفَّه بالضِّمَاد، وهو يقول:

- الطاعون تبدَّى من الشمال، وسيصل إلى إِسْطَنْبُل هذا الصيف.

قلتُ باستخفاف:

- أنا في غاية الامتنان لكَ، أيّها الطبيب، ولكنه **مجرّد خدش!**

تبسّم الطبيب ونهض نحو منضدة عليها شمعدان وسِفر مخطوط ودواة وحبر. أمسك السفر بيده وقال:

- هذه **رسالة في تحقيق الوباء**، ما زلتُ أكتبها بناء على طلب **القاضي إسعاد أفندي**. الجُرْذان هي الناقل الأسرع لوباء الطاعون. لا تَستهنِ بالأمر.

قلتُ بثقة:

- الأعمار بيد الله، يا سيّدي.

هزّ رأسه هزّات خفيفة وقال وهو ينظر إلى عينَيّ:

- ما الذي كنتَ تحمله بيدكَ حين خدشكَ الجُرَذ؟ أهو مفتاح؟

- نعم؛ مفتاح بيتي سقط منّي، وحين انحنيتُ لأنتشله عضّني الجُرَذ.

لم يزح نظره عنّي قيد أنملة، بل صار يتفرّس في وجهي بتصميم أدْخَلَ الرعب إلى قلبي.

بعد فاصل صمت قال:

- لم تُخبرني باسمكَ؟

قلتُ وأنا أحاول أن أبدو متماسكاً:

- **عيسى بن محمّد؟**

- واسمكَ القَشْتَاليِّ؟

- **خيسوس** ..

شهق شهقة جعلتْني أنهض عازماً على الفِرَار إن بدر منه شيء، وحين رأيتُ أنه لم يأت بحركة قلتُ:

- **خيسوس غونثالث.**

فجأة استبدل بنظراته المخيفة ابتسامة عريضة وهو يقول:

- **خيسوس غونثالث؟**

نظر إليّ مليّاً، ثمّ قال:

- مِن **طُلَيْطِلَة؟**

- نعم، من طُلَيْطِلَة .. هل تأذن لي بالانصراف؟

لم يتحرّك من مكانه، واكتفى بإشارة من يده إلى الباب، وهو يشدّد عليّ الطلب بأن أُراجعه يوم غد، لكي يكشف على موضع الكيِّ.

بيت الغريب الأندلسي

عدتُ إلى بيتي مسرِعاً، حذِراً من أن ألتفتَ خلفي خشية أن أجده ورائي يتبعني. نظراته وهو يسألني عن اسمي عزّزت شكوكي بأنه قد يكون **دون خيرونيمو** ذاته. وأخذتُ ألوم نفسي: كيف كشفتُ له عن اسمي واسم مدينتي، هكذا؛ من دون أدنى تروٍّ؟! لا شكّ في أنه وجد صِلَة بين اسمي واسم زوج خالتي **سيرخيو غونثالث**، وإلّا ما معنى شهقته وتجمُّد نظراته؟

إن صدقت شكوكي، وكان حقّاً هو **دُون خيرونيمو راميريز**، فهذا يعني أن خطّتي فشلتْ، وعليّ أن أبحث عن طريقة للاختفاء، فلربّما سعى لأذيّتي.

هل من المعقول أن ثلاثة بيوت .. ثلاثة فقط، تفصل بيته عن بيتي؛ ولم يصدف أن رأيتُهُ ولو مرّة واحدة طوال الشهور الماضية؟! ولكنْ، ماذا لو كان هو مَنْ يراني ويترصّدني؟ وما يدريني أن البدر بن الحَكَم أخبره باسمي منذ ذلك الوقت؟ وما سؤاله لي اليوم إلّا ليتحقّق إن كنتُ صادقاً أم كاذباً. نعم، هو كذلك .. حتّى إنه لم يسألني عن اسمي حين اصطدمتُ به صباح أمس عند الإِسْكِلَة. ولكنْ، لماذا ذكّرني بنفسه حين رأى أني لم أتذكّره؟

هواجس وأسئلة كثيرة أخرى كانت تصرخ في رأسي تلك الليلة، وأنا غارق في تأمّل لهب الموقد، عازماً على بذل ما أستطيع لتحقيق هُوِيّته، وعند ذلك سنرى كيف يكون انتقامي.

تذكّرتُ كتاب **أحمد بن البَرْطَال**، كان مايزال مَطوِيّاً في ثَنَيَات قميصي. انتشلتُهُ بأناة، فقد تسرَّبتُ الرطوبة إلى ثيابي وطالت القميص. من رابع المستحيلات تجنّب المطر في هذه المدينة العجيبة، ولكنْ، من حسن حظّي أن الحبر لم يتفشَّ، وكلمات الكتاب بقيت سليمة كلّها، رغم اصطباغ الورقة بلون رمادي.

وضعتُ الكتاب على المنضدة ريثما يجفّ تماماً، وأحضرتُ ورقة ودَوَاة الحبر وريشةً. التمع في ذهني المفتاح. كدتُ أنساه وهو سبب كلّ ماجرى لي اليوم. سحبتُهُ من حزامي ورحتُ أتأمّله، فاجأني أنه أكبر بكثير ممّا كنتُ أتصوّر. قوسة بحجم الريال الفضّي، وساقه أطول من شبر، وما بدا لي أوّل الأمر أنه كلمة واحدة محفورة في دائرة القوس، ظهر أنها جملة بالتركية وإلى يسارهما رَقْم: **گلَطَه قُلَّة سى**3. القُلَّة هي رأس كلّ شي، الإنسان، والجبل، والمدينة، ولا أدري لم أخذها الأتراك وتركوا كلمة البرج التي نسمّي بها هذا الصنف من الصروح؟ وقد علمتُ، فيما بعد، أنهم أخذوا كلمة البرج أيضاً، ولكنْ، خصّوا بها البروج الفلكية فقط. لستُ أشكّ في أن الفقيه الذي أدخل القُلَّة إلى التركية كان شاعراً .. وقعها أجمل بكثير من البرج، ومعناها أوسع.

إذن؛ هو مفتاح **برج گلَطَه** الذي أضاعه الحارس الضاحك في شجاره مع الجِنْوِيِّيْن، وجرفه السيل من أعلى الطريق حتّى وصل إلى منعطف الزقاق المؤدّي إلى بيتي؟! ما هذه الاتّفاقات المباركة؟ الشكر لكَ، يا إلهي .. ما الذي أريده أكثر من ذلك حتّى أصدّق أنها إشارة سماوية منكَ وصلت أخيراً بعد طول انتظار؟!

سقط النعاس عليّ مرّة واحدة، كأنه قِرْبَة ماء من تلك القِرَب العظيمة التي تسقط علينا في هذه المدينة من حيث لا نحتسب، ولذلك أجّلتُ

ترجمة الكتاب واستسلمتُ لنوم عميق، رأيتُني فيه أركض في أرض وعرة تنتهي بواد سحيق، والطبيب ابن أبي العاص مرتدياً زِيّ **فرسان الصليب**؛ يتبعني على حصان وبيده رمح طويل. خلتُني طعيناً، وأشباح أشخاص يحيطون بسقطتي على حصباء سوداء، ويُداوون جروحي بمراهم قِرْمِزِيّة، فلا أقدر على تمييز المراهم من **دمائي النازفة**.

استيقظتُ مذعوراً وكأنني نجوتُ من الغرق في بئر عميقة، وحمدتُ الله أن ما رأيتُهُ لم يكن إلّا محض منام. وتناهى إلى سمعي صوت المؤذّن الأندلسي يهتف: **لا إله إلّا الله**. الأذان في نهايته إذن، ولم أتيقّن إن كان أذان العشاء، أم هو أذان الفجر. المؤذّن الحلبي كان يضع **التثويب**، أي قول **الصلاة خير من النوم**، في نهاية أذان الفجر، جرياً على عادة مؤذِّني الحنفية، في حين يضعه مؤذّنو المالكية بعد **حَيّ على الفلاح**، فكان عليَّ أن أنتظر ساعة، أو أكثر بقليل، حتّى أتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود. احترتُ في أمري، هل أصلّي العشاء أم الفجر؟ وهل من اللائق أن أقصد الجامع من دون أن أعرف أيّ صلاة سأصلّي؟

أشعلتُ شمعة من الموقد الذي لم يبقَ فيه سوى ثُمَالَة جمرات تحت رماد، فالتمع المفتاح أمامي على الطاولة، ومعه التمعت في ذهني فكرة رأيتُها كشفاً من تلك الكشوف التي يتحدّث عنها المتصوّفة .. يا إلهي؛ كيف لم أتنبّه لهذا الاتّفاق العجيب؟ لقد ظهر الجُرَذ أمامي والمفتاح في فمه، في اللحظة عينها التي كانت تدور في خَلَدي مقولة **الشيخ آق شمس الدِّين: مفتاحُ الجنَّة مُعلَّق بـ لا**، لا شكّ في أن السرّ يكمن بالحروف الثلاثة: الباء، واللام، والألف، بعد كلمة مُعلّق. ثمّ إن جُحْر الجُرَذ كان في جدار بيت ابن أبي العاص، فهل أريد إشارة أوضح من هذه الإشارة؟

ارتديتُ ثيابي، وانتعلتُ خُفّي الذي يستر قدمَيَّ حتّى الكاحل، وحزمتُ

أمري على أن أقيس بالخطوات، المسافة من بيتي إلى بيت الطبيب. كان الجوّ شديد البرودة، والسماء صافية يضيئها نصف بدر. لم يكن ثمّة ألم في قدمي، وليس هناك أحد في الزقاق غيري. بدأتُ أعدّ الخطوات حتّى بلغتُ باب بيت ابن أبي العاص. إنها إحدى وثلاثون خطوة بالتمام والكمال. عندها حسبتُ الحروف الثلاثة بحساب الجُمَّل: **الباء اثنان، واللام ثلاثون**، و**الألف واحد: ثلاث وثلاثون**. وتيقّنتُ أن **حرف الباء** ليس من ضمن الإشارة فحذفتُهُ! الإشارة في حرفيَ **اللام والألف** فقط: **لا**.. كلّ شيء كان يقودني إلى هذا الرجل، ومع ذلك ثمّة شيء يقول لي لا بدّ من أن تتحقّق، يا عيسى، فما أنتَ مُقدِم عليه يمسّ حياة إنسان، سيبقى ذَنْبه معلَّقاً في رقبتكَ إلى أبد الآبدين.

كان البيت معتماً، ولا يلوح فيه أثر لبصيص ضوء. خطر لي أن أتسلّل إليه، فقد أعثر على ما يؤكّد شكوكي، أو ربّما ينفيها. وخمّنتُ أنه ذهب إلى البرج، كان هناك مساء أمس. ولكنْ، ماذا لو كان نائماً؟ وما الذي يؤكّد لي أن الوقت ليس فجراً؟ لقد غادر البرج البارحة بعد صلاة الفجر!

حسماً لتردّدي وحَيْرتي قرّرتُ أن أتحقّق بنفسي؛ إن كان في البرج أم لا؟ كان الشارع خالياً من المارّة، والبيوت تغطّ في نوم عميق، ولا يُسمع في الناحية كلّها سوى صوت بعيد لكلب يعوي متألّماً. وصلتُ أخيراً إلى البرج، ودرتُ حوله بحذر. الباب مغلَق، والحارس الأندلسي غادر إلى بيته مع غروب الشمس، وثمّة ضوء شحيح، لا يكاد يُرى، ينبعث من النافذة المطلّة على فم الخليج، وهي جهة ميتة، لا يراها المرء إلّا إذا دار حول البرج.

عدتُ مسرِعاً إلى بيت ابن أبي العاص وقد تيقّنتُ أن الوقت عشاء، وليس فجراً، فليس ثمّة أثر للشفق الأبيض، ولا الأحمر في الأُفق. وفتحتُ الباب بدفعة قوية من يدي. البيت صغير جدّاً يشبه بيتي تماماً، فيه

حجرتان، واحدة في الأسفل والثانية في الأعلى. صعدتُ الدرج الخشبي المتحلزن، ووجدتُ بقايا جمرات في الموقد، أسرعتُ لإيقاد شمعة منها، ورحتُ أبحث عن أيّ شيء يمكن أن يقودني لكشف حقيقة هذا الرجل.

الرسالة التي حدّثني عنها **حول وباء الطاعون** على حالها، كما رأيتُها صباح اليوم على المنضدة. تصفّحتُها ولفت نظري جمال الخطّ: **رسالة في تحقيق الوبا**، لم يُنجِز منها سوى ثلاث صفحات، ليس فيها شيء يخصّه سوى أنه أنفق الزمان في تحصيل الطبّ، وطالع فيه مصنفات جليلة، كسِفر **القانون في الطب** لابن سينا، وأسفار **جالنيوس** و**أبقراط**، وأنه أحبّ أن يكتب رسالة متعلّقة بالوباء، وتحقيقها بأسبابه، وكونه من أثر الأمراض.

آلات الطبيب على حالها، مصفوفة فوق منضدة أشبه برفٍّ من الخشب قرب النافذة. والمكتبة في الجهة المقابلة مليئة بمخطوطات عربية. تفحّصتُ إحداها، فكانت **كتاب الطواعين** للحافظ أبي بكر عبد الله بن محمّد بن عبيد الله بن أبي الدّنيا، وإلى جانبها **جزء في الطاعون** لتاج الدِّيْن عبد الوهّاب بن عليّ بن عبد الكافي السّبكي. ومعها **الطّبّ المسنون في دفع الطاعون** لشهاب الدِّيْن أحمد بن يحيى بن أبي بكر ابن أبي حَجْلَة التِّلِمْسَانيّ ... وهكذا كان الطاعون هو الغالب على عناوين المخطوطات، باستثناء مخطوط **القانون في الطبّ**.

لم أعثر على شيء ذي بال في الحجرة العليا. الحجرة السفلى كانت أصغر بكثير بسبب الدرج وبيت الخلاء، ومع ذلك وجدتُها تَعِجّ بالأغراض: ثياب فرنجية معلّقة على مشجب طويل، وعدد من القبّعات الإيطاليانية والإشبانية. على كرسيّ ثمّة جُبَّة صيفية تركية، وفي زاوية قَصِيَّة عدد من خفوف الجِلْد، بعضها طويل والآخر قصير. وفي الزاوية المقابلة خزانة

خشبية مغلَقة، عليها أطباق وطنجير من النحاس. فتحتُها فوجدتُ فيها جبناً أصفر جافّاً، من ذاك الذي يجلبه فلّاحو تُرَاقْيَا إلى بازار المدينة صباح كلّ سبت، وثمّة لحم مقدّد رائحته نفَّاذة، وبقل مجفّف، وقِطّين، وجوز، ولوز، من تلك الأصناف التي يبيعونها في السوق المصري.

جلستُ أستريح على كرسي متهالك، وأنا محبَط من النتيجة المخيّبة. لا شيء في البيت يمكن أن يقودني إلى تأكيد شكوكي أو دفعها. أطفأتُ الشمعة، وهممتُ بالنهوض، وإذ بباب البيت ينفتح. لبثتُ في مكاني كأنني قطعة حجر. أُغلِق الباب بقوّة، وصعد أحدهم الدرج. لم أتيقّن تماماً إن كان الطبيب أم شخصاً آخر، وما إن سمعتُ خطواته على خشب سقف الحجرة حتّى هرعتُ بسرعة خاطفة نحو الباب ففتحتُهُ بحذر شديد، ثمّ أغلقتُهُ بحذر أكبر، وركضتُ باتّجاه بيتي، وصعدتُ إلى حجرتي العليا وأنا ألهث من التعب والخوف.

ما الذي فعلتُهُ؟ كيف كنتُ سأبرّر له وجودي في بيته لو كنتُ ما أزال في الحجرة العليا حين وصل؟ هل كان سيقتنع إن قلتُ له إنني أتيتُ بسبب ألم قدمي الشديد؟ يا إلهي! لقد نسيتُ قدمي تماماً!

لم أكن قد هدأتُ عندما سمعتُ قرعاً قوياً على الباب. ليس من عادة أحد أن يزورني في مثل هذا الوقت. نظرتُ من النافذة، فلم أتبيّن الطارق، كان يرتدي عِمَامَة وجُبَّة، فخمّنتُ أنه الشريف الأندلسي، أتى بعد صلاة العشاء كي يرى ما حلّ بكتاب ابن البرْطَال.

أخذتُ سراج الطريق بيدي، وفتحتُ الباب وأنا أتهيّأ للقاء الشيخ، وإذ به الطبيب ابن أبي العاص. كدتُ أسقط أرضاً من خوفي. وأيقنتُ بأنه كشفني وجاء لكي يحاسبني.

حافظتُ على تماسكي بصعوبة بالغة وهو ينظر إليّ بحدّة، قبل أن يقول:

- ما بكَ؟

ازدردتُ ريقي:

- لا شيء، ولكنكَ فاجأتَني، أيّها الطبيب، تفضَّلْ.

- لا أريد أن أدخل في هذا الوقت، جئتُ أطمئنّ عليكَ .. هل أصابتكَ حمَّى؟

- لا، أنا بخير.

وضع يده على جبيني، ثمّ أنزلها إلى رقبتي، وهزّ رأسه فرحاً:

- الحمد لله، أمورَك بخير .. كنتُ أخشى عليكَ من الحمَّى.

قال كلمته الأخيرة وهو يرفع يده مودّعاً:

- غداً أكشف على موضع الكيِّ.

أغلقتُ الباب بسرعة وصعدتُ إلى حجرتي ولهاثي يسبقني .. ما هذه الزيارة الغريبة؟ وكيف عرف بيتي؟

لقد أكّدت لي هذه الزيارة أنه كان يعرف بيتي، ويعرفني منذ مدّة طويلة، وما تظاهُرُه بنسياني صباح البارحة إلّا إمعاناً في خداعي. وكي أطرد هواجسي بدأتُ بقراءة كتاب ابن البَرْطَال، وأوّل ما لفت نظري أن البسملة بالعربية ومَتْن الكتاب بالقَشْتَالِيَّة:

إلى الفقيه الإمام الشريف الأندلسي في إِسْطَنْبُل

بسم الله الرحمن الرحيم وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وآله وصحبه وسلّم تسليماً

فيما يتعلّق برغبة حضرتكم معرفة الأحداث المُتعلّقة بالمأساة الجديدة لأمّتنا، وجُرم التهجير الجاري على قَدَم وساق، وما يحدث في ما بات يسمّى مملكة إشبانية أقول

سيّدي بأن مُرِيدِيْكُم لن يكونوا سعداء حتّى في خير بقاع بلاد المسلمين، ما دام أن التهجير يتمّ بهذه الطريقة المريعة الظالمة.

كما سبق وأخبرتُكُم، مولاي الشيخ، فإن الملك فيليب بن فيليب بن كارلوس، أمضى بخاتمه في التاسع من أبريل الماضي سنة 1609 مسيحية، على مرسوم يقضي بطرد الموريسكيِّيْن، هكذا يسمّوننا في المرسوم، متحاشين أن يسمّوننا باسمنا الذي نُعرَف به وهو (الأندلسيُّون)، يريدون أن يقولوا إننا غُزاة من المور، وإنهم سيُعيدوننا إلى بلاد المور. يا لَمَكرِهِم!

حكومة فيليب بن فيليب تعلم أن تهجير الأندلسيِّيْن سيتسبّب بمشكلة كبيرة، وسوف يؤدّي إلى تعطيل الأرض والفِلَاحة، ومع ذلك أصرّ رجال الدِّيْن على الطرد، بل إن الشخص المسمّى أليا جا خايمي بليدا رئيس محاكم التفتيش في بَلَنْثِيَة طلب من الملك إنهاء وجود المسلمين الأندلسيِّيْن حتّى لو كلّف ذلك قَتْلهم جميعاً. وحتّى دوق ليرما اللعين لم يلبث أن بدأ يشيع بين الناس أن الأندلسيِّيْن في بَلَنْثِيَة يتعاونون مع قراصنة المسلمين.

لقد قرّروا البدء ببَلَنْثِيَة، والسبب أن أهلنا فيها أكثر من الغزاة القَشْتَالِيِّيْن كما تعلمون. وتبيّن لنا أنهم اتّفقوا سرّاً على خطّة التهجير اللعينة، فوصلت كتائب قوّات التيرثيو الهمجية التي كانت ترابط في إيطالية، واحتلّت موانئ بَلَنْثِيَة جميعاً، وعندها أمر نائب

الملك بنشر مرسوم الطرد في أواخر شهر سبتمبر، ولكن ذلك لم يرقْ للأعيان من أصحاب الأراضي، لأن الطرد سيعني تعطّل زراعاتهم، وبالتالي إفقارهم، فاجتمعوا مع الحكومة للاحتجاج على الطرد، فعرضت الحكومة عليهم أملاك وأراضي أبناء أمّتنا التعيسة مقابل خسارتهم، فصمتوا وباركوا الطرد.

سُمح للناس بأخذ ما يمكنهم حمله، أمّا بيوتهم وأراضيهم، فقد انتقلت ملكيّتها بموجب المرسوم إلى الأعيان من القَشْتَالِيِّيْن ومشايعيهم. وبعد إلحاح من بعض الأعيان من كبار الملّاكين القَشْتَالِيِّيْن سُمح ببقاء عدد صغير من العائلات لا يتجاوز الستّ من بين كلّ مائة عائلة للحفاظ على الزراعة والخدمة.

إن أقسى القرارات وأخبثها، سيّدي الفقيه، كان التحايل على قانون الطرد الذي كان يجيز للأهل اصطحاب أطفالهم، وقد عارض ذلك بشدّة رئيس أساقفة بَلَنْثِيَة ريبيرا الملعون، فعمل على فصل الأطفال عن والديهم، بغية استعبادهم، وتنصيرهم «لخير أرواحهم» كما قال في عِظَة الأحد السابق للطرد.

ولم يتوقّف الأمر عند ذلك؛ فقد أُجبر المطرودون التعساء على دفع أجور نقلهم إلى سواحل بلاد المسلمين في الجهة المقابلة من البحر. وعندما احتجّ الناس على هذا الظلم، بسبب عدم امتلاكهم ثمن ركوب البحر، قُتلوا على الفور، وأُلقيت جثثهم إلى الأسماك لتأكلها.

ذلك كلّه دفع أهلنا إلى التمرّد، فسيطروا على وادي أيورا، ومويلا دي كورتيس. وكذلك تمرّد أهلنا في ساحل بَلَنْثِيَة وافتكّوا وادي لوغار من أيدي جنود التيرثيو.

ذلك مختصر ما سمعتُهُ من الواصلين إلى مَرسَى الجزائر، وقد أعربوا لي عن خشيتهم من أن المذابح ستكون مصير أولئك المتمرّدين، ولكن الناس يئست من الحياة، وبات الموت على أرض الوطن مطلبهم

الأوّل، خير من أن يموتوا في عرض البحر أو في بلاد غريبة.

واخيراً أودّ أن أنقل لكم تحيّات مولانا الشيخ الأشقر التُّطَيْلِيّ الذي وصل بحول الله وتوفيقه إلى الجزائر قبل أيّام.

سأُوافيكم بكلّ جديد يصلني، ولكنْ، أرجوكَ، يا سيّدي الفقيه، أن ترسل من جانبكَ رجلاً ثقة إلى البُنْدُقِيَّة لِلِقاء البدر بن الحَكَم، لكي نرتّب معه بعض الأمور التي لا نستطيع أن نكتب عنها في الكتاب.

أسرعوا، يا سيّدي، فالانتظار يكلّفنا الكثير. مصيبة بَلَنْثِيَة سوف تشمل الجميع.

مريدكم في الجزائر

أحمد بن البَرْطَال

منديل عطر النَّارَدِيْن

للمرّة الأولى تُوقِظُني الشمس في هذه البلاد. اعتدتُ أن أستيقظ قبل شروقها بساعة أو ساعتَيْن. من خلف زجاج النافذة بدت السماء زرقاء صافية، سبحان الله كأننا في الصيف. خطر لي أن أُعجّل في الذهاب إلى بيت حاجي رمضان، لكي أفيَ بوعدي له، وحين أعود أُسلّم ترجمة كتاب ابن البَرْطَال للشيخ الشريف الأندلسي.

حضَّرتُ لنفسي إفطاراً سريعاً، بيضاً مقليّاً بزبدة قَسْطَمُوْنِيَّة لذيذة، وزيتوناً أسود، وشيئاً من الجبن المطيّب بالأعشاب العطرية. ثمّ تسوّكتُ، وتعطّرتُ. وأمام المرآة الصغيرة شذّبتُ شاربيَّ. تذكّرتُ **فيروزة** وأنا أتأمّل قسمات وجهي ولحيتي التي بدت لي خفيفة وأكثر شقرة.. ثمّة شيء تغيّر في نظراتي.

ارتديتُ جُبّتي التونسية الفارهة، واعتمرتُ عِمامَتي الصفراء، وحشرتُ قدمي، الملفوفة بضِمَاد، في جزمتي التركية العالية، وخرجتُ قاصداً بيت حاجي رمضان وقد ملأت أنفي رائحة المسك العنبري، مخالطة هواء الصباح النقي.

ما إن صعدتُ في قارب الـ **بريمي** الذي يُقلع من **إسكِلَة گَلَطَه** إلى **إسكِلَة بَلَاطْيَة**، حتّى تصوّبتُ أنظار رفاقي في الرحلة نحوي.

خاطبني الرجل المسنّ الجالس قبالتي:

- أندلسي، أليس كذلك؟

- نعم.

هزّ رأسه وعلى محيّاه ابتسامة محيّرة:

- بتنا نعرفكم من عِمَامَاتِكم.

ابتسم بعض الركّاب، وغمغم بعضهم، وتبادلوا النظرات فيما بينهم وهم ينظرون إلى هندامي، مردّدين عبارة تركية لم أفهمها. تأمّلتُ وجوههم محاوِلاً فهم ما يجري، كانت لجُلِّهم تلك الابتسامة المحيّرة ذاتها. أيقنتُ أنها ضرب من استهجان واستنكار، ربّما بسبب إفراطي في التهندم، مع توارد أخبار المآسي التي يعاني منها أبناء أمّتنا الأندلسية على شواطئ بلاد الفرنجة.

شعرتُ بألم حارق في قدمي، صبرتُ عليه بسبب النظرات المصوّبة نحوي، وحين هبطنا من القارب؛ كنتُ أعرج في مشيتي، ولكن أحداً من الركّاب لم ينتبه، لأنهم أشاحوا بنظراتهم عنّي، وهم يردّدون تلك العبارة التي لم أفهمها! هل كان عليّ أن أتقشّف في هندامي؟ لم ينبّهني **الشريف الأندلسي** إلى هذا الأمر، على الرغم من أنه حذّرني ممّا قد يثير حفيظة الأتراك؟! والترك كما لاحظتُ، فيما بعد، يميلون في عمومهم إلى التقشّف في لباسهم، ويكرهون البذخ في كلّ شيء، على العكس منّا نحن الأندلسيِّينْ الذين اعتدنا على المغالاة في المأكل والملبس، وزخرفة البيوت وتأثيثها بأغلى القِطَع وأندرها.

وصلتُ إلى بيت حاجي رمضان بتثاقُل، وما إن طرقتُ الباب طرقتَيْن اثنتَيْن؛ حتّى فُتح، وظهر لي من وراء دَرْفَتِهِ وجه فيروزة وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة عذبة. خمارها كان مَرخِيّاً. تسارعت خفقات قلبي من وقع المفاجأة. وقبل أن أُلقيَ السلام، أفسحت لي الطريق للدخول إلى البيت مُرحِّبة:

- أهلاً وسهلاً بكَ، تفضَّلْ.

أغلقتُ الباب خلفي، ودخلتُ وراءها، تسبقني إلى الحجرة التي تعمل فيها والدتها بخطوتَيْن، وضفيرتاها واحدة تتأرجح على ظهرها والأخرى مسترخية على كتفها. انتبهتُ إلى أنها قبل دخولها إلى الحجرة ردَّت الخمار إلى وجهها.

سلَّمتُ على الوالدة المحاطة بلفّات خيوط الذهب والفضّة والحرير، والمنهمكة برَقْم كلمات الآية التي خططتُها يوم أوّل من أمس. وبينما كنتُ أتأمّل جمال الصنعة ودقّتها، قالت **فيروزة** بعربية مشوبة ببعض التركية:

- والدي يسلّم عليكَ، ويقول لكَ إنه اضطرّ للذهاب مع أخي علي رضا أفندي إلى ديوان الصدر الأعظم من أجل إجراءت سفرنا إلى الحجّ.

شعرتُ بحرج شديد من تسرّعي في الدخول قبل تيقّني من وجود حاجي رمضان، وهممتُ بالتراجع معتذِراً:

- سأعود بعد صلاة الظهر، فلربّما يكون الحاجي قد عاد.

قالت فيروزة محاوِلة أن تخفّف حرجي:

- لا عليك .. طلب منّا أن نستقبلكَ ونُدخِلكَ إلى البيت، لكي نستفيد من الوقت، وهو لن يتأخّر، سيصل بين لحظة وأخرى.

- إذنْ؛ أين القِطَع التي سأكتب عليها؟

قالت فيروزة وهي تسبقني إلى مغادرة حجرة أمّها:

- اتبعني، إنها هنا.

وأشارت إلى الحجرة المجاورة.

كانت هي الحجرة ذاتها التي كتبتُ فيها أوّل أمس الآية القرآنية. خلعتُ جزمتي بصعوبة وأنا أحاول أن أخفي تألّمي. وحين هممتُ بالجلوس إلى المنضدة، انتبهتُ إلى أن فيروزة أرخت الخمار مرّة أخرى وراحت تنظر إليّ بإعجاب شديد، لا شكّ في أن هندامي راق لها. حين انتبهتْ إلى نظراتي المصوّبة نحوها، غضّت بصرها وهي تقول:

- جهّزتُ لكَ كلّ شيء: الريشة، والحبر، وهذه هي قِطَع الحرير التي ستكتب عليها.

يا الله؛ ما ألطف هذا الوجه ..! لم أر قبلاً أجمل استدارة ولا أصفى لوناً، منه، ولا أدقّ من هذه الشفة القِرمِزِيَّة التي تنطوي على صفٍّ من الأسنان النضيدة كحبَّات البرَد، ولا أبدع من هاتَيْن العينَيْن اللوزيَّتَيْن المُبطَّنَتَيْن تحت حاجبَيْن ناعمَيْن كَسَيْفَيْن مُرهَفَيْن.

قلتُ وأنا أمعن النظر إلى وجهها:

- كم تبلغين من العمر، يا فيروزة ؟

احمرّت وجنتاها، وقالت بشيء من الخفر والكثير من التردّد:

- عمري ثمانية عشر عاماً .. وأنتَ .. كم عمركَ؟

- اثنان وعشرون عاماً.

يا للأنوثة! ويا لجمال الأصابع النحيلة وهي تمسك بالأشياء وتقدّمها لي! لكأن صاعقة ضربتْني منذ أن رأيتُ وجهها. هل يُسعفُني القَدَر بهذه الأنثى، ويباركها الله في بيتي؟

سألتُها:

- هل أنتِ مخطوبة؟

صمتت صَمْتَ مَنْ فوجئ بالسؤال، ثمّ رمتْ نحوي نظرة، رأيتُ فيها بريقاً طفولياً محبَّباً.

- لا ... ولكن أخي **علي رضا أفندي** الذي حضر من بورصة قبل أيّام، قال لأمّي إنه سوف يجد لي عريساً من أصحابه.

اعترتني غُمّة لِمَا سمعتُ. لم أعلّق على كلامها. لم أشأ أن تنتبه لتغيّر حالي، لكنها كانت أكثر نباهة وانتباهاً لِمَا حاولتُ أن أُخفيَ من شعور. مرّت برهة ساد فيها صمت مريك، قطعتْهُ بالسؤال إن كنتُ أرغب في شربة ماء؟

أجل، شعرتُ بجفاف ريقي حين أخبرتْني عن أخيها. ولكنْ، كيف خمّنتْ ذلك؟ ليتني سألتُها عن رأيها في خطبتها إلى صديق أخيها؟ ربمّا ضحكت بحياء وهي تقول:

- أمن أجل هذا غضبتَ؟ اطمئنّ، لن أوافق.

لم تسأل ولم أجب، وليتها فعلت.

جاءت بكوب الماء، وقد شعَّ وجهها بابتسامة مشرقة، وراحت تنظر إليّ، ثمّ سألت:

- هل لكَ زوجة أو خطيبة؟

أذهلني سؤالها؛ كأنها تُكمل الحديث الذي دار في خَلَدي في أثناء غيبتها الخاطفة.

- لا، ولكنني بدأتُ أفكّر بالأمر.

أخذتُ كأس الماء وشربتُهُ، ثمّ جلستُ ومددتُ قدمي المضمّدة وقد بدا على وجهي الألم.

انتبهت فيروزة إلى ضِمَاد قدمي، فقالت ملهوفة:

- ماذا أصاب قدمكَ؟

قلتُ مُهوِّناً:

- لاشيء، خدش بسيط.

ولكنها؛ حين رأت ألمي يشتدّ وأنا أحاول أن أحلّ الضِّمَاد، هرعت نحو قدمي وأبعدت يدي وشرعت تحلّه، وانا أحاول ثَنْيها عن ذلك؛ إلى أن انكشف جرحي. كان جرحي محمرّاً متورّماً قليلاً، فقالت وهي تنهض مسرعة:

- سأجلبَ لكَ تِرْيَاقاً يشفيكَ فوراً!

ولم تغب عن ناظري هُنَيْهَة إلّا وحضرت حاملة منديلاً مبلّلاً بعطر نَارَدِيْن فاخر، فاحت رائحته حتّى ملأت الحجرة. أخذت فيروزة بيدها قدمي، وجعلت تمسّدها بالمنديل المشبَع بالعطر. وكانت، بين تمسيدة وأخرى، تنظر إلى عينَي باسمة حتّى ذهب الألم، فأعادت لفَّ قدمي بالضِّمَاد، ودعتْني لبدء الكتابة.

وبينما نحن كذلك سُمعَتُ حركة من جهة الباب الخارجي، فرفعت فيروزة خِمَارها إلى أسفل عينَيْها، وألقت **منديل عطر الناردين** إليَّ، وركضت باتّجاه الباب، وسارعتُ بدوري إلى دس المنديل في عبِّي، والجلوس إلى المنضدة، مشمراً عن ذراعي، ومنهمكاً بغمس الريشة في الحبر، وكتابة حرف الألف في لفظ الجلالة.

دخل **حاجي رمضان** ومعه رجل ثلاثينيّ، خمّنتُ أنه **علي رضا أفندي**. نهضتُ بتثاقُل للترحيب به، فأقبل عليّ معانقاً بكلّ ودّ ومحبّة وهو يقول:

- أهلاً بعيسى بن محمّد الأندلسي، أهلاً بقوم مولانا **محيي الدِّيْن**.

ثمّ التفت من فوره إلى الرجل الواقف إلى جانبه قال:

- هذا ابني الأكبر **علي رضا أفندي**، صاحب أشهر **فابريقة** لرَقْم الحرير في **بورصة**.

مددتُ له يدي مصافحاً، فانتبه **حاجي رمضان** إلى قدمي الملفوفة بالضِّمَاد.

قال ملهوفاً:

- ما بها قدمكَ؟؟ هل تُثقل عليكَ؟؟

قلتُ مُهوّناً:

- لا شيء، خدش خفيف لا يمنعني من الكتابة.

قال حاجي رمضان:

- اجلسْ، شفاكَ الله.

ثمّ دعا ابنه للجلوس وهو يقول له:

- هذا عيسى الذي حدّثتُكَ عنه.

قال علي رضا أفندي:

- أهلاً وسهلاً بكَ، لكَ خطٌّ جميل وغريب.

ثمّ أتبع مجاملته بسؤال ينمّ عن دراية بالخطوط:

- ماذا تُسمّون هذا الخطّ في بلادكم، للمرّة الأولى أراه؟

قلتُ محاوِلاً أن يُفهَم كلامي جيّداً:

- كتبتُ الآية بخطّ **الثُّلُث الغَرْنَاطِيِّ اللَّيِّن**.

قال علي رضا أفندي:

- أنا أعرف الثُّلُثَ جيّداً، وهذا لا يشبهه.

- معكَ كلّ الحقّ، فقد لاحظتُ أنه يختلف اختلافاً جَلِيّاً عن خطّ الثُّلُث المعروف عندكم، لأن خَطَّنا الغَرْنَاطِيّ يمتاز بارتفاع قِمَم حروفه وغلظها من الأعلى، ومع ذلك تجدها تمتدّ بانسيابية وليونة تميّزه عن غيره من الخطوط. وقد رأيتُ أنه الأنسب للكتابة على الحرير بسبب ذلك.

أبدى علي رضا اهتماماً شديداً بما أقول، فردّ على جوابي بسؤاله:

- وذاك الخطّ الأندلسيّ الآخر ما تُسمّونه؟

نظر حاجي رمضان إلى ابنه معاتِباً، وقال له بالتركية:

- علي رضا؛ لا تُرهِقْ ضيفنا بأسئلتكَ.

قلتُ بالتركية:

- لا عليكَ، يُسعدني هذا الحديث.

جلسنا ثلاثتنا، ووجّهتُ كلامي لعلي رضا:

- لعلّكَ تقصد **الخطّ المُزَوَّى**.

- لا أعرف اسمه، ولكنني رأيتُهُ في جامع العرب في كَلَطَه.

- نعم، هو **الخطّ المُزَوَّى المُورّق**، هذا الصنف يصلح نقشه على السطوح الصلبة، كالحجر، والمرمر، والخشب، ولا يحبَّذ للورق أو الحرير.

استأذنتُ منهما أن أستأنف الكتابة على قطعتَي الحرير، وبدأتُ أخطّ لفظ الجلالة، أتبعتُهُ باسم رسولنا الأكرم، صلوات الله عليه، بشكل حاولتُ أن أُزاوج فيه بين الثُّلُث الغَرْنَاطِيّ والثُّلُث التُّركي، وخصوصاً الفتحات، والشَّدَّات، والحروف الصغيرة التي تُكسِب الكلمة جمالاً مضافاً.

ما إن انتهيتُ حتّى أخذ حاجي رمضان القطعتَيْن إلى الحجرة المجاورة، ليعود باشّاً وهو يقول:

- سوف تنتهيان من رَقْم هاتَيْن القطعتَيْن اليوم.

ثمّ التفت نحوي وقال:

- لا أعرف كيف نشكركَ، عيسى باي .. اطلبْ ما تريد ونحن نُلبّي.

قلتُ وأنا أنهض عازِماً على المغادرة:

- أطلب فقط الدعاء لي بالتوفيق. أرجو أن تأذنوا لي بالانصراف، فورائي عمل لا يحتمل الانتظار.

حاول **حاجي رمضان** استبقائي للغداء، ولكنني اعتذرتُ بشدّة، ووعدتهم بزيارة بعد عودتهم من **أرض الحجاز**. ومن جانبه؛ دعاني **علي رضا** إلى زيارته في **بُورْصَة** لرؤية مشغولات **فابريقته**، وتعليم حِرْفِيِّيْه خطوط الأندلس، وقال إنه سوف يُكرِمني لقاء ذلك.

أصرّيتُ على **حاجي رمضان** ألّا يخرج من داره لوداعي، وأنا أردّ على عبارات الشكر التي أغدقها عليّ. وفي اللحظة التي أغلق فيها الباب، وقبل أن أستدير مغادِراً، سمعتُ حرف السين والألف من اسمي، فرفعتُ بصري إلى الأعلى، وإذ هي **فيروزة**؛ تطلّ عليّ من نافذة الحجرة العليا، **سافرة الوجه باسمة**، قبل أن تغلق النافذة وتختفي.

انتشلت المنديل من عبّي وتشمّمتُهُ، لا شكّ أنها خضّبتْهُ طويلاً بعطر النَّارَدِيْن، أمّا باقة الزهور الحمراء، ذات البَتَلَات الخمس التي رَقَمَتْها عليه؛ فتكاد من حسن صنعتها أن تفارق الحرير.

هذا هو الحبّ إذن؛ خَدَرٌ لذيذ يسري في الجسد ابتداءاً من جهة القلب، ويصل إلى الجفنَيْن اللذين ينسدلان رغماً عنكَ، فيظهر وجه الحبيبة باسماً من نافذة الحجرة العليا. خَدَرٌ يُحلِّق بكَ بعيداً فترى كلّ شيء صغيراً إلّا وجه حبيبتكَ يملأ الكون. خَدَرٌ يستحضر شِعْر الغزل الذي حفظتُهُ قبل سنوات طويلة في دروس اللغة العربية التي كنتُ أتلقّاها من شيوخي. كان الشِّعْر قبل ذلك اليوم لعبة بلاغية مسلّية. قدرة على سبك الألفاظ والمعاني في أبيات موزونة مقفّاة؛ كنتُ أستمتع بطباقها، وجناسها، وقوافيها، وألغازها، وتوقيع كلماتها ليس إلّا. أمّا الآن، فبتُّ أشعر بكلّ كلمة حفظتُها من دواوين شعراء الحبّ، صرعى الهوى .. وفجأة خطرت لي قصيدة **صفي الدِّيْن الحِلِّيّ** التي درستُها في درس مقول القول: «قالَت كَحَلتَ الجُفُونَ بِالوَسَنِ. قُلتُ اِرتِقَاباً لِطَيفِكِ الحَسَنِ. قالَت تَسَلَّيتَ بَعدَ فُرقَتِنا. فَقُلتُ عَنْ مَسْكَنِي وَعَنْ سَكَنِي».

يا لقوّة الكلمات! لقد عبَّر الحِلِّيُّ عمّا يجول في خاطري! نعم، هذا ما أشعر به تماماً، أُغمض عينَيَّ بانتظار أن يأتيَ طيف وجهها الحبيب، ضارباً عن كلّ ما حولي صَفحَاً، مُعرِضاً عن قارب الـ **بريمي** ورُكَّابه.

أعادني صوت الفلائكي من غياهب السماوات إلى قاربه وهو يهزّني بذراعه القوية:

- أفندم، يا أفندم؛ وصلنا، ألَا تريد أن تنزل؟؟

يبدو أنه نادى عليّ طويلاً بعد أن غادر الركّاب. استسمحتُهُ وغادرتُ الـ **بريمي** مسرِعاً نحو بيتي، وانتبهتُ إلى أن صلاة الظهر بدأت في جامع العرب، فالتحقتُ بالمصلّين، وكانت الركعة الرابعة، فأكملتُ ما نقص من ركعاتي. حين انتهيتُ لم أرَ الشريف الأندلسي في المسجد، ولذلك قرّرتُ أن أحمل له الكتاب المترجم بنفسي، وقبل أن أغادر المسجد استوقفني ابن الشيخ وأخبرني بأن والده ذهب إلى شيخ الإسلام، وسيزورني في بيتي قبل صلاة العصر.

حين وصلتُ إلى ناصية الزقاق المؤدّي إلى بيتي حانت منّي التفاتة نحو بيت الطبيب ابن أبي العاص، نوافذه مغلقة تماماً. خطر لي أن أطرق الباب لكي يفكّ لي الضِّمَاد، ولكنني أحجمتُ في اللحظة الأخيرة .. لا أودّ رؤيته في هذا الوقت، كي لا يستولي على متعة تذكّر فيروزة.

وتذكّرتُ أن اليوم هو موعد البازار الأسبوعي في گَلَطَه .. ربمّا أحتاج إلى بعض المؤونة من الخبز، والجبن، والزبدة، والبيض، والأبازير لإعداد غداء للشيخ .. في هذا الوقت من السنة تنعدم الخضار، ولا فاكهة سوى البرتقال، ولذلك سوف تنحصر خياراتي بعدد قليل من الأصناف.

اشتريتُ ما أحتاجه لأسبوع كامل، وزدتُ بقطعة من قاورما الغنم المجلوبة من مراعي الأناضول. فكّرتُ بأن أصنع بها الصعترية .. آخر مرّة تناولتُها في بيت خالتي إيزابيلا في أثناء زيارتي الأخيرة لهم في مَدْرِيْل.

أحبّ تطييب الطعام كثيراً، وسوف أعلّم فيروزة أسرار الطبيخ الأندلسي اللذيذ.

فور وصولي إلى البيت بدأتُ بإعداد الصنف ريثما يعود الشريف الأندلسي. تحتاج الصعترية إلى قِطَع اللحم الصغار، ولحم القاورما التركية مناسب تماماً. وضعتُ اللحم في قِدْر من النحاس المبيّض مع ثلاث بصلات صغيرات صحاح، وفوقها درهم ونصف من الفُلْفُل، وأضفتُ شيئاً من ماء وأعواد البَسْبَاس، ولوزاً وصَنَوْبَراً مقشورَيْن، وأغصان صَعْتَر، ومن الملح كفاية. مكتبة سُر مَن قرأ

رفعتُ ذلك كلّه على نار معتدلة، وانتظرتُ حتّى جفّ القِدْر، فألقيتُ مِغْرَفَة من الخلِّ وأربعة فُصُوص من الثوم. وبعد أن اكتمل طبخها؛ غرفتُها إلى طبق الخزف الصيني، وذررتُ عليها الفَيْجَن ذا الرائحة الفوّاحة، وجلستُ أنتظر الشيخ. وبينما أنا كذلك طُرق الباب. فنزلتُ مسرعاً متوقّعاً الشريف الأندلسي، وإذ هو ابنه أتى، ليخبرني بأن والده لن يأتي، وأن عليّ أن أتوجّه إلى بيتهم بعد الصلاة.

تناولتُ غدائي وحدي، ربّما لو كان اللحم طازجاً لكان ألذّ .. ولكنْ، لابأس به، قريب جدّاً من طبق خالتي.

بعد أن انتهيتُ من طعامي أخرجتُ منديل فيروزة من جيب قميصي، ففاحت رائحة النَّارَدِيْن في الحجرة، وغطّت على رائحة **الصعترية**. رحتُ أتأمّل دقّة صنعته. يا لها من حاذقة! كيف استطاعت أن ترسم هذه الزهرات بألوانها الحقيقة وبَتَلاتها التي تقارب الطبيعة؟! ومتى رسمت هذا كلّه؟! أهو فنّ الإيبرو الذي حدّثني عنه **حاجي رمضان**؟ إن كان الأمر كذلك

فهذا غاية في الجمال. ما أروعكِ، يا فيروزة، وما أشجعكِ .. أحبّ المرأة الشجاعة الذكية.

تناهى إلى سمعي صوت أذان العصر، فطويتُ المنديل، وأعدتُهُ إلى عبي، وارتديتُ عِمَامتي وهبطتُ مسرِعاً إلى الجامع، وبعدها إلى بيت **الشريف الأندلسي**.

إلى البُنْدُقِيَّة في مهمّة

لم أتوقّع أن يكون وقع كتاب **أحمد بن البَرْطَال** على **الشريف الأندلسي** بهذه الشدّة، فأنا أعرف، بحكم انتمائي للجماعة التي يرأسها، أن مرسوم الطرد كان أُمنيَّة يتمنّاها طوال الوقت، بعد أن عجز عن إقناع بقية أبناء أمّتنا الأندلسية بالهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، عملاً برأي فقهاء المالكية الكبار أمثال: **أبي بكر بن العربي الإشبيلي**، و**أحمد بن يحيى التِّلِمْسَانِيّ الونشريسي**.

بكى الشيخ كثيراً وهو يعيد قراءة الكتاب مرّات عدّة، ثمّ طلب منّي أن أذهب الآن وأنتظره بعد صلاة المغرب، لنتحدّث بما سيفتح الله عليه.

قبل أن أنعطف باتّجاه الطريق النازل إلى بيتي، رأيتُ **حارس البرج** جالساً في مكانه، يحتسي منقوع العشب، وعندما رآني لوّح بيده. ماذا يريد منّي؟ أيكون قد شكّ في أنني عرفتُ شيئاً عن ساكن المِحْبَس الخامس؟

توجّهتُ نحوه، وبادرتُهُ:

- كيف حالكَ اليوم؟ هل عثرتَ على المفتاح؟

لم يُعجبْهُ سؤالي، فأشاح بوجهه وهو يقول:

- وأين أعثر عليه؟ لقد جرفتْهُ السيول وهو الآن في قعر الخليج.

ثمّ نظر إليّ وقد ارتسمت على محيّاه ابتسامة طفولية:

- هل تودّ أن تعيد الكرَّة؟

تصنّعتُ الخوف وقلتُ:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هل جننتُ حتّى أعيدها؟

فوجئ بجوابي واكتست ملامحه الطفولية شيئاً من الجِدِّيَّة المضحكة:

- لماذا؟! هل حصل معكَ شيء هناك في الأعلى؟!

تابعتُ لعبتي معه بالنبرة ذاتها:

- سأصارحكَ، وأرجو أن لا تخبر أحداً، لقد رأيتُ وسمعتُ كلّ شيء هناك فوق!

- ماذا رأيتَ؟

- رأيتُ جنِّيّاً بثياب رجل، ومنذ ذلك الوقت وأنا عاجز عن النوم، ماذا فعلتَ بي، يا رجل؟!.

انفجر الحارس ضاحكاً وهو يتكركر:

- أيّ جنِّيٍّ، يا أخي؟! هذا رجل مثلنا، أندلسي يحرس البرج في الليل.

- هل تعرفه؟

- صدّقني لا أعرفه، فهو يأتي بعد أن أذهب، ويغادر قبل أن أصل. ولكنني أستطيع أن أؤكّد لكَ بأنه رجل فاضل من أبناء أمّتنا وليس من الجِنّ.

ثمّ لكزني ممازِحاً:

- إيّاكَ أن تصدّق ما قلتُهُ لكَ، كنتُ أعبث معكَ، يا رجل .. اضحكْ اضحكْ، يا رجل.

ابتسمتُ بصعوبة ورأيتُ أن الوقت مناسب لأسأله:

- ماذا يوجد في المِحْبَس الخامس؟

- صدّقني لا أعرف، كلّ الذي أعرفه أن القاضي شدّد عليّ بأن لا أقترب من المِحْبَس الخامس، وأن لا أسمح لأحد بأن يقترب منه، مهما كانت الأسباب.

هززتُ رأسي متظاهِراً بأنني أتفهّم ما يقول:

- إن كان الأمر هكذا ويخصّ القاضي، فلا شأن لنا به.

واستدرتُ نازِلاً باتّجاه البيت، وهو يسألني بإلحاح بعد أن شاهدني أعرج قليلاً:

- ما بها قدمكَ؟ ماذا حصل لكَ؟

قلتُ وأنا أضحك:

- لا شيء.. خمشني جنِّيٌّ بهيئة جِرْذ.

لم تُضحِكْهُ الطُّرْفَة، فقطّب مجدّداً تقطيبة أضحكتْني من أعماق قلبي.

في الطريق رحتُ أتفكّر بكتاب ابن البَرْطَال، والحال الذي وصلنا إليه، وما إذا كان بقائي في إِسْطَنْبُل ذا معنى، وقفزت إلى ذهني على الفور فيروزة، فأخرجتُ المنديل وبدأتُ أتشمّم رائحة النَّارَدِيْن البعيدة، وأنا أستعيد ابتسامتها الحبيبة.

عند المنعطف رأيتُ الطبيب ابن أبي العاص قادماً من جهة بيتي وهو يزجرني:

- أين كنتَ؟ ألم أطلب منكَ أن تراجعني صباح اليوم؟

ولم يمهلني لأردّ، فقد قبض على يدي وأدخلني إلى بيته.

ما إن جلستُ على الأريكة حتّى حلّ الضِّمَاد عن قدمي، وراح يتفحّص موضع الكيِّ بتمعّن، وبعد قليل ابتسم وقال:

- الحمد لله .. لقد نجوتَ.

حيَّرتني حماسته لشفاء قدمي. كان سعيداً لسبب لا أفهمه. قال بعد أن لاحظ تحفّظي وصمتي:

- ما بكَ؟

- لاشيء.

ثمّ خطر لي أن أُنهيَ الأمر معه حالاً:

- أفكّر بدُون خيرونيمو راميريز.

- ما به؟

- أنا على وشك أن أصل إليه.

رفع عينَيْه عن قدمي وراح يرمقني بثبات:

- لا أعرف إن كان من حقّي أن أسألكَ عن سبب مطاردتكَ له من بلد إلى بلد؟!

كنتُ أتوقّع سؤاله، ولذلك كان جوابي حاضراً:

- أنا ابنه، واسمي الحقيقي **خيسوس راميريز**.

دهش الطبيب من كلامي، وحبس ابتسامة غريبة لم أفهمها، كأنه سمع طُرْفَةَ غريبة. لم أفهم أيّ شيء بدر منه اليوم، وعادت نظراته لتُرعِبَني من جديد.

- هل أزعجتُكَ بشيء، أيّها الطبيب؟؟

تنبّه لنفسه واستعاد بسرعة خاطفة نظراته الباردة، ومسحة اللامبالاة التي تميّز ملامحه:

- لا، مطلقاً، ولكنني فوجئتُ أن لدى دُون خيرونيمو ولداً في مثل سنّكَ!

- ما الغريب في الأمر؟

- في الحقيقة انقطعتُ عنه سنوات طويلة، ولم تتح لي فرصة لأعرف أخباره، كنّا صديقَيْن مُقرَّبَيْن ذات يوم، ثمّ فرقتْنا الأيّام.

لم تُقنعني إجابات الطبيب، بل زادت شكوكي بأنه يلعب معي لعبة أجهل قواعدها، ومآلاتها. وما زاد في حَيْرتي، تقلّبه الغريب المفاجئ بين الفرح والحزن، والانشراح والغضب.

نهض فجأة ومضى نحو رفّ الأدوية:

- سأُحضِّر لكَ مرهماً يعالج حروق الكيِّ.

وراح يبحث عن شيء لم يجده، فهرع مسرِعاً نحو الدرج:

- منقوع العَفْص، إنه في الحجرة السفلى، لحظة وأعود.

نزل مسرِعاً، فنهضتُ ورحتُ أمسح الحجرة بنظري. ثمّة مخطوط غريب لإنجيل بالإيطالية على الطاولة، يختلف عن المخطوطات التي رأيتُها

سابقاً، لم أستطع أن أتصفّحه لأنني سمعتُ وقع خطواته على الدرج، فأسرعتُ عائداً إلى مكاني. ومن فوره طلب أن أمدّ قدمي، وبدأ يدلّكها بالمرهم، وهو يقول:

- غداً ستستغرب من أنها شُفيت تماماً، سأتركها مكشوفة هذه المرّة، ولكنْ، حاذر من أن يصلها الماء.

عدتُ إلى بيتي مسرِعاً، وقد بلبلتْني رؤية الإنجيل عنده، وأعادتْني إلى الهواجس والأسئلة المضنية التي لا أملك لها جواباً!. ماذا يفعل ابن أبي العاص بمخطوط إيطالياني وهو في دار الإسلام؟! إن لم يكن هو دُون خيرونيمو راميريز، فمَنْ يكون إذن؟

بعد صلاة المغرب، وكان جوّ إِسْطَنْبُل قد انقلب إلى ربيع دافئ، دعاني الشريف الأندلسي لمسير على شاطئ الخليج، كي يخبرَني بما قرَّ عليه رأيه بعد أن روَّى في الأمر، وقلّبه على وجوهه المختلفة.

قال ونحن نهبط باتّجاه مربط السلسلة، وأمامنا مسجد السليمانية المشعّ بالأسرجة:

- لقد سعيتُ طوال سنوات عمري لأن أُخرِج المسلمين من الأندلس، بعد أن ثبت لنا أن سلاطين المسلمين لن يهبّوا لنجدتنا. وأجد لزاماً علينا، يا عيسى، أن نبذل ما في وسعنا، من مال وجهد، كي نخلّص أطفال المسلمين ممّا يعدّه القساوسة لهم .. خطيئة هؤلاء الأطفال ستبقى معلّقة في رقابنا إلى يوم الدينونة.

سألتُهُ مشجّعاً على أن يقول ما يدور في خَلَده:

- ما العمل الآن؟ هل ثمّة مخرج من هذا المأزق؟

قال وهو يمسح دموعه:

- أنا عاجز عن التفكير، فقدتُ الحيلة، يا عيسى، كلّ ما أستطيع فعله هو أن أرسل مبعوثاً من أهل الثقة، لكي نفهم من جماعتنا ما يريدون بالضبط، فكما ترى؛ ألمح ابن البَرْطَال بأن لديهم أمراً ملحاحاً، لا يريدون أن يكتبوه في الكتاب خشية من أن يصل إلى مَنْ لا يودّون أن يصل إليه.

- ممّنْ يخشون؟

- لا أعلم، وكلّ ما فهمتُهُ أن لديهم ما يريدون أن ينقلوه لنا شفاهاً.

نظر إليّ الشيخ مليّاً، ثمّ قال:

- أرى أن أُرسلكَ إليهم، فأنتَ الأقدر على التخفّي، بسبب تحدّثك بألسن الفرنجة، ما قولكَ؟

فاجأني الشيخ بهذا الطلب، فأنا معلّق بين السماء والأرض، أفتقد إلى اليقين. يتنازعني في ليلي ونهاري وجهان، وجه فيروزة الذي يبثّ في روحي الأمل، ووجه الطبيب ابن أبي العاص الذي يحوّلني إلى ريشة صغيرة في مهبّ الريح.

- لا أعرف، يا سيّدي الشيخ، ما أقول لكَ .. ولكني طوع أمركَ.

توقّف الشيخ واحتضنني:

- لم تخيِّب ظنّي، يا عيسى. لن يطول غيابكَ، ستعود خلال شهرَيْن أو ثلاثة على الأكثر.

كان عليّ أن أستعدّ للسفر في أسرع وقت ممكن، ومن حسن الاتّفاقات أن الجوّ كان معتدلاً، والرياح مواتية لركوب البحر، ومع ذلك لا أحد يمكنه أن يتنبّأ بجوّ هذه المدينة الغريب في تقلّباته.

هيّأتُ ثيابي الفرنجية، وصكّ العبور الذي سبق أن استخرجتُهُ من كاتب

المملكة الإشبانية في البُنْدُقِيَّة، وجمعتُ أغراضي الأخرى في صندوق صغير من خشب الساج، وهي: صكّ اعتناق الإسلام بالتركية، وحجّة ملكية البيت الذي أُقيم فيه بالتركية أيضاً، وما تبقّى معي من نقود ذهبية، ومفتاح باب البرج. حفرتُ في زاوية من الحجرة السفلية، ودفنتُ الصندوق بإحكام، بعد أن أحطتُهُ من جهاته الستّ ببلاطات من المرمر.

في صبيحة يوم الأحد خامس عشر شوّال من سنة 1018 هجرية، الموافق للعاشر من يناير سنة 1610 مسيحية، صعدتُ من مَرسَى **ميِّت إسْكِلَة سي** إلى سفينة القادس المتوجّهة إلى مَرسَى البُنْدُقِيَّة، باسمي وزِيّي الإشبانييَّنْ: خيسوس غونثالث. لم يكن ثمّة أحد في وداعي، لأن الشريف الأندلسي رأى أن يحاط الأمر كلّه بالتكتّم والسرّيّة، وأوصاني بأن ألجأ إلى البدر بن الحَكَم إن اعترضني أيّ طارئ.

كانت السفينة محمّلة بشحنات من الحرير المصبوغ، والصوف المنسوج، وشيء من التوابل، بالإضافة إلى نحو أربعين من المسافرين، معظمهم من البنادقة والإشبان.

طال انتظارنا على متن القادس بسبب مواكب الاحتفال بانطلاق سفينة «الصُّرَّة السلطانية» إلى مَرسَى الإسكندرية. لم أكن أتخيّل أن يكون الاحتفال بهذا الجلال، لقد اصطفّ الناس على جانبَي الخليج يرفعون رايات شتّى: حمراء، وخضراء، وصفراء، وزرقاء، وخِرَقاً تخصّ الطُّرُق الصوفية بألوانها المختلفة. وكانوا جميعاً

يردّدون الأذكار والأوراد؛ وهم يرقبون سفينة غليون البيليك السلطانية، ذات الصواري الثلاث، تستعدّ لنقل هدايا السلطان إلى أهل مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة.

سفينة الصُّرَّة أكبر من السفينة التي كنتُ عليها، وقد علمتُ من الربّان البُنْدُقِيِّ أننا سننتظر حتّى تنطلق قبلنا، فعليها حجَّاج إِسْطَنْبُل من كبار الأعيان وعلية القوم.

وقفتُ أتأمّل الحجَّاج وهم يصعدون إليها، ولم يخطر ببالي أن يكون حاجي رمضان وفيروزة وإيبرو خانم بين هذه النخبة من أعيان القوم. لا أدري ماذا حلّ بي حين رأيتُها. تسارعتْ ضربات قلبي، واعترتْني رعدة. يا الله، ما هذا الذي جرى لي؟! أهو الحُبُّ؟! لعلّه الحُبّ، وإن لم يكن كذلك، فما هو الحُبّ إذن؟

سارت سفينتنا خلف سفينة الصُّرَّة السلطانية سيراً سريعاً رائقاً بالقرب من ساحل بحر مرمرة الشمالي. كان وجود فيروزة في السفينة أمامي أمراً يبعث على السعادة، حتّى وإن كنتُ لا أراها. لقد أسبغ جمالها على كلّ شيء حولي جمالاً. حتّى لون الغيوم الرمادية أصبح مبهِجاً! ولون الغابات الداكن المسودّ راح يتراقص أمامي وهو يشعّ خضرةً.

قبل شهور، حين مررتُ بهذه الأمكنة قادماً من البُنْدُقِيَّة، كانت الشمس ساطعة، وألوان الغابات والبحر أكثر عمقاً، ومع ذلك لم أكن أرى فيها سوى وجه أمّي الممتقع، الملطّخ بالدم، ومعصمَيْها النحيلَيْن، الموثوقَيْن بالحديد الصدئ، وجدران مِحْبَسِهَا القذر المعتم.

يومها لم تكن هذه المناظر الساحرة تعني لي شيئاً سوى مسافات ينبغي عبورها على عجل، وغابات أتلهّى بِعَدِّ أشجارها لقتل الوقت، وجزر متناثرة عابسة تشير لي بأن أتابع الإبحار نحو المدينة التي قصدها دُون خيرونيمو راميريز.

سِفر الأندلس
في ستة فصول

وهي: ʼقبو الأسرارʼ، وʼالجماعة المختارةʼ، وʼألواح خندق الجنةʼ، وʼملف محاكمة أميʼ، وʼقاتل بثياب راهبʼ، وʼخالتي إيزابيلاʼ

قبو الأسرار

لا أذكر من بيتنا، في **حَيِّ الكازار**، سوى شجرة الليمون الضخمة التي ربط والدي بجذعها القوي أرجوحة من حبال الليف الخشنة، كانت أمّي مريانا تُجلِسُني على مَقعَدها الخشبيِّ وتهزّني بهدوء وهي تُغنّي أُغنيَّة عن عصفور صغير، فارقها حين كبر ونما ريشه.

في ذلك اليوم التعس، وبينما كنتُ منشغلاً بتخيّل عصفور أمّي الخائن، غير عابئ بنهر تاجة المنحدر من وراء بيتنا، أَحدَقَ بنا خمسة رجال متلفّعين بمسوح سوداء، جذبني أحدهم من قدمي اليمنى بقوّة، وقبض الأربعة الآخرون على أمّي واقتادوها بعيداً. ما زال ألم قدمي يعاودني كلّما تذكّرتُ ذلك **الرجل القصير المنحني مثل جِزْذ**، وهو ينشب أظافره القذرة في عقب قدمي، ليحفر فيها أربعة خطوط حمراء، بعد أن عجز عن تخليصي من يد أمّي القابضة على ذراعي بقوّة وذعر.

كلّ ما تبقّى من ذكرياتي، بعد ذلك اليوم الفاصل، تدور في بيت خالتي إيزابيلا وزوجها سيرخيو غونثالث المجاور لبيتنا. لقد زرعت خالتي في قلبي ووجداني حبّ العذراء ماريا وابنها خيسوس. وما كان يزيد في حبّي لهما تلك الصورة المعلَّقة في صدر البيت. في تلك الأيّام؛ كانت صورة أمّي مريانا في مخيِّلتي هي نفسها صورة العذراء، والطفل الجالس في حجرها هو أنا خيسوس!

في السابعة من عمري التحقتُ بمكتب للتعليم يشرف عليه راهب

دومنيكاني، لم يتوقّف يوماً عن ضربنا بالعصا على أقفيتنا بعد عِظَة آخر اليوم، وهو يقول:

- أَخلِصُوا للربِّ، يا كلاب الربِّ. تذلَّلوا له .. تألّموا كما تألَّم من أجلنا!

مضت أعوام خمسة على حفلات الضرب تلك، وكان خالي الشَّمَّاس بابلو باييخو، يسكن وحده في بيت جَدِّي لأمِّي المرحوم خوسيه باييخو المحاذي لبيتنا ولبيت خالتي إيزابيلا، فكنتُ كثيراً ما أذهب إليه هرباً من ضجيج أبناء خالتي وزعيقهم، مجادِلاً في الكثير ممّا كنتُ أسمعه من ذلك الراهب القاسي:

- ما دام الربّ يحبّنا، لمَ يتركنا نتلقّى الضرب كلّ يوم؟! كيف لي أن أفهم فكرة الطبيعتَيْن؟ كيف تكونان طبيعتَيْن من دون قسمة أو تجزئة؟! لماذا هما اثنتان إذن إنْ كانتا متَّحدتَيْن في واحد؟

هذه الأسئلة وغيرها جعلتْني أحبّ خيسوس الصغير المطمئنّ في حضن أمّه، وأنفر من خيسوس الكبير الذي لم أفهمه يوماً. خالي كان يحذّرني من أن أتفوّه بمثل هذا التجديف أمام راهبنا القاسي، أو أن أجادل رفاقي في المكتب، لأن ذلك سيكلّفني حياتي.

صدمني خالي حين صارحني بالمصير الذي كان ينتظرني إن واصلتُ طرح هذه الأسئلة. من يومها انتصب جدار من الخوف والشكّ والريبة بيني وبين دروس الراهب وعِظَاته.

انتقلت خالتي إيزابيلا وعائلتها إلى **مَدْرِيل**؛ بعد أن حصل عمّي سيرخيو على وظيفة مترجم في أحد دواوين القصر المَلَكِيّ، وهنا؛ قرّر خالي بابلو استبقائي عنده في بيت جَدِّي خوسيه، لكي أُكمل تعليمي المتوسّط الذي كنتُ قد بدأتُهُ فعلاً في مكتب تابع للرهبان الجِزْوِيْت.

كان يمكن لحياتي أن تكون شبيهة بحيوات أقراني في المكتب؛ لو لم ينتح بي خالي بابلو في ذلك اليوم الربيعي ليقول:

- اسمع، يا خيسوس؛ سوف تصحبني إلى مكان، إيّاكَ ثمّ إيّاكَ أن تخبر أحداً بشيء عنه، مهما حصل.

لم أفهم ساعتها شيئاً، ولكنني أدركتُ بحدسي أن الأمر مرتبط بأمّي.

تبعتُ خالي وهو يهبط درجاً معتماً، أضاءه بمصباح زيت غمر وهجه يده اليسرى وهو يهبط بي إلى قبو النبيذ، أسفل حجرة المؤن القريبة من المطبخ. للمرّة الأولى يُسمَح لي بالنزول إلى ذلك القبو الغامض. فاجأني عدد الزجاجات المصفوفة على رفوف خشبية تشبه المكتبة، فتمهّلتُ أتأمّلها. وقد علمتُ فيما بعد أن جَدّي جعل النبيذ في هذا المكان بالذات؛ لإبعاد الشبهة عن قبو المخطوطات العربية.

نظر إليّ خالي وقال جملته الأولى الصادمة ذلك اليوم:

- هذا النبيذ قد يكون محرّماً عليكَ شربه عندما تكبر.

لم أفهم قصده، ولم أعلّق بشيء، ولكنْ، قفز إلى ذهني تساؤل عن دم المسيح في القربان المقدّس.

تبعتُ خالي وهو يزيح برميلاً كبيراً، ويرفع غطاء خشبياً مستديراً، لا يمكن تمييزه من أرضية القبو؛ ليتبيّن لي أنه باب مخفي يقود إلى سُلَّم قصير بطول قامة إنسان، يفضي إلى سرداب طويل مقبوٍّ بالحجارة، يتّسع لمرور شخص واحد.

في نهاية السرداب؛ باب خشبي متين، أدخل خالي فيه مفتاحاً كبيراً، ودوَّره دورتَيْن، وإذ به ينفتح على قبو واسع مفروش بأرائك، وفيه مخطوطات

مصفوفة على رفوف، وألواح لتعليم الصغار، وفي زاويتَيْه المقابلتَيْن للباب، مِدْخَنتان تخترقان سقف الحجرة، تشبهان مداخن المواقد في البيوت الكبيرة. عرفتُ، فيما بعد، أنهما فتحتان لتهوية القبو وجعله قابلاً للعيش.

أشعل خالي قنديلَي زيت كبيرَيْن أضاءا المكان، فبدا أكثر اتّساعاً، ولكنْ، بسقف منخفض مقبوٍّ بعقدَيْن خفيضَيْن، إلى درجة أن خالي كان يمشي خافض الرأس قليلاً، خشية أن يصدم رأسه حجر من حجارة العقود غير المنتظمة.

بعد أن تركني هُنَيْهَة من الزمن أتأمّل المكان، قال وقد انتصبت سبّابته في وجهي:

- اسمعْ ما سأقوله جيّداً، يا خيسوس؛ أنا مؤتمن عليكَ من جانب المرحومة مريانا، أمّكَ، وهي أوصتْني، قبل أن تفارق الحياة في قبو التعذيب، أن أبلغكَ بأنكَ مسلم ابن مسلمة، واسمكَ عيسى بن محمّد. وينبغي أن تعلم بأن أمّكَ كان لها اسم سرّيّ هي الأخرى، وهو مريم بنت عامر. وبحسب دِيْن الإسلام فإن إلهكَ هو إله واحد لا شريك له، ومحمّد نبيّكَ ورسولكَ، وما تتعلّمه في مدرسة الرهبان الجِزْوِيْت ينبغي عليكَ أن تُكمله بجدٍّ واجتهاد، لكي تنجو!

حاولتُ ترتيب الجمل الكثيرة التي سمعتُها للتوّ، وتوقّفتُ عند كلمة تنجو، فسألتُ مُلغِزاً:

- أنجو من ماذا، من قبو التعذيب؛ أم من الجحيم الأبدي؟

أزعج السؤال خالي، فهرب بيده إلى سفر مجلد من الأسفار المرتّبة على الرف، ثمّ قطع صمته قائلاً:

- هذا القبو بناه قبل أكثر من ستّين عاماً جَدُّكَ لأمّكَ، الذي هو أبي، **الشيخ عامر بن يحيى الثُّطَيْلِيّ**، وأنتَ في هذا القبو اسمكَ **عيسى بن محمّد**، وما ستتعلّمه من كُتُب جَدِّك هذه؛ هو العلم الذي أوصتْني أمّكَ أن ألقّنكَ إيّاه، وعليكَ أن تحفظه في قلبكَ وعقلكَ، وحين تكبر يمكنكَ أن تختار.

لم يعجبني كلام خالي؛ لماذا عليّ أن أختار ما دمتُ مسلماً؟! ولم أشأ أن أجادله بالأمر، فحتماً سوف يجيبني بأُحجيّة أخرى من أحاجيه، التي عرفتُ، فيما بعد، أنها كانت تخفي تصريحه أمامي بإيمانه المسيحي الخالص.

ووجدتُ الوقت مناسباً لأسأله بعض أسئلة كانت تشغلني:

- قلتَ إن أمّي ماتت في قبو تعذيب؛ ما تعني بقبو التعذيب؟ مثل هذا؟

وأشرتُ إلى الأرض.

قال من فوره، وكأنه كان يتوقّع السؤال:

- لا، ليس مثل هذا، ستعرف ذلك القبو عندما تكبر قليلاً، ولذلك عليكَ أن تسمع كلامي جيّداً، وتنفّذه بحذافيره، كي لا تلقى مصير أمّكَ في قبو تعذيب لا يشبه هذا القبو.

جلتُ بنظري في أرجاء المكان؛ وقد عاودني سؤال معذِّب لطالما كتمتُهُ في صدري سنوات وسنوات ولم أجرؤ على طرحه أمام أحد:

- ووالدي؛ مَنْ يكون؟ وهل مات في قبو التعذيب أيضاً؟

- والدكَ يُدعى **ألونسو دي لونا**، ونحن لا نعلم عنه شيئاً منذ أن غادرنا وكان عمرك عامَيْن.

- يا الله .. اسمي إذنْ دي لونا. **خيسوس دي لونا** وليس **خيسوس غونثالث.**

هزّ خالي رأسه موافِقاً من دون أن يرفع بصره عنّي، ثمّ قال بالنبرة الباردة ذاتها التي اعتدتُ سماعها:

- خيسوس دي لونا ميت في سجلّات الكنيسة، مات فور اعتقال أمّه، لقد رتّبنا لكَ جنازة صورية كي لا يأخذكَ "ديوان الإيمان" إلى دَيْر الأيتام. أنتَ الآن في سجلّات الكنيسة ابن سيرخيو وإيزابيلا، هل تفهم ذلك؟

- أفهم.

واستدركتُ بسؤال:

- ولكنْ، أين يمكن أن أجد والدي؟

- لا أحد يعرف.

اكتفيتُ بهذا الجواب، وطرحتُ سؤالي الأخير:

- هل لكَ اسم سرّيّ أنتَ الآخر، يا خال؟

- نعم، كان لي اسم سرّيّ، هو **عبد الرحمن بن عامر.**

- والآن؟

تنبّه خالي إلى خطئه، فلم يكن حَرِيّاً به أن يبوح لي بهذا السّرّ، فقال بكثير من الجِدِّيَّة:

- أنا الآن **بابلو بابيخو**، وإيّاكَ ثمّ إيّاكَ أن تُخبر أحداً بما عرفتَهُ للتوِّ وما

سوف تتعلّمه هنا، أو أن تذكر اسمكَ الآخر، عيسى، أو اسم عبد الرحمن أمام أحد سواي. إيّاكَ، يا خيسوس، إيّاكَ!

تكرّرت الدروس التي كنتُ أتلقّاها من خالي بابلو حتّى حفظتُ القرآن كاملاً، وأصبح خطّي العربي أجمل من خطّه، ولكنه انقطع فجأة عن تعليمي، من دون أن يذكر سبب ذلك الانقطاع. في البداية كان يتذرّع بالتعب، ثمّ صار يتلفّظ بألفاظ غريبة حول الذات الإلهية، ممّا يقوله النصارى العريقون في نصرانيّتهم عن دِيننا ورسولنا، إلى أن اعترف في الحوار الأخير بيننا حول هذا الأمر، بأنه لم يعد يرى نفسه مسلماً في أيّ صورة من الصور، وأن الأمر استغرق منه سنوات حتّى بلغ هذا اليقين، وأبدى يومها ندمه الشديد على تنفيذ وصية أمّي:

- أنا آسف، يا **خيسوس**، أنني رضختُ لعواطفي ونفّذتُ وصية أمّكَ .. لم يكن حَرِيّاً بي أن أفعل ذلك من أجلكَ أنتَ أوّلاً وأخيراً!

يومها لمحتُ للمرّة الأولى دمعة محتبسة في مقلته، مسحها بسرعة وأردف قائلاً:

- ستُعاني، يا صغيري، ستُعاني طيلة حياتكَ بسبب تلك الوصية الحمقاء.

كنتُ يومها قد أتممتُ الخامسة عشرة من عمري؛ وبتّ أفهم كيف تسير الأمور، فتظاهرتُ بأنني أُوافقه الرأي، ووعدتُهُ بنسيان كلّ ما جرى خلال السنوات الستّ الماضية، ولكنني، في حقيقة الأمر، ازددتُ تشبّثاً بدِيْن الإسلام، وتعمّق كرهي لقَشْتَالَة وللكنيسة الكاثوليكية التي قتلت أمّي.

وفي يوم من تلك الأيّام، وبينما كنتُ عائداً إلى البيت من **كلِّيَّة سانتا كَتَالِيْنَا**، بصحبة زميل لي نشأت بيننا صداقة عميقة، بدأت مع

انتسابنا معاً إلى شعبة القانون والتشريع، وجدتُني أسأله عن أبيه وأمّه، صمت برهة، ثمّ أمسك يدي وشعرتُ برجفة خفيفة في مَرْفَقِهِ، وانحرف بي في زقاق ضيّق يفضي إلى بستان، وهناك أخبرني بأن والدَيْه أُحرقا في محاكم التفتيش. لا أعرف كيف حدث أن وثق بي ووثقتُ به .. بدوري اعترفتُ له أنني أنا أيضاً فقدتُ أمّي في أحد أقبية محاكم التفتيش. يومها، ومن دون أن ندري كيف حدث ذلك، أكملنا حديثنا بالعربية. فاجأني أنه كان يعرف أنني عربي مسلم مُدجَّن من خلال مراقبته لي في أثناء الصلوات النصرانية، وكان يبحث عن فرصة للانفراد بي ليدعوَني للانضمام إلى حلقة علم دِيْني ينتظم فيها.

لم أصدّق ما سمعتُ، احتضنتُهُ بقوّة وقلتُ له:

- أرسلكَ الله لي في الوقت المناسب.

ومن يومها انتظمتُ في حلقة العلم تلك وعرفتُ أنها تتبع لجماعة **الشيخ الأشقر** التُّطَيْلِيّ. كانت حلقتنا تضمّ سبعة تلاميذ، ندرس ونتذاكر كلّ يوم أحد في قبو بيت شيخ الحلقة، إلى جانب القرآن الكريم، واللغة العربية، دروس الفقه المالكي، وصفحات من التاريخ العربي.

.. هناك اكتشفتُ ولعي بمطالعة كُتُب التاريخ: حوليات، وتراجم، وأخبار فتوح البلدان، فقرأتُ كلّ ما وقع تحت يدي من كُتُب **أبي جرير الطبري**، و**خليفة بن خيّاط العصفري**، و**اليعقوبي**، و**المقدسي البشاري**، و**ابن قتيبة**، و**المسعودي**، وهذا الأخير هو أعظم مؤرّخي الإسلام، في رأيي، ليس بسبب سعة معارفه التي تصل إلى مُصنَّفات **الاغريقو** و**السريان**، بل لأسلوبه الرائق الذي يمزج التاريخ بالأدب.

كانت أخبار **بني أميّة** أكثر ما يشغلني في تلك المخطوطات، خصوصاً

حين علمتُ أن أصولنا البعيدة ترجع إلى هذه الأسرة التي فتحت الأندلس، وكادت أن تفتح إِسْطَنْبُل، فكنتُ أستهجن أشدّ الاستهجان من شُحّ أخبارها في كُتُب العرب، وإن توفّرت، فسمتُها التناقض، وفي كثير من الأحيان، تبدو وكأنها صادرة عن ضغائن لم أستطع فهمها. كنتُ أقول لنفسي:

- من غير المعقول أن تحقّق أسرة هذه الأمجاد والانتصارات والفُتُوحات كلّها، وتكون صورتها في مصنفات التاريخ مظلمة إلى هذه الدرجة!

ولذلك تعلّمت من درس بني أميّة في التواريخ العربية ألَّا أقف عند تخوم النصّ، بل أتجاوزه للبحث في المقاصد والأهواء، وألَّا أثق ثقة عمياء بأيّ كاتب مهما علا كعبه في فنّه، فكُتُب التاريخ كُتبت غالباً بأوامر من الحكّام. ووجدتُ ضالّتي في كُتُب علم الرجال التي كانت تتتبّع سِيَر الرواة، وتُبيّن صادقهم من كاذبهم.

ثمّة درس تعلّمتُهُ بنفسي من مطالعة كُتُب **ابن حزم القُرْطُبِيّ**. لفتتْني سعة معارفة، ودرايته بعلوم التاريخ والعقائد والأديان والمِلَل والنِّحَل، ولكن شيوخنا كانوا يحذّرونني من كُتُبه التي تتناول العقائد على وجه الخصوص، فهو ظاهري العقيدة، بينما جماعتنا أشعرية. كان ابن حزم كما صوّره لي شيوخنا:

- سخيفاً متقلّباً في رأيه، نشأ وتعلّق بمذهب الشافعي، ثمّ انتسب إلى مذهب داود، ثمّ خلع الكلّ، واستقلّ بنفسه، وزعم أنه إمام الأمّة، يضع ويرفع، ويحكم ويشرّع، ينسب إلى دِيْن الله ما ليس فيه، ويقول عن العلماء ما لم يقولوا، تنفيراً للقلوب منهم. وخرج عن طريق المشبِّهة في ذات الله وصفاته، فجاء فيه بمصائب وكفريات.

على أنني، ومن وراء شيوخ الجماعة، كنتُ شديد التعلّق والإعجاب

برسالته ذات العنوان الطويل المسجوع الذي يختزل متنها: **إظهار تبديل اليهود والنصارى للكتابَيْن التوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك ممّا لا يحتمل التأويل**. وكما علمتُ لاحقاً؛ فقد كتب ابن حزم هذه الرسالة قبل تصنيفه لسِفره المرجعي **الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل**، لقد أذهلني بعمق معرفته وتضلّعه في كُتُب النصارى، وخصوصاً تلك الأبواب التي تستقصي تناقضات الأناجيل، وتبيِّن مواطن الخطل فيها. وللحقّ أقول بعد هذه السنوات؛ لولا ابن حزم فلربّما متُّ على دِيْن غير دِيْن الإسلام. درس ابن حزم علّمني أن الحكمة هي ضالّة المؤمن، حتّى وإن صدرت عن مخالف.

ذات يوم وصلني أن **الشيخ الأشقر** يريد أن يراني في **قبو الأَرْقَم**. كانت المرّة الأولى التي أُدعى فيها لِلقائه، وقد أخبرني مَنْ نقل إليّ الدعوة أن رؤية **الشيخ الأشقر** شيء كبير. وشرح لي طريقة الوصول إلى القبو الذي لا يعرف اسمه ومكانه إلّا قلّة قليلة من شيوخ الجماعة.

للوصول إلى **قبو الأَرْقَم**؛ لا بدّ من عبور القنطرة الحجرية القائمة على **نهر تاجة**، من جهة الكازار، إلى السفح المقابل. وبعد صعود السفح بعشرين خطوة تأخذ جهة الجنوب وتسير في طريق مرصوفة بالحجارة المشذّبة إلى **صومعة راهب جِزْوِيْتي متوحّد يُدعى البادري رومان دي لا هغويرا**، هو، في الواقع، أحد أبناء جماعتنا، وقبو النبيذ في هذه الصومعة، كما هو الحال في الأقبية السِّرِّيَّة جميعها، يفضي إلى قبو الأَرْقَم.

وجدتُ الشيخ الأشقر بانتظاري جالساً على أريكة منخفضة، يقرأ مخطوطاً قليل الصفحات. أُخِذْتُ بطلعته النورانية، وابتسامته الساحرة التي تُشعركَ بالأمان، والأهمّ من ذلك كلّه؛ احمرار وجهه، وبياض لحيته المشوبة بالشقرة. ما إن رآني أدخل عليه حتّى هبّ لاستقبالي بلهفة أب لم

يرَ ابنه أو حفيده منذ زمن بعيد. احتضنني، وأَجلَسَنِي قُربه، وراح يسألني عن أحوالي. فوجئتُ به يعرف عنّي كلّ شاردة وواردة. سألني عن خالي، وأبدى أسفه على تركه الجماعة! للمرّة الأولى أعرف بأن خالي كان من أفراد الجماعة. وسرعان ما اكتشفتُ بأنه يعرف والدي **ألونسو دي لونا**، إذ قال إنني أشبهه كثيراً عندما كان في مثل سنّي. سألتُهُ عنه، فنفى أن يكون رآه أو سمع عنه شيئاً منذ أن غادر إلى بَرْبَنصَة قبل خمسة عشر عاماً.

كان الهدف من وراء اللقاء؛ تكليفي بمهمّة مكتومة بعد أن أكملتُ تعليمي، وتخرّجتُ في جامعة سانتا كاتالينا، حاملاً شهادة القانون والآداب واللاهوت، وبتُّ، بناءً على ذلك، أهلاً للدخول في إحدى دوائر الحكومة.

قال الشيخ الأشقر:

- سوف نسعى لتوظيفكَ في محكمة طُلَيْطِلَة، وتحديداً في دائرة القضايا المستعجلة.

استغربتُ اختياري لهذه المهمّة، فسألتُهُ:

- ولمَ أنا؟

- أنتَ خارج دائرة الشبهات، كونكَ في الأوراق الكنسية **ابن سيرخيو غونثالث**. ربّما تستطيع أن تقدّم يد العون لأبناء أمّتنا من عملكَ في هذا المكان.

ولم يطل انتظاري، فقد وصلني خبر من الشيخ بأن أتوجّه إلى شخص بعينه في ديوان المحكمة. وحين ذهبتُ إليه وجدتُهُ ينتظرني. لم يقل ذلك الرجل شيئاً، بل اكتفى بتسليمي نسخة من قرار تعييني كاتباً في دائرة القضايا المستعجلة.

سارت أمور عملي على خير ما يرام، وسرعان ما نلتُ ثقة رئيسي، بسبب معرفتي بالقوانين، وانضباطي الشديد، وجزالة أسلوبي في الإنشاء بالقَشْتَالِيَّة. على الضفّة الأخرى من نهر حياتي، كنتُ قد أصبحت مسؤولاً عن حلقة علم، تتكوّن من ثمانية طلّاب، ألتقيهم في قبو للجماعة مساء الأحد من كلّ أسبوع، أُذاكر معهم دروس القرآن، والحديث، والفقه، والكثير من التاريخ.

توطّدت صلتي بالشيخ الأشقر، وغدت في ظرف عام صلة مباشرة، لا تمرّ عبر وسطاء، خصوصاً بعد أن أسرّ لي بأنه يتخفّى بشخصية راهب جِزْوِيْتي، يُعرف باسم البادري خوسيه النقي، وله صومعة في الدَّيْر الكبير.

الجماعة المختارة

في أحد الأيّام؛ انتبهتُ لشابٍّ عشرينيٍّ، يرتدي برَّة قَشْتَالِيَّة سوداء، يتبعني حيثما سرتُ. غيّرتُ طريقي، ودخلتُ زقاقاً مغلَقاً، واختبأتُ عند زاوية المنعطف. وحين وصل فوجئ بي أقف بثبات في وجهه؛ فقال بلسان عربي أندلسي:

- لا أريد بكَ شرّاً، أحمل كتاباً من **المختار الغسّاني**.

- مَنْ يكون؟

- شيخ من شيوخ الجماعة، يريد أن يراكَ الليلة في **قبو الأَرْقَم** بعد صلاة المغرب.

اسم قبو الأَرْقَم منحني ثقة بأن الأمر لا ينطوي على خدعة ما. وفي الطريق إلى البيت ازدحمت الأسئلة في رأسي:

- مَنْ يكون هذا المختار؟ وما قصّته؟ لماذا يريد أن يراني؟ ولمَ لم تأت الدعوة من الشيخ الأشقر نفسه؟

وذهبت بي الأفكار إلى متاهة من الظنون والتخمينات لم تقدني إلى يقين. وكي يطمئنّ قلبي، وقبل أن أقصد قبو الأَرْقَم، قرَّ رأيي على زيارة **الشيخ الأشقر** في الدَّيْر الكبير، رغم ما تنطوي عليه هذه الزيارة من محاذير. لم أزر الشيخ في الدَّيْر سوى مرّة واحدة، بسبب وصولي إلى خبر

حول دعوى كان الشيخ قد أوصاني بأن أتتبّعها، وأن لا أتوانى عن إخباره بأيّ طارئ يطرأ عليها مهما كانت الظروف.

وصلتُ إلى الدَّيْر الكبير قبيل غروب الشمس، وتوجّهتُ إلى صومعة **الراهب خوسيه النقي** في الطابق الثاني، وكانت مقفلة! رحتُ أطرق الباب الخشبي العتيق طَرْقات خفيفة نبّهت راهب الصومعة المجاورة، فوارب بابه، وقال لي بصوت هامس:

- **البادري خوسيه النقي** ذهب في مهمّة إلى **الفاتيكان**، وقد لا يعود في وقت قريب.

شكرتُ الراهب، وانصرفتُ مسرِعاً نحو قبو الأرْقَم وكلِّي يقين أن دعوة المختار الغسّاني ذات صلة بغياب **الشيخ الأشقر**.

وجدتُ المختار ينتظرني على الأريكة نفسها التي اعتاد **الشيخ الأشقر** أن يجلس عليها. لا أذكر أنني رأيتُهُ من قبل، كان يرتدي زِيّاً يوحي بأنه من طبقة ملّاك الأرض القَشْتَالِيِّيْن، محدثي النعمة. فقلتُ له وأنا أجلس على الكرسي المقابل، حيث اعتدتُ أن أجلس:

- لا أعرفكَ، ولم أسمع باسمكَ من قبل؟

قال بثقة وبرود:

- لكنني أعرفكَ جيّداً.

- ماذا تريد منّي؟

- أودّ أن أخبركَ بأن الشيخ الأشقر لم يعد رئيساً للجماعة.

- لماذا؟

- عَزَلَ شيوخ جماعتنا في طُلَيْطِلَة **الشيخ الأشقر التُّطَيْلِيّ، وبايعوا الشيخ الأُكَيْحِل الأندلسي**.

كنتُ أسمع اسم **الشيخ الأُكَيْحِل** يتردّد بين الفينة والأخرى بوصفه الشيخ الثاني للجماعة، ولكن معرفتي به لم تكن تتجاوز أنه يعيش في **مَدْرِيل**، عاصمة المملكة الإشبانية، متخفّياً بهيئة شيخ نصراني علماني، لا أعرف اسمه، نذر نفسه للعلم.

أقلقَني حديث المختار عن العزل بهذه النبرة التي شعرتُ بأن فيها شيئاً من التشفّي، فبادرتُهُ:

- وأين الشيخ الأشقر الآن؟

- غادر **طُلَيْطِلَة**، ولا أحد يعرف أين ذهب!

لبرهة؛ غامت الدنيا في عينَيّ، وشعرتُ بالأرض تميد تحت قَدَمَيّ، قبل أن أستعيد رباطة جأشي، فبادرني:

- مِن أجل هذا دعوتُكَ إلى **قبو الأَزْقَم**، لأن حديثنا سيطول.

أخبرني المختار الغسّاني أن أصل الخلاف بين الشيخَيْن، الأشقر والأُكَيْحِل، بدأ قبل مولدي بخمسة وعشرين عاماً، بُعَيد إصدار **الملك فيليب بن كارلوس** مراسيمه بحظر اللسان العربي في بلادنا الأندلسية حظراً نهائياً، وحرق وإتلاف كُتُبنا، ومنعنا من التزيِّي بأزياء آبائنا وأجدادنا، أو التسمّي بأسمائنا العربية، وإرغام أطفالنا جميعاً على الانتظام في مكاتب الرهبان، جِزْوِيْت، ودومنيكان، ليتلقّوا دروس الديانة الكاثوليكية واللسان القَشْتَالِيّ.

يومها؛ كان **الشيخ الأوطري** على رأس الجماعة، وهو آخر الذين تلقّوا

العلم عن البقية الباقية من شيوخ غَرْنَاطَة. وبسبب شيخوخته اعتزل الناس، وأجاز لتلميذه الأثير، الشيخ الأشقر، أن يفتي بما يراه مناسباً من فتاوى فقهاء المالكية الكبار بشأن كيفية التعاطي مع مراسيم **طاغية مَدْرِيل**، وأيضاً بشأن ما طرأ من احتشاد للمسلمين في جبل البَشَرَات، وعزمهم على خلع سلطان النصارى، ومبايعة أمير مسلم عربي من **بني أميّة** اسمه القَشْتَالِيّ **فرناندو دي بالور**.

كان رأي **الشيخ الأشقر**، والذي أصَّله بعدد من فتاوى فقهاء المالكية المعروفين أمثال: **الغازي بن قيس**، و**الفقيه شَبْطُوْن**، و**يحيى بن يحيى**، و**أبي بكر بن العربي**، أن ما يجري يُوجِب **جهاد الدفع** جهاداً عينياً، لـ **دفع غائلة الصائل**.

ووقع الخلاف بين الشيخَيْن الأشقر والأُكَيْحِل حول انطباق **حكم الصائل** على طاغية مَدْرِيْل. فبينما رأى الشيخ الأشقر أن الغاية من **مراسيم فيليب بن كارلوس**: الاعتداء على الأنفس والأعراض والأموال، رأى **الشيخ الأُكَيْحِل** أن تلك المراسيم من الأمور المستحدَثة، غير المبحوث فيها، والتي تقتضي استنباط حكم جديد من روح الشريعة، أُطلق عليه اسم **حكم الاستدراج**، إذ رأى أن الغاية من وراء المراسيم خداع المسلمين واستدراجهم لحملهم على فعل ما يريده منهم، وهو خلع طاعته والقيام عليه. ولذلك رأى **الشيخ الأُكَيْحِل** أن يسعى شيوخ الجماعة لتهدئة القائمين ضدّ الملك، لا شحنهم بفتاوى تحقّق للطاغية ما بيَّت له، لغاية استئصال شأفة الإسلام من بلاد الأندلس استئصالاً نهائياً.

وفي رأي **المختار**: كانت **قومة البَشَرَات**، ومنذ لحظتها الأولى، مشحونة بجواسيس القَشْتَالِيِّيْن، من المستعربين النصارى الذين عاشوا بين ظهرانينا وأتقنوا لساننا وكتابتنا، ومن المدجّنين من أبناء جِلْدتنا، ممّنْ

فارق الإسلام قلوبهم، وباتو مخلصين لدِيْن الكاثوليك في سرائرهم، فهؤلاء هم الذين زيّنوا للأمير ابن أميّة إعلان التبرّؤ من دِيْن النصرانية علناً، وإعلان الجهاد مستندين إلى فتوى الشيخ الأشقر. وسرعان ما دبّروا هم أنفسهم جريمة قتل **ابن أميّة** غدراً، ثمّ قتل قائده **محمّد بن عَبُو** المعروف باسمه القَشْتَالِيّ **دياغو لوبيز**. ولم يتوقّفوا عند ذلك، فقد أوهموا الناس أن المَدَد قادم من ديار المسلمين، وما عليهم سوى الصبر ساعة. وختم المختار حديثه الطويل الذي تواصل حتّى مطلع الفجر بالقول:

- كلّ شيء في قومة البَشَرَات كان مثيراً للشكّ والريبة، من مبايعة ابن أميّة، إلى الإيقاع بمتطوّعة الجزائر المساكين الذين انكشفت للقَشْتَالِيِّيْن أماكن نزول سفنهم، إلى تشتيت ما يقارب المائة ألف مسلم أندلسي في قَشْتَالَة وأَرَاغُون .. كانت مؤامرة حاكها فيليب بن كارلوس، ونفّذناها بأيدينا!

أكتب هذا الكلام بكثير من الاختصار، لأن المختار كان يستطرد في رواية تفاصيل التفاصيل، كأن حديثه، في تلك الليلة، شجرة متشعّبة الأغصان: في كلّ غصن فرعان أو ثلاثة، وفي كلّ فرع أوراق وثمار.

في لقاءات أخرى، جرت في قبو الأَرْقَم، سرد لي المختار قصّة بلوغ الخلاف بين الشيخَيْن الأشقر والأُكَيْحِل حَدّ القطيعة، صحيح أنه لم يبلغ هذا الحَدّ مرّة واحدة، ولكنه بلغه في نهاية المطاف؛ لأن **الشيخ الأشقر** تبنّى في السنوات الأخيرة فتوى لفقيه مالكي جاهل، يُدعى الشيخ الونشريسي التِّلِمْسَانِيّ، تكفّر القابضين على الجمر في بلادنا الأندلسية، وتصمهم بالعصيان، لأنهم تخلّفوا عن الهجرة من دار الحرب التي هي وطنهم الأندلس، إلى دار الإسلام، وهي في رأيه بلاد مراكش.

والحقّ أن رأيي بأصحاب الفتاوى، المتنعّمين برغد عيشهم في **فاس**

وتِلِمْسَان و**الجزائر**، وحتّى قبل أن ألتقيَ بـ **المختار**، لا يختلف عن رأيه ورأي الشيخ الأُكَيْحِل، فهم ليسوا أكثر من ثلّة مقلّدين جهلة، لا يعقلون ما يجري على أرض الأندلس. فأهلنا في طُلَيْطِلَة عاشوا تحت سلطان ملك قَشْتَالَة قروناً طويلة، ولم يكفّرهم أحد أو يُخرِجهم من المِلّة طوال ستّة قرون، فهل كان أمرهم غائباً عن فقهاء المالكية، حتّى ظهر الشيخ الوَنْشَرِيْسِيّ وتلامذته؟!

شيئاً فشيئاً بدأت الأمور المبهمة تتّضح أمام ناظرَيّ .. أجل؛ لم أكن أفهم تماماً لماذا كان الشيخ الأشقر في العام الأخير دائم التحدّث عن الهجرة وفضائلها؟ والآن بتّ أفهم أن غايته النهائية، هو والشيوخ المتحلّقين من حوله، إخراج مَنْ بقي من مسلمي الأندلس، وتوجيههم إلى بلاد المسلمين الخاضعة لسلطان المغرب السعدي، أو حتّى سلطان المشرق العثماني.

في لقائي الخامس مع **المختار**، أخبرتُهُ بأن رأيي هو رأي **الشيخ الأُكَيْحِل**، وأن الشيخ الأشقر لم يعد شيخي بأيِّ صورة من الصور. عندها عانقني بحرارة وأخبرني بأن جماعة الشيخ الأُكَيْحِل هي جماعة مختارة من صفوة الصفوة، ترى الكتمان فضيلة الفضائل في أندلسنا المنكوب بالأسر، وعرض عليّ قَسَمَ الولاء للجماعة المختارة وشيوخها، فأقسمتُ من دون تردّد.

الأمر **الأوّل** الذي طلبه منّي المختار الغسّاني؛ هو الكتمان، ثمّ الكتمان، ثمّ الكتمان.

والأمر **الثاني**؛ أن أحفظ **عقيدة تصفيون بن العطّار** كما أحفظ اسمي، وأن أتمثّلها في كلّ ما أقرأ، وأن لا أحيد عنها قيد أنملة، مهما قرأتُ وتفكّرتُ،

لأنها وحدها التي ستعصمني من الخطل والزلل، حتّى وإن تظاهرتُ باعتناق أيّ مذهب أو دِيْن! .. ونصّ هذه العقيدة هو ما يلي:

"العدل لا يزال هو في الله أوّل كلّ شيء، الذي ليس لبدايته ابتداء ولا لفضيلته انقضاء، لا يبلغ كُنْه صفته الواصفون، ولا يتفكّرون في ماهية ذاته المُتفكّرون، ليس أحد من العالمين رآهُ أبداً عين النظر. مُلْكهُ لا يزال لأنهُ إن زال ملكه ما كان الله . لهُ جلالة لا تُدرَك، لأن إن أُدركَت كان نقصاً به. لهُ عظمة لا تنفكّ، لأن إن انفكّت عظمتهُ أتاهُ النقصان، وليس ذلك واسع فيه أبداً، هو ذو علم دون جهل، علم كلّ شيء قبل كونه. وهو ذو قدرة دون نُقصان. هو ذو رحمة وفضل دون امتنان. هو ذو حِلْم وقِسْط لا يفنيان أبداً. ليس لهُ احتياج لأحد من العالمين ليزوّد سلطانهُ. وليس دونهم لهم نقصان في ذاته ولا في مُلكه. وكلّ ما خَلَقَ خَلَقَهُ من رحمته دون احتياج. الموجودات كون وهو المكوِّن، لو أمر الدنيا بالغرق بمَنْ عليها لدامت في غرق ما دام مُلكه ولا يزال، ولا تُصيب مُستقرّاً لها في موضع. وهو خَلَقَ كُلّ شيء وليس مخلوقاً. وهو مؤانس وليس مُؤنس لهُ. وهو ذو علم ما دون احتياج من غيره. هو ذو رحمة ما دون نقصان. هو أوّل كلّ شيء، ليس قبلهُ شيء. وبعد كلّ شيء ليس بعدهُ شيء. إله ليس شيء مثلهُ. ليس هو كم ولا عدد ولا فضل ولا فوق ولا تحت ولا وَهْم ولا خيال ولا كلام ولا لغة ولا صنع مثل خيالنا، هو فوق العقول، ليس يوصف. لهُ الجلال والكمال. وذلك هو في وحدانيّته، لا يفهم الله إلّا الله. لهُ العظمة والعبادة والشُّكر على كُلّ شيء. والإيمان ما دون ذلك خسران".

والأمر **الثالث**: أن أُبقيَ على بيعتي للشيخ الأشقر ظاهراً، وأخلعها باطناً، وألّا أجادل شيوخهم في قضايا الخلاف.

والأمر الرابع والأخير؛ أن المختار هو صلتي الوحيدة بالجماعة المختارة، فإن حصل شيء له، فثمّة وديعة مخبّأة في قبو الأرْقَم، بأمانة البادري رومان دي لا هغويرا أو مَنْ سيخلفه، تُبيِّن لي كيف أصل إلى شيخ من شيوخ الجماعة المختارة.

بعد أزيد من شهر على لقائي بالمختار الغسّاني، حضر إليّ في محكمة طُلَيْطِلَة رسول شيخ من جماعة **الشيخ الأشقر**، وطلب أن ألتقيَهُ في حفل معمودية أربعين طفلاً يتيماً، يقام في **كاتدرائية القدّيسة مريم** بعد يومَيْنْ.

في الموعد المحدّد، وجدتُهُ ينتظرني متخفّياً بالعتمة في الصفّ الأخير. جلستُ قربه وتظاهرتُ بالخشوع، فراح يخبرني بصوت خفيض بأن الجماعة تمرّ بأحلك مراحلها، وأن الشيخ الأشقر اضطرّ للتخفّي والاختباء في مكان ما من طُلَيْطِلَة حتّى تنجلي الغُمَّة، وأنه يُقرِئني السلام ويدعوني للثبات وعدم الانجرار وراء أصحاب الفِتَن والغايات.

وحين سألتُهُ مَنْ هم أصحاب الفِتَن والغايات الذين يحذّرني **الشيخ الأشقر** منهم؟ قال إنهم جماعة الشيخ الأُكَيْحِل، فهم خرجوا عن المِلَّة بفتوى أمضاها شيوخ الجماعة جميعهم، وأنه لا يستطيع أن يخبرني بأكثر من ذلك الآن. وعاد ليحذّرني من الإصغاء إلى أيّ كلام يطال **الشيخ الأشقر**، فهو محض افتراء.

لم أتوقّف كثيراً عند تحذيرات رسول **الشيخ الأشقر**، رأيتُ فيها دليلاً على ضعف الحُجّة، فلو كان الشيخ الأشقر وجماعته يمتلكون ما يردّون به على "افتراءات" الشيخ الأُكَيْحِل لَمَا أخفوه عنّي. صحيح أنني لا أُعدُّ من بين شيوخ الجماعة، ولكنني مقرّبٌ من الشيخ الأشقر، وصلتي به لا تمرّ عبر رُسُل أو وسطاء.

بعد أيّام من لقائي برسول **الشيخ الأشقر**، وصلتْني دعوة عاجلة من المختار الغسّاني إلى قبو الأرْقَم. مضيتُ وقد أعددتُ نفسي لجلسة طويلة، جرياً على العادة، غير أنها انقضت بأسرع ممّا كنتُ أظنّ، فقد سلّمني المختار كتاباً بالقَشْتَالِيَّة، قال إنه وصل إلى **الجماعة المختارة** عن طريق أحد مبايعي **الشيخ الأُكَيْحِل**، ويريد أن يتأكّد من صحّته كوني كنتُ ملازِماً للشيخ الأشقر.

قرأتُ الكتاب بتمهّل، وتيقّنتُ، من بعض العبارات، أن كاتبه بلا شكٍّ هو الشيخ الأشقر، رغم أنه مغفل الاسم، وهو موجّه إلى أحد شيوخ الجماعة في فاس، ومفاده أن أحد عيون الشيخ في القصر المَلَكي أخبره بأن **الملك فيليب بن فيليب**، وبعد إلحاح من بعض القساوسة وقدامى الضبّاط والجنود القَشْتَالِيِّيْن، سوف يسعى بكلّ ما يستطيع للتضييق على الموديخار، أي المدجَّنين المحافظين على دِيْن الإسلام في السِّرِّ، خصوصاً في بَلَنْثِيَة، وصولاً إلى لحظة سيُجبَرون فيها على الوقوف أمام خيارَيْن أحلاهما مُرّ، فإمّا الرحيل إلى بلاد المسلمين، أو فَصْل أطفالهم عنهم ومواجهة الموت حرقاً.

ويكتب **الشيخ الأشقر** أن هذا الخبر، على الرغم من بشاعته وقسوته، فإنه ينطوي على خيرات لأبناء أمّتنا، متمنّياً أن يكون هو الدافع لمَنْ بقي منهم على الرحيل بدِيْنهم وأطفالهم عن هذه المملكة الظالمة التي تنطبق عليها شروط دار الكفر كلّها. ويدعو الشيخ مريديه في المغرب إلى العمل لدى السلطان السعدي، وفي إِسْطَنْبُل لدى السلطان العثماني، لمفاوضة الملك فيليب بن فيليب على تيسير إخراج الأندلسيِّيْن بأولادهم، وأملاكهم، وأموالهم، إلى دار الإسلام بكرامة.

طويتُ الكتاب وأنا غير مصدّق أنني كنتُ مخدوعاً هذه السنين كلّها

بالشيخ الأشقر، صاحب الابتسامة النورانية، والنظرات الملائكية، والقلب الكبير! لقد صَدَقَ المختار الغسّاني في كلّ كلمة قالها عنه، بل إن الرسالة تقول ما هو أبعد من فتوى أثارت نقمة الجماعة المختارة، إنها تلمِّح إلى تواطؤ بين الشيخ وبين طاغية مَذْرِيْل!

قبل قراءتي للكتاب، كان ثمّة شكّ يداخلني، يمنعني من تصديق ما قاله المختار؛ شكّ يُبقي للشيخ الأشقر في قلبي مكاناً أثيراً قاومت نفسي إخلاءه. كنتُ أتمنّى مخلصاً أن يكون كلام المختار محض افتراءات، أو أوهام تدور في رأسه، ولكنْ، ها هي الرسالة تقول كلّ شيء خشيتُهُ دفعة واحدة، ومن دون مواربة.

حين رفعتُ رأسي عن تلك السطور الصادمة؛ وجدتُ المختار ينظر إليّ وقد اكتست ملامحه بالصرامة، كأنه يتوقّع أن أقول شيئاً، أو لعلّه كان يتحقّق من تعابير وجهي عن أثر الكلمات على نفسي.

بادرتُ من دون أن يسألني:

- لا شكّ عندي أنه للشيخ الأشقر، شكل الخطّ، وبعض العبارات التي لم يكن الشيخ الأشقر يحبّذ ترجمتها إلى القَشْتَالِيّة، بل كتابتها كما هي بالعربية، إنما بحروف لاطينية مثل "الخيرات"، و"دار الكفر"، و"دار الإسلام".

- ما رأيكَ في ما قرأتَ؟

- متواطئ خائن.

انفرجت أسارير المختار، وقال:

- وما هو حكم الخائن؟

لم أجب، فأردف بتصميم:

- سنقتله، وقد نحتاج مساعدة منكَ في ذلك.

- أنا لا أقتل.

- لم أقلْ ذلك، ربّما نحتاج أن تدلّنا على مخبئه.

قال المختار جملته هذه الأخيرة قبل أن ينصرف مسرِعاً، وهو يشدّد عليّ بأن أقرأ الكتاب مرّة أخرى بتمعّن أكبر، وأتركه حيث كان.

ألواح خندق الجنّة

قبل لقائي الأسبوعي بـ **المختار الغسّاني**؛ هيّأتُ نفسي لأن أزفّ له خبر موافقتي على إرشاد «الجماعة المختارة» إلى مكان الشيخ الأشقر فور علمي بموقعه. ولكنْ، حين ذهبتُ إلى **قبو الأَرْقَم** فوجئتُ بتغيّب المختار، وهو أمر رابَني، لأن هذا، كما خبرتُهُ خلال أسابيع خلت، كان يرسل مَنْ يخبرني بتأجيل موعد اللقاء، أو تقديمه، كي لا أتجشّم عناء الذهاب إلى بَرِّيَّة المدينة وسط دَغَل السنديان الكثيف، وعلى وجه الخصوص، إذا كان الجوّ ممطِراً كما كان ذلك اليوم.

اكتفى **البادري رومان** بعبارة قَشْتَالِيَّة مقتضبة:

- صديقكَ سيغيب طويلاً، وحين يعود سوف يجد طريقة للقائكَ.

للمرّة الأولى أسمع صوت البادري رومان. في المرّات السابقة اعتاد اصطحابي إلى قبو النبيذ، ليفتح باب قبو الأَرْقَم، من دون أن تبدر منه كلمة أو حتّى نَأمَة.

كأن صوته بثّ الحياة في صورته الباهتة المنطبعة في ذاكرتي كرجل خمسينيّ، نحيف، كئيب بلا ملامح مميّزة. أمّا الآن، وبعد أن نطق، وارتسمت على وجهه تعابير السأم، ظهر لي عجوزاً من لحم ودم، يتجاوز عمره السبعين، مُتعَب الصوت، مُنهَك الجسد.

حاولتُ استدراجه، لكي يتكلّم أكثر، فسألتُهُ بالعربية:

- هل تعرف كم ستبلغ غيبة المختار الطويلة هذه؟

هزّ رأسه يمْنَة ويَسْرَة وقال بالقَشْتَالِيَّة:

- اعذرني، فأنا لا أعرف العربية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قلتُ بالقَشْتَالِيَّة:

- كنتُ أسألكَ عن مدّة غياب المختار.

فقال بنبرة محايدة:

- لا أعرف مَنْ تقصد بالمختار.

فاجأني ردّه البارد، قبل أن أتنبّه إلى تجاوُزي لإحدى القواعد التي تحكم عملنا السِّرِّيَّ، فاعتذرتُ رافعاً قبّعتي، وقفلتُ عائداً إلى البيت، مستعيداً في مخيِّلتي ملامح وجه البادري رومان الصارمة، ونظرته الحزينة التي تحدّق في أشياء وعوالم لا يبدو أنني أراها.

غاب **المختار** طويلاً، وبعد نحو ثلاثة أو أربعة شهور، وربّما خمسة! وفي الوقت الذي كنتُ أنتظر منه خبراً ما، أو إشارة تُعلِمني بعودته، وصلتْني دعوة للقاء **الشيخ الأشقر** في زمان محدّد، من دون تعيين المكان.

في ذلك اليوم المعلوم؛ وجدتُ رسول الشيخ ينتظرني أمام باب المحكمة. لم يقترب منّي كثيراً، بل استدار فور التقاء عيوننا، وسار أمامي مسافة، وتبعتُهُ من بعيد، إلى أن وصلنا بيتاً في أقصى غربي المدينة. دخله قبلي، وتبعتُهُ بحذر شديد، وإذ بي وسط فابريقة لنسج الحرير، فيها أنوال كثيرة، عليها حِرْفِيّون منهمكون في عملهم.

هبط الرسول درجاً حجرياً في آخر القاعة من جهة اليسار، فتبعتُهُ،

محاذِراً أن أثير بدخولي وتوجّهي نحو الدرج انتباه أحد من أصحاب الأنوال. نهاية الدرج قادتْني إلى سرداب طويل مقبو، يفضي إلى باب منخفض، بالكاد يُدخِل رجلاً واحداً وهو راكع على ركبتَيْه. لفت نظري أن هذا القبو يشبه إلى حَدِّ التطابق قبو بيت جَدِّي لأمّي الذي تعلّمتُ فيه العربية ودِيْن الإسلام في طفولتي.

أغلق الرسول الباب ومضى في سبيله، وأقبل الشيخ الأشقر عليَّ معانِقاً، وفي أثناء عناقه نسيتُ كلّ ما حدّثتُ به نفسي عن خيانته، وتواطئه، واستعدادي للمساعدة على قتله. وحين أجلَسَني قربه، كما هي عادته، كادت الدمعة أن تنفر من عيني.

راح الشيخ يسألني عن أحوالي، وأنا أجيبه بفيض من حماسة، عن أهمّ دعاوى المحكمة التي فاتته أخبارها، وعن أموري الخاصّة، وآخر المخطوطات العربية التي قرأتُها.

فجأة: اكتست ملامحه بجِدِّيَّة غريبة، وسألني وهو ينظر إلى عينَيّ كأنه يسبر غوري:

- علمتُ أن جماعة الأُكَيْحِل الأندلسي أرسلوا وراءكَ.

طار حماسي، وتنبّهتُ إلى حراجة الموقف الذي بتُّ فيه، فقلتُ متصنّعاً الثقة العالية بالنَّفْس:

- نعم، أرسلوا رسولاً، ولم أُلبِّ دعوتهم.

تابع الشيخ الأشقر التحديق في عينَيّ، ثمّ قال ببرود بعد هُنَيْهَة صمت:

- حسناً أنكَ لم تُلبِّ دعوتهم، فهم جماعة ضالَّة مُضِلَّة، والأفضل أن تتجنّبهم.

- وما وجه ضلالهم؟

قال من دون أن يشيح ببصره عن عينَيَّ:

- عدتُ لتوّي من الفاتيكان، وعلمتُ بجملة من الأمور الخطيرة عنهم.

- هل توضح لي الأمر، يا شيخي؟

- أجل؛ سأوضح لكَ .. بدأت القصّة قبل نحو ثلاثة عقود، حين أمر القِسِّيْس الكبير في غَرْنَاطَة بيدرو دي كاسترو بهدم مئذنة قديمة، كانت في الجامع الكبير الذي حوّلوه إلى كنيسة. يومها وجدوا في جدار المئذنة صندوقاً من الحجر المنقور، وفي داخله صندوق رصاصي يحتوي على رَقٍّ كبير بالعربية والقَشْتَالِيَّة واللاتينية، وخمار للبتول مريم أمّ سيّدنا عيسى عليه السلام، وعظاماً من جسد صطيبن القِدِّيْس عندهم. فأمَّا ما كان بالقَشْتَالِيَّة واللاتينية فقُرِئ، وما كان بالعربية فقد قرأتُهُ مع رجال فضلاء من غَرْنَاطَة وخارجها، كوننا من جيل اللسان الأندلسي القديم.

قاطعتُهُ مستغرباً:

- أَلَا يحرقون مَنْ يقرأ ويكتب العربية؟

- بلى؛ ولكنهم وجدوا لنا العُذر بأننا من المُسنِّين الذين عاش أهلهم في أواخر عهد دولة الإسلام.

واستأنف الشيخ حديثه فقال:

- أمرَنا القِسِّيْس الكبير بترجمة ما في الرَّقِّ كلاًّ على حِدَة، وصار يجمع الترجمات ويقابلها بعضها بالبعض الآخر، حتّى وصل إلى ما يريد، فهو يجيد قراءة العربية. وقيل لي إن الشيخ الأُكَيْحِل هو مَنْ علّمه إيّاها. وبعد

نحو عقد من الزمان، بينما كان بعض النصارى القَشْتَالِيِّيْن يحفرون في كلّ مكان بحثاً عن ذهب أجدادنا الأندلسيِّيْن الغابرين، عثروا في غارٍ شرقيِّ المدينة، كنّا نسمّيه بالعربية خندق الجنّة، على رماد عِظَام، وألواح صغيرة من الرصاص كُتب عليها باللاطينية أن هذا الموضع شهد إحراق القِدِّيس المسمّى سيسليو، فلمّا رأوا ذلك أتوا إلى القِسِّيْس الكبير، ففرح فرحاً عظيماً، لأن النصارى كان عندهم في كُتُبهم خبر بموت سيسليو، وأنهُ قُتل في سبيل دِيْنه، وأنهُ من القِدِّيْسِين الذين تركوا كُتُباً فيها أسرار دِيْنهم، ولم يكونوا يعلمون موضع قَتْله حتّى ذلك اليوم.

وأردف الشيخ قائلاً:

- لمّا فتّشوا في الغار وجدوا بعض قِطَع الصَّلْصَال الغريبة في انتظامها، فراحوا يكسرونها، ليجدوا في قلب كلّ قطعة سِفراً ولوحة رصاصية بقَدْر الكفِّ أو تزيد بقليل، مكتوبة بالعربية المتّصلة الحروف غير المنقّطة، فطلب القِسِّيْس الكبير من الشيخ الأُكَيْحِل وصهره الشيخ الحبيس بأن يترجماها إلى القَشْتَالِيَّة. ووجدوا في واحد منها ذِكْراً للرَّقِّ الذي وجدوه في مئذنة الجامع الكبير، فازداد حرصهم على فهم ما في الرَّقِّ.

قلتُ للشيخ مقاطِعاً:

- بما إنكَ ترجمتَ الرَّقَّ، هل وجدتَ فيه ما يسترعي حرصهم هذا؟

- لم أعد أذكر نصّه تماماً، ولكنْ، ممّا أذكره أنه مكتوب في عنوانه "جفر فنجيل يوحنّا في خراب الوجود"، ثمّ في صدر السِّفر "بسم الذات الكريمة المثلّثة"، ثمّ ذكر سيّدنا عيسى عليه السلام الموصي بالذَّنْب الأوّل، ثمّ يقول سيسيليو عن نفسه إن اسمه العربي هو ابن الرضي، وغادر بلاد العرب مع شقيقه لطلب العلم في مدينة أطناش ببلاد الإغريقو، حيثُ

يُقرأ العلم بكلّ لسان، ومن جملة ذلك اللسان العربي. وبعد زمان سار إلى زيارة بيت المَقْدِس، وفي الطريق أصابهُ داء في عينَيْه حتّى ابيضّتا، وإن الموكّل ببيت المَقْدِس أخرج إليه جفر الحواري يوحنّا الذي كتب ربع الأنجيل، وقال لهُ إن فيه سرّاً عظيماً، واستشفى به، وارتدّ إليه بصرهُ. ثمّ أخذ منهُ نسخة بالإغريقوية. وحين رافق الرسول يعقوب إلى بلاد الأندلس، ترجمه إلى اللاطينية، وأدخلهُ في جدول من تسع وأربعين بيتاً، ووضع في كلّ بيت حرفاً من اللاطينية، ثمّ وضع تحت الجدول شرحاً بالعربية.

- لم أفهم شيئاً، يا شيخي!

نهض الشيخ الأشقر من مكانه، وراح يمشي في القبو جيئة وذهاباً وهو يقول:

- معكَ كلّ الحقّ، فأنا لم أدرك المشكلة إلّا في أثناء زيارتي الأخيرة إلى الفاتيكان. كنتُ قبل هذه الزيارة متشكّكاً في عدد من الأمور، ولكني بتُّ الآن على يقين بأن هذا الرَّقّ والألواح الرصاصية هي من صنيعة عقل خبيث، يريد إخراج أمّتنا من دِيْنها.

ما هذا الكلام الغريب الذي يشبه الأحاجي؟! وقبل أن أطلب من الشيخ إيضاحاً، توقّف عن المشي وعاد ليجلس على الأريكة موجِّهاً الكلام لي:

- في السنوات الماضية كشف النصارى الباحثون عن الذهب ألواحاً رصاصية جديدة لم تتح لي فرصة الاطّلاع عليها، إذ كان الشيخ الأُكَيْحِل يترجمها لقِسِّيْس غَرْنَاطَة الكبير، وهذا كان يرسلها إلى بابا الفاتيكان. ومنذ أشهر قليلة طالعها أحد الرهبان الموارنة المتضلّع في العربية وفنونها، فشكّ في أمر الكثير ممّا ورد في الترجمة، فاقترح عليهم القِسِّيْس الكبير

أن يحتكموا إلى رأيي، وهذا ما كان. أعطيتُهم رأيي في الترجمة، وصوّبتُ بعض الأخطاء، وشرحتُ بعض الغوامض.

بعد هُنَيْهَة صمت وترقّب سألني الشيخ الأشقر:

- ماذا تتوقّع أنني وجدتُ في الألواح؟

- لا أدري، أنتظر أن تخبرني.

- لقد وجدتُ، يا عيسى، أن الذي كتبها يريد أن يبلبل ديانة المسلمين بمزاعم وأراجيف لا تقبلها سليقة المسلم الحقّ. تخيّل أن يصل التجديف فيها إلى جعل نبيّنا صلوات الله وسلامه عليه مسيحاً جديداً. ولكن الصدمة الكبرى التي أصابتْني كانت في الحواشي التي كتبها الشيخ الأُكَيْحِل على متن النصّ المترجم. لقد زعم بأن المسلمين يؤمنون بالثالوث، وأن حقيقة الثالوث مثبتة في القرآن الكريم!

- هل تضرب لي مثلاً حول ما تفضّلتَ به، يا شيخي؟

- يقول الشيخ الأُكَيْحِل إن الأقانيم الثلاثة، الآب والابن والروح القُدُس، هي صلات ذاتية كيانية لا محض صفات، وهي قائمة في الجوهر الإلهي الفرد. فالأقانيم صفات ذاتية في الذات الإلهية الواحدة، وهي أيضاً أفعال ذاتية في الذات الإلهية الواحدة!

- أظنّ أنني قرأتُ هذا الشيء أو ما يشبهه عند الفخر الرازي.

- بل هذا بالضبط ما يقوله أتباع نِحْلَة يعقوب البرادعي النصرانية، من سريان، وأقباط، وأحباش. يريد كاتب هذه الألواح، أو بالأحرى منتحلها، إخراج بسطاء أمّتنا من دِيْن آبائهم وأجدادهم إلى دِيْن جديد يسهل عليهم بعده التحوّل إلى النصرانية الكاثوليكية، لأن الإقرار بالثالوث، مهما كان

تبريره، سوف يقود إلى الإيمان بالفكرة في حدّ ذاتها، ولا مشكلة بعدها في طبيعة هذا الثالوث؛ إن كان واحداً في الجوهر؟ أم ثلاثة؟ أم اثنَيْن حتّى؟!

نظر الشيخ الأشقر إليّ كأنه يريد أن يرى أثر كلماته عليّ، وحين رآني ذاهلاً؛ أضاف:

- إنهم يقولون إن المسيح الحقّ هو سيّدنا محمّد، وليس عيسى بن مريم .. هل رأيتَ تجديفاً يفوق هذا؟

والحقّ أن الخلاصات الأخيرة التي خلص إليها الشيخ الأشقر لقيت قبولاً في نفسي. وبدأتُ أستعيد كلام المختار الغسّاني، وتنبّهتُ إلى أن حديثه كان منصبّاً على قضايا فقهية تتعلّق بفكرة الهجرة والتهجير. ثمّ إنني لم أره ولا مرّة واحدة وهو يصلّي، وكذلك؛ لم تكن تجري على لسانه عبارات **الحمد** و**الشكر** و**إن شاء الله** التي اعتدنا على تكرارها في كلامنا.

بعد لحظات تأمّل سألتُ الشيخ الأشقر:

- مَنْ يكون **تصفيون بن العطّار**، يا شيخي؟

فاجأ سؤالي الشيخ الأشقر، فراح يتفرّسني، ثمّ قال:

- هكذا إذن! على كلّ حال، هذا رجل من بنات أفكارهم، لم تلده امرأة.

قلتُ بعد لحظات من التأمّل:

- مَنْ يقف وراء الرَّقِّ والألواح الرصاصية، يا شيخي؟ أهو الشيخ الأُكَيْحِل؟

ارتسمت ابتسامة خفيفة ساخرة على وجهه وهو يقول:

- ربّما، وربّما صهره الشيخ الحبيس.

صمت الشيخ الأشقر هُنَيْهَة، وأردف بشيء من الغمِّ:

- لذلك لا بدّ من أن نسعى، بكلّ ما نستطيع، لإخراج إخواننا من هذه الديار الفاسدة المفسِدة إلى ديار المسلمين.

رمى الشيخ جملته الأخيرة ونهض مُنهِياً اللقاء، فنهضتُ بدوري معه، وهنا قبض براحتَيْه على كتفَيَّ وقال:

- لم أطلب رؤيتكَ إلّا لأن أمركَ يهمّني، وقد آلمني أشدّ الألم أنهم حاولوا ضمَّكَ إلى صفِّهم .. لقد نجحوا في إغواء الكثيرين من جماعتنا.

وعندما نطق كلمة جماعتنا؛ ركّز ناظريه نحو عينَيّ وقال:

- بلغني أنهم يسعون لقتلي.

جفّ ريقي وزاغ بصري، فحاولتُ أن أهرب من نظراته بأن انكببتُ عليه أعانقه وأنا أردّد والدموع تنهمر من عينَيّ:

- فدتكَ نفسي، يا شيخي.

نظر إلى وجهي مليّاً، وهزّ رأسه هزّات خفيفة وهو يقول:

- انتبهْ لنفسكَ، ولا تنخدع بكلامهم.

جملته الأخيرة أثبتت لي أنه كان يعلم أنني ماشيتُهُم، وأنني كذبتُ عليه، فزاد ارتباكي. وقبل أن أنطق بشيء؛ قال جملته التي جرّدتني من كلّ حول وقوّة:

- مات الأُكَيْحِل قبل شهور، ودفنوه في مقابر النصارى، وإن شئتَ أن تتأكّد اسأل المختار الغسّاني!

لم أعلّق بشي، وتوجّهتُ نحو الباب وفتحتُهُ جاثياً على ركبَتَيّ من دون

أن أقول شيئاً، أو أحاول أن أُلقيَ عليه نظرة وداع عابرة، وماذا أقول بعد هذا الدرس القاسي؟!

عدتُ إلى البيت محطّماً، تحاصرني نظرات **الشيخ الأشقر** المفعمة بخيبة الأمل من الخيانة. لا ريب في أن الشيخ منحَني في الجلسة معه أكثر من فرصة، لكي أكون صادقاً، ولكنني فشلتُ في اقتناص إحداها.

مضى أزيَد من سبعة شهور لم يصلني أيّ خبر، أو دعوة للقاء، لا من الشيخ الأشقر، ولا من المختار الغسّاني، وقد دفعني الفضول بعد تردّد للتوجّه إلى قبو الأزْقَم، علّني أصل إلى طرف خيط يقودني إلى الخروج من المتاهة التي ضعتُ في تُرَّهاتها، ولكنني وجدتُ الصومعة مغلَقة، وحجارتها آيلة للسقوط، كأن يد الخراب عبثت بها، فبدت وكأنها هجرت منذ سنوات طويلة.

سارت أيّامي بعد ذلك سيراً بطيئاً مُمِلاًّ، من المحكمة إلى البيت، ومن البيت إلى المحكمة، وبدأتُ أفكّر بالهجرة إلى **بلاد مِخِيْكُو** مع أسراب الأندلسيِّيْن الحالمين بحياة جديدة بعيدة عن ثِقَل الماضي وآلامه. ولكن؛ وفي أحد الأيّام، بينما كنتُ منهمكاً في قضية ميراث كبيرة، أتى رئيسي في العمل وقال:

- اتركْ كلّ ما في يدَيْكَ واتبعني.

سرتُ خلفه بخطوات مُجدَّة، وبعد هبوط عدد من الأدراج، دخلنا إلى قاعة كبيرة مملوءة بالأرفف الخشبية الغاصّة بملفّات القضايا.

قال رئيسي وهو يشير إلى كومة من الأوراق المكدّسة تتوسّط القاعة:

- هذه قضايا جرائم الشرف المتعلّقة بمدينة **لوس يبنيس**، مطلوب

منكَ تصنيفها وإيداعها في هذا الأرشيف الذي أصبح **الأرشيف القضائي العامّ لمدينة طُلَيْطِلَة وأرباضه**ا.

ثمّ قال وهو يتوجّه نحو الباب لينصرف:

- أنتَ منتدَب لهذه المهمّة حتّى تنتهيَ منها، وبعدها ستحصل على ترقية.

لم يستغرق وقت الأرشفة أكثر من أسبوع واحد، ولم أشأ أن أُخبر رئيسي بانتهاء مهمّتي، إذ دفعني فضولي للبحث في ملفّات الأرشيف الأخرى، وكم كانت مصادفة غريبة أن يكون الملفّ الأوّل الذي وقعت عيني عليه، في القسم المخصّص لمحكمة "ديوان الإيمان" في طُلَيْطِلَة، هو ملفّ أمّي مريانا زوجة ألونسو دي لونا.

ما زلتُ أذكر تلك اللحظة بتفاصيلها كاملة، فحين قرأتُ اسم أمّي على الملفّ ذي الأوراق الخمس عَشْرَة، سرت رجفة في جسمي وماجت بركبتَيّ، ولم أعد أقوى على الوقوف. ضربات قلبي تملأ أُذُنيّ وروحي تقفز من جسدي. رحتُ ألتهم الحروف وقد مشحتها الدموع التي ملأت عينَيّ، ثمّ انفجرتُ باكياً، كأن قهر عشرين عاماً خزّنتْهُ نفسي؛ انفجر بي مرّة واحدة. وبعد أن هدأتُ قليلاً، رحتُ أتصفّح الملفّ ورقة ورقة، وكلمة كلمة.

ملفّ محاكمة أمّي

الورقة الأولى

1593 طُلَيْطِلَة

ضدّ

مريانا زوجة ألونسو دي لونا رَقْم 7 مهرطقة، من سكّان حَيِّ الكازار، محتجَزَة في سجن "ديوان الإيمان".

التُّهم المنسوبة إليها بواسطة المدّعي العامّ دُون خيرونيمو راميريز.

امتنعت السجينة التي هي رهن الاحتجاز بحكم القانون عن الإدلاء بأيّ معلومات عن هراطقة آخرين.

الشاهد فرانشيسكو دي باتينيو التوقيع على ملحق المرافعة.

شهادة مكتوبة وموثّقة للعجوز الميتة كارينا، أرملة غونثالو لوركا.

الورقة الثانية

دليل ضدّ مريانا زوجة ألونسو دي لونا من مسلمي إشبانية الجديدة، من سكّان حَيِّ الكازار في طُلَيْطِلَة، في العاشر من شهر سبتمبر عام

1592م أمام المحقِّقَيْن كوسكو فرناندو، ومارتين خاليس الحاضرَيْن في الجلسة.

وبوجود الشاهد فرانشيسكو دي باتينيو العامل في مهنة تعزيل قنوات الصرف، قال الرجل البالغ من العمر 50 عاماً، بعد أداء اليمين القانونية، باعتراف أدلى به من ضميره، من بين أشياء أخرى قالها لا علاقة لها بالموضوع، قال ما يلي:

منذ عام أو عامَيْن، استدعتْني السيّدة مريانا، وطلبت منّي أن أنظّف قسطل الفضلات الخارج من بيتها إلى حفرة الصرف القديمة، بعد أن أغلقتْها الأوساخ، وحين حضرتُ كانت السيّدة مريانا تحاول إبعاد طفلها عنّي بسبب الروائح الكريهة، ولكن الطفل أصرّ عن البقاء وبدأ بالبكاء حتّى كاد يختنق، فبدأت تتلفّظ بكلمات أعرف أنها خاصّة بالمسلمين، وعندما صحا الطفل واستعاد شهيقه، عادت لتقول كلمات أخرى أيضاً أعرف جيّداً أنها كلمات مسلمين.

وحين سألتُها عمّا تقول؟ قالت إنها تعاويذ لحماية الصبي، فقلتُ لها: هل أنتِ مسلمة؟ فقالت: نعم، أنا مسلمة، ما يخصّكَ أنتَ، تابع عملكَ، وامضِ إلى شأنكَ.

سُئل إن كان قد لفت نظره في البيت شيء آخر، قال: إن قسطل الصرف وبيت الخلاء، وتمديدات المياه أثارت انتباهه، وجعلته يشكّ في أمر العائلة.

سُئل ما الذي استنتجه من ذلك؟ قال: إن هذه التمديدات غير مألوفة في بيوت النصارى، ويظنّ بأنها تخصّ طقوس المسلمين المتعلّقة بالوضوء والطهارة التي تُعدّ جزءاً أساسياً من دِيْنهم، بحسب ما يعرف.

بحضوري أنا المدّعي العامّ دُون خيرونيمو راميريز (ممهور بالتوقيع).

تمّ ضبط النصّ بواسطتي أنا كاتب العدل رودريغو فيردينوسا (ممهور بالتوقيع).

بحضور السيِّدَيْن المُحقِّقَيْن كوسكو فرناندو، ومارتين خاليس، في جلسة "ديوان الإيمان" أمرا بمثول بابلو باييخو شقيق المتّهمة أمامهما، وأدّى اليمين القانونية أصولاً، ووعد بقول الحقيقة تحت طائلة العقوبة. وسُئل إن كان يعرف أن شقيقته مسلمة، فقال:

الورقة الثالثة

لا أعرف إن كانت شقيقتي مسلمة أم لا، وكلّ ما أعرفه أنها نصرانية مخلصة في إيمانها، ولم أسمع منها طيلة حياتي أيّ كلمة تنافي ذلك.

سُئل عن زوجها ألونسو دي لونا، فقال إنه لا يعرف أين هو الآن، ولكنه يعرفه نصرانياً مخلصاً، وحريصاً على إيمانه كلّ الحرص.

بحضوري أنا المدّعي دُون خيرونيمو راميريز (ممهور بالتوقيع).

تمّ ضبط النصّ بواسطتي أنا كاتب العدل رودريغو فيردينوسا (ممهور بالتوقيع).

الورقة الرابعة

الجلسة الأولى

طُلَيْطِلَة في الرابع من شهر أبريل عام 1593، نحن، وكوننا في جلسة

الاستماع الصباحية، السيّد المحقّق المرخّص كوسكو خيسوس أمر بإحضار امرأة كان محتجَزَة في سجن "ديوان الإيمان"، وكونها أمامه أقسمت اليمين أصولاً، ووعدت بموجبه بقول الحقيقة تحت طائلة العقوبة، قالت إنها تُدعى مريانا، وهي زوجة ألونسو دي لونا، وهو من مدينة غَرْنَاطَة أصلاً، ومنذ اختفائه قبل محاكمتها بشهرَيْن لم تعرف عنه شيئاً، مات طفلها بعد سجنها بمدّة وجيزة، وأنها من حيّ الكازار في طُلَيْطِلَة، وتبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً تقريباً.

الأبوان: قالت إنها لا تتذكّر والدها الذي اختفى وهي صغيرة جدّاً، ولكنها تعتقد أنه يُدعى خوسيه، ووالدتها كانت تُدعى كاتالينا، وهي متوفّاة، ومن سكّان طُلَيْطِلَة، وقالت إنها لا تعرف أحداً من أجدادها، ولا تعرف إن ماتوا على دِيْن الإسلام أم النصرانية كإشبان.

أشقّاؤها: لديها شقيق واحد يُدعى بابلو بابيخو، نصراني مخلص حاصل على رتبة شمّاس.

شقيقاتها: تقول لديها شقيقتان: واحدة تُدعى إيزابيلا تعيش في طُلَيْطِلَة في حَيِّ الكازار، متزوّجة من دون سيرخيو غونثالث، مدرّس اللغة اللاتينية في مكتب الرهبان الجِزْوِيْت الثالث، والثانية روزالينا المتوفّاة في صغرها.

أبناؤها: تقول إن لديها ابناً واحداً مات بعد سجنها، كان عمره عامَيْن فقط، واسمه في المعمودية خيسوس.

قالت إنها نصرانية قد تمّ تعميدها وإجارتها، وإنها تعترف كلّ عام، وتسمع قدّاس الأحد وأيّام العطلات، وتعرف صلوات الكنيسة، وردّدتْها على مسامعنا نحن الحاضرين في الجلسة.

الورقة الخامسة

سُئلت إن كانت تعرف لماذا تمّ حبسها ونقلها إلى هذا الديوان؟ فقالت إنهم قبضوا عليها من دون أن تعرف سبب ذلك، وفاجؤوها بشاهد لا تعرفه ولم تره؛ قال أشياء غير صحيحة.

قيل لها: لقد سمعكِ عامل القساطل تجدّفين بكلمات عربية. قالت: هو كاذب، ولم أره من قبل.

قيل لها: كيف عرف أن لديكَ ابناً طفلاً ذَكَراً؟ قالت: أهل الحيِّ كلّهم يعرفون أن لديّ طفلاً ذكراً.

قيل لها: هناك مَنْ يقول إن زوجكِ كان مسلماً في السِّرِّ؟ قالت: أعرفه نصرانياً مخلصاً.

هامش: إنذار

قيل لها: فلتعلم أنها سُجنت بسبب أدلّة وشهادات متعدّدة، ولذلك تمّ إنذارها بأن تقول الحقيقة، وتمّت إعادتها إلى السجن.

بحضوري أنا المدّعي دُون خيرونيمو راميريز (ممهور بالتوقيع).

بحضوري أنا كاتب العدل رودريغو فيردينوسا (ممهور بالتوقيع).

الورقة السادسة

الجلسة الثانية

طُلَيْطِلَة في الرابع عشر من شهر أبريل عام 1593، وكون الجلسة بعد

الظهر أمر السيّدان المحقِّقان كوسكو فرناندو، ومارتين خاليس، بمثول المَدعوّة مريانا السجينة في هذه السجون أمامهم، وكونها حاضرة، قيل لها بأن تقول الحقيقة التي يجب أن تقولها من أجل تبرئة ذمّتها أمام الربّ.

فقالت: قلتُ لكم كلّ ما أعرف، ولا شيء جديد لأضيفه.

هامش: الإنذار الثاني

وهكذا تمّ إنذارها وإعادتها إلى سجنها.

بحضوري أنا كاتب العدل رودريغو فيردينوسا (ممهور بالتوقيع).

الورقة السابعة

الجلسة الثالثة

طُلَيْطِلَة في العشرين من شهر أبريل عام 1593، في جلسة الاستماع الصباحية؛ أمر السيّدان المحقِّقان كوسكو فرناندو، ومارتين خاليس، بمثول المَدعوَّة مريانا السجينة أمامهما، وكونها حاضرة؛ تمّ تحذيرها للمرّة الثالثة لكي تقول حقيقة ما هي مذنبة فيه ولم تفعل، ولذلك تمّ الآن تحذيرها من باب تقديس ربّنا المسيح، وأمّه المباركة، لكي تقول حقيقة ما فعلت وما قالت، وما رأت من زوجها ومن الآخرين ضدّ إيماننا الكاثوليكي المقدّس، وبذلك سيتمّ حلّ قضيّتها بإيجاز ورحمة. وهكذا تمّ تحذيرها وإعادتها إلى سجنها.

بحضوري أنا المدّعي دُون خيرونيمو راميريز (ممهور بالتوقيع).

بحضوري أنا كاتب العدل رودريغو فيردينوسا (ممهور بالتوقيع).

الورقة الثامنة

الجلسة الرابعة

طُلَيْطِلَة في الحادي والعشرين من شهر أبريل عام 1593م في جلسة الاستماع الصباحية أمر السيّدان المحقِّقان كوسكو فرناندو، ومارتين خاليس، بمثول المَدعوَّة مريانا السجينة أمامهما، وكونها أمامهما قيل لها: إن عليها أن تقول الحقيقة من أجل تبرئة ذمّتها. قالت إنها لا تتذكّر أيّ شيء.

قيل لها إنها يجب أن تعلم بأن المدّعي العامّ في "ديوان الإيمان" هذا؛ دُون خيرونيمو راميريز، لديه تهمة معروضة وموجّهة ضدّها قبل أن يتمّ تبليغها بها، والآن يتمّ تحذيرها للمرّة الرابعة من باب تقديس الربّ المسيح أن تقول الحقيقة، وعند ذلك سيكون هناك إمكانية لأن تستفيد من الرحمة.

قالت: ليس لديّ ما أقوله، وصحيح أن السادة أرسلوني إلى هنا، لكني لا أعرف لماذا.

هامش: اتّهام

أُمر بعد ذلك بقراءة وإبلاغ الاتّهام الذي وجّهه المدعي العامّ ضدّها، والاستماع والردّ عليه بما تقول إنه حقّ تحت طائلة العقوبة بالقَسَم الذي أقسمتْهُ، والاتّهام هو التالي:

الورقة التاسعة

أيّها السادة الموقّرون جدّاً

المدّعي العامّ دُون خيرونيمو راميريز، من خلال استرحامكم المذكور

في هذه الحالة، أتّهم مريانا زوجة ألونسو دي لونا نصرانية مستجدّة، من سكّان حَيِّ الكازار في طُلَيْطِلَة، وبحسب ما تمّ الإعلان عنه، أقول: بما إن السالفة الذِّكْر؛ نصرانية في الحوزة، وتتمتَّع بالحصانات والإعفاءات والامتيازات الممنوحة لمثل هؤلاء، وقد هرطقت وارتدّت عن إيماننا الكاثوليكي المقدّس، وانتقلت إلى الطائفة الفاسدة لمحمّد، وقد صدّقتْها واعتبرتْها خيراً لخلاص روحها، وحافظتْ، في امتثال دقيق ودؤوب، على ما تحدّده أقوالها وشعائرها، وتواصلت بها مع الآخرين. أقول ذلك وعلى وجه الخصوص، إن مَنْ سبق ذِكْرها اتَّبعت الطائفة المذكورة بالحبّ والإعجاب. وقد اجتمعت مرّات كثيرة في بيتها مع بعض الناس من طائفتها للممارسة والتعاطي في شريعة المسلمين المذكورة، قائلين إنها الأفضل، وفيها يجب أن يخلَّصوا ويذهبوا إلى الجنّة، وإن المذكورة مريانا مثل أخريات؛ قمنَ بالوضوء، والصلاة، وصوم رمضان، هذا كلّه كان في اعتقادها وإيمانها شريعة الله، وهو صالح من أجل دخول الجنّة.

وبالمثل، فإن السالفة الذِّكْر؛ أعطت بعد صوم رمضان شخصاً معيّناً من المسلمين، هذه الصدقات قائلة إنها "الفطرة".

وبالإضافة إلى ذلك كلّه لديّ أدلة مَخفِيَّة، لا أستطيع أن أُرفقها في هذا الملفّ تتعلّق بزوجها المهرطق ألونسو دي لونا الفارّ من وجه العدالة الكنسية، وهي شريكة له في تلك الهرطقات كما تبيّن لي شخصياً.

لقد ارتكبت أيضاً العديد من الجرائم الأخرى، وأنا أمضي فيها لاتّهامها، وأنا أتوسّل لرحمتكم أن تأمروا وتُعلنوا بأنها كانت وستبقى مهرطقة ومرتدّة عن إيماننا الكاثوليكي، وأن يُتّخذ بحقّها الحرمان الكبير، وكونها عنيدة وغير متعاونة أرجو أن تسلّموها للعدالة والذراع العلماني، ومصادرة أملاكها لصالح خزانة جلالته.

خيرونيمو راميريز (ممهور بالتوقيع).

الورقة العاشرة

وبعد أن تمّ استيضاح رأي مريانا المذكورة بالاتّهام المذكور، قالت: إنها تنفي ذلك كلّه، لأنها لم تفعل هذه الأشياء، وإنها نصرانية، ولا تعرف لماذا يتّهمونها بهذا الشكل.

قيل لها إن شاءت أن تُوكِل محامي دفاع. قالت إنها لا تريد ذلك، ولتفعلوا ما تريدون، وقد سمّوا لها محامين من هذا الديوان، فقالت: فلتفعلوا ما تريدون.

أمام كاتب العدل رودريغو فيردينوسا (ممهور بالتوقيع).

الورقة الحادية عشرة

طُلَيْطِلَة في الحادي والعشرين من شهر أبريل عام 1593، في جلسة الاستماع بعد الظهر، أمر المحقّق المرخّص كوسكو خيسوس بمثول السجينة مريانا، زوجة ألونسو دي لونا أمامه، وكون المذكورة حاضرة؛ قيل لها إن المحامي غارسيا غونثالث الذي عيّنتْهُ المحكمة لها حاضر، وسوف يتلو عليها أقوال جارتها المتوفّاة والموثّقة أمام عدالة "ديوان الإيمان".

قالت العجوز المتوفّاة المَدعوَّة كارينا، أرملة غونثالو لوركا، إنها كانت تدخل منزل المَدعوَّة مريانا زوجة ألونسو دي لونا منذ سنوات طويلة، حيث يؤدُّون صلاة المسلمين بعد أن يغسلوا أقدامهم وأذرعهم إلى المرَافِق، ويغسلوا أفواههم، وإنها قامت بفعل صلاة برفع وخفض رأسها، وقول بسم الله الرحمن الرحيم، الله أكبر، وإنها تناولت في إحدى المرّات إفطار رمضان، وإن الحاضرين في هذه الممارسات هنّ كونشيتا زوجة دياغو دي هورا، وكرسيتينا زوجة خيسوس دي لوفا، وأكّدت أنها لم ترَ شقيق مريانا الشمّاس المَدعوّ بابلو باييخو ولا مرّة هناك. وتعتقد بأنه كان نصرانياً مخلصاً.

قيل لها: لماذا لم تخبري عن العجوز كارينا؟ قالت إنها كاذبة ولم تنطق بأيّ كلمة صحيحة.

حصل أمام محاميها المعيّن من "ديوان الإيمان" غارسيا غونثالث (ممهور بالتوقيع).

أنا كاتب العدل رودريغو فيردينوسا (ممهور بالتوقيع).

الورقة الثانية عشرة

هامش: ما خلص إليه المدّعي العامّ:

بعد ذلك حضر المدّعي العامّ دُون خيرونيمو راميريز، واختتم القضية بسبب توفّر الأدلّة، وطلب إقرار شهادات الشهود، واعتبرها كافية وجيّدة.

هامش: الاختتام بالدليل

المحقّق: بعد أن رأى أن الطرفَيْن اختتما هذه القضية، وتمّ تسليم الأدلّة بالطريقة المعتادة، تمّ التصديق على الشهادات.

كاتب العدل رودريغو فيردينوسا (ممهور بالتوقيع).

الورقة الثالثة عشرة

الجلسة الخامسة

طُلَيْطِلَة في الثاني والعشرين من شهر أبريل عام 1593، في الجلسة الصباحية، وبحضور المحقّق مارتين خاليس، أمر بمثول السجينة مريانا زوجة ألونسو دي لونا أمامه، وتمّ إخبارها أن محاميها أحضر دفاعاته مرتّبة

هنا، وفيما إذا كان لديها أيّ شيء آخر تريد أن تضيفه على ذلك، قالت ليس لديها ما تفعله، وإنها تطلب اتّخاذ الإجراءات اللازمة بأسرع وقت. وأُعيدت إلى سجنها.

بحضوري أنا كاتب العدل رودريغو فيردينوسا (ممهور بالتوقيع).

الورقة الرابعة عشرة

الدفاع: أيّها السادة الموقّرون والرائعون جدّاً

مريانا زوجة ألونسو دي لونا، من سكّان حَيِّ الكازار في طُلَيْطِلَة المسجونة في "ديوان الإيمان".

بالنظر إلى الدعوى المرفوعة ضدّي، من قبَل المدّعي العامّ دُون خيرونيمو راميريز، أقول إن الدعوى المذكورة ليس لها أساس، ولقد أعربتُ من حيث المبدأ عن رفض القضية، حيث يجب أن يتمّ الإفراج عنّي فيها للأسباب التالية:

أوّلاً: لأني قد قلتُ واعترفتُ بالحقيقة بشكل كامل، ككاثوليكية مخلصة، وإذا كان هناك شيء آخر سأقول ذلك، وأعترف بنفسي، وليس هناك شيء آخر يمكن افتراضه عنّي، لأني كنتُ كاثوليكية مخلصة في إيماني، وآمنتُ بكلّ الوصايا واحتفالات الكنيسة الأمّ المقدّسة، وإيماننا الكاثوليكي ودِيْننا النصراني، كما كان لديّ ودائماً، وكما هو محفوظ ومعروف للناس.

والثاني: هو أنني لا أتأثّر بالأدلّة من شهود قدّموا شهادات ضدّي وتمّ نشرها، لأنه كما تُدرك رحمتكم، هي من عامل قساطل لا يستطيع أن يثبت أنه دخل بيتنا، ومن سيّدة عجوز ميتة لا يمكنها مواجهتي.

الورقة الخامسة عشرة

هامش: التصويت

هامش: تعذيب

طُلَيْطِلَة في العاشر من شهر مايو عام 1593، بحضورهم في جلسة "ديوان الإيمان" للاطّلاع على الدعوى، السيّدان المحقّقان المرخَّصان كوسكو فرناندو، ومارتين خاليس، والسيّد الدكتور خيمينث قاضي الأبرشية، ورئيس الشمامسة في أسقفية طُلَيْطِلَة، السيدان المستشاران سالازار وهواراتي، وبعد أن اطّلعوا على هذه القضية والإجراءات القضائية والاستحقاقات المتوافقة معها، قالوا: إن مريانا زوجة ألونسو دي لونا تُوضَع في قبو التعذيب، الماء، والحبال، والعجلة الدوّارة، والمِقْرَاص، والسيخ المُحمَّى، حتّى تقول الحقيقة بما يتوافق مع إرادتنا مع الحماية التي نقدّمها لها، وإذا ماتت في أثناء التعذيب المذكور، أو سال منها دم، أو حصل لها تشوّه في الأعضاء، فسيكون ذلك على مسؤوليّتها ونتيجة خطئها، وليس بسببنا.

بحضوري أنا كاتب العدل رودريغو فيردينوسا (ممهور بالتوقيع).

هامش: موت

مع الضغط عليها وبعد أن تمّ وضعها على الساكت، قالت: الله الله، وكلمة أخرى لم نتبيّنها جيّداً، يمكن أن تكون أكبر، وحين سُئلت: لماذا قالت ذلك؟ نظرت إلى السائل، ثمّ ماتت.

بحضوري أنا المدّعي العامّ خيرونيمو راميريز (ممهور بالتوقيع).

قاتل بثياب راهب

وضعتُ الملفّ في حقيبتي، وتوجّهتُ إلى الأسقفية، حيث خالي الشمّاس بابلو، لكي أستوضح منه عن بعض الأمور التي استغلق عليَّ فهمها. كانت الشمس على وشك المغيب، وبدت الأسقفية وكأنها خاوية على عروشها إلّا من بعض الشمامسة المنهمكين بأمورهم. سألتُ أحدهم عن حجرة خالي بابلو باييخو، فأشار إلى باب كبير، عليه لوحة كُتب عليها "أرشيدياكونو"، أي رئيس الشمامسة. لم أكن أعلم قبل اليوم أن خالي بلغ هذه الرتبة الإكليريكية الرفيعة.

طرقتُ على الباب طرقات خفيفة ثمّ فتحتُهُ ودخلتُ، فوجدتُهُ مستغرقاً في تأمّل أيقونة العذراء وابنها الرضيع. وبعد دقائق صلَّب وقبَّل أصابعه الثلاثة، ثمّ التفت نحوي، ففاجأه حضوري:

- خيسوس! ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟ هل ثمّة أمر خطير؟

- نعم، لقد وصلتُ إلى ملفّ محاكمة أمّي، وأريدكَ أن تريَني القبو الذي عُذِّبت وماتت فيه، أعرف أنه هنا في مكان ما من مبنى الأسقفية.

أشاح بوجهه عنّي، وعاد لتأمّل أيقونة العذراء ورضيعها:

- ما الفائدة من ذلك؟

قلتُ وأنا أغالب عبرات كادت أن تشقّ صدري:

- أريد أن أُشفى ممّا أنا فيه.

التفت إليّ، فوجد الدموع تغسل وجهي. تأمّلني مليّاً، ثمّ نهض نحو مصباح الزيت، فأخذه وهو يقول:

- اتبعني.

سار خالي في ردهة الأسقفية الطويلة المضاءة بالشمع وأنا أتبعه، ثمّ هبط درجاً خشبياً متحلزناً؛ يقود إلى باب صغير يفضي إلى سرداب طويل ضيّق، ينتهي بباب ينفتح على حديقة الأسقفية، ومن هناك انحرف يميناً حتّى وصل إلى باب منفرد، فتحه بمفتاح كان في جيبه، وقبل أن يدخل؛ نظر إليّ مليَّاً وكأنه ندم على قراره:

- أكان لا بدّ من ذلك؟

- أجل، أرجوكَ.

انفتح الباب على درج صغير .. ينتهي الدرج بسرداب طويل، تصطفّ على يمينه ويساره حجرات عديدة، لكلّ حجرة باب من الخشب الثقيل.

فتح الباب الثاني من جهة اليسار، ودخل قبلي. وضع المصباح على منضدة متهرِّئة، ثمّ دعاني للدخول. صدمتْني رائحة الحجرة التي لم أستطع أن أميّزها جيّداً، إن كانت لجيفة آدمية، أم بول، أم عَذِرَة طال الأمد عليها حتّى تعشّقتها الجدران الخشنة، واحتفظت بها في تضاعيفها.

كانت الحجرة متّسعة الأرجاء، مَبنِيّة بالقِرمِيْد المَشوِيّ العاري، ومقبوَّة بعقدَيْن مرتفعَيْن ارتفاعاً شاهقاً، عُلِّقت في منتصفها حلقة حديد، تتدلّى منها سلسلة غليظة، يسمّونها السترابادو، كان الجلّادون يربطون ذراعَي المتّهم من الخلف، ويرفعونه بالسلاسل إلى الأعلى، ويبقونه معلّقاً حتّى يعترف أو يموت.

راعني منظر آلات التعذيب الصدئة المتناثرة في نواحي الحجرة، والتي لم أستطع تمييزها جيّداً. في صدر الحجرة دكّة خشبية عليها كرسي خشبي يشبه كراسي القضاة في المحكمة، لا شكّ في أنه يخصّ المدّعي العامّ، وتحت الدَّكَّة منضدة وكرسي، يبدو أنهما للكاتب الذي يدوّن كلّ شيء.

بدا الضيق والقرف على وجه خالي الذي قال:

- منذ عامَيْن لم يزر أحد هذا السجن بعد أن أغلقه سيّدنا الأسقف نهائياً.

- ولكنْ، ما الذي غيّره، يا خال؟!

قال وهو يطوف في الحجرة بخطوات وئيدة ويسدّ أنفه بمنديل:

- الموت، يا خيسوس، الموت! فقد أعزّ الناس إليه في طاعون مَلَقَة. وقد رأى في ذلك الطاعون المريع غضباً إلهياً تسبّبت فيه الخطايا التي ارتُكبت بحقّ الأبرياء.

توقّفتُ أمام العجلة الدوّارة مليّاً وأنا أتخيّل جسد أمّي موثقاً بها، وظهرها محنياً كقوس نشّاب، والجلّاد يضغط بقوّة. أستطيع أن أسمع بوضوح صوت تكسّر عظامها، وتمزُّق لحم صدرها، وأنينها الضعيف المكتوم بعد أن خارت قواها.

في زاوية الحجرة ثمّة آلة غريبة تشبه مقصّاً كبيراً. اقتربتُ منها فأيقنتُ أنها ساحقة الأثداء. داهمني دوار وأنا أتخيّل كلّاباتها الصدئة المرعبة وهي تنتزع الأثداء من صدور الصبايا والنساء المسكينات اللواتي قادهنّ قدرهنّ الأليم إلى آلات الموت، فتقيّأتُ شربة الماء التي شربتُها قبل قليل.

أمسك خالي ذراعي، وحاول جذبي نحو الباب، وهو يقول بغضب:

- لنغادر حالاً.

تشبّثتُ بمكاني وقلتُ بتصميم:

- أريد فقط أن أرى سرير الساكت.

تردّد برهة، ثمّ ترك يدي؛ ليشير إلى سرير قصير في أقصى يمين الحجرة:

- هذا هو الساكت، ماذا تريد أن ترى فيه؟

تراءت لي أمّي ممدّدة عليه، والدم ينزّ من يدَيْها ووجهها، وهي تنظر إليَّ بعينَيْن اتّسعت حدقتاهما محاولة بجهد جهيد أن تُبقيَهما مفتوحتَيْن كما لو أنها تريد أن أكون آخر شيء تراه عيناها وهي تحتضر.

انفجرتُ باكياً وكدتُ أسقط أرضاً، فأمسك خالي بابلو كتفي بقوّة وهو يحاول أن يبقيَني واقفاً:

- نصحتُكَ ولم تمتثل لنصيحتي .. انسَ، يا خيسوس .. انسَ كلّ شيء، انسَ أمّكَ وأباكَ، وانسني أنا، وانسَ هذه المدينة، تزوّج، يا خيسوس، وهاجر إلى مِخيْكُو، فهناك حياة أخرى أجمل تنتظركَ.

عن أيّ حياة أخرى يتحدّث هذا الرجل؟! هل يمكن للمرء أن يبدأ حياة جديدة هكذا مثل غصن مُنبتّ من جذعه وجذوره؟ هل يمكن للمرء أن يَنْبَتَّ عن مناماته، وذكرياته؟ ربّما هو يستطيع، أمّا أنا، فليس في وسعي أن أُلقيَ بوجه أمّي في نهر الحياة. لا أستطيع أن أنزل جثمانها المُدمّى عن ظهري وأمضي في حال سبيلي. لا أستطيع استبدال منامات وأحلام عيسى بن محمّد، بمنامات فتى مات منذ سنين يُدعى خيسوس.

لم أرغب في مجادلة خالي بأيّ أمر، فقد مات في وجداني حين أشار

إلى سرير الساكت بكلّ برود، كأن المرأة التي كانت ممدّة عليه ليست شقيقته التي يعرفها جيّداً، ويعرف مقدار الظلم الذي نزل بها.

سألتُهُ مباغِتاً:

- متى رأيتَ أمّي آخر مرّة؟

نظر إلى عينَيّ مليّاً، ثمّ قال:

- قبل أن تموت بساعات.

- ما كان شعورك وأنتَ تراها على تلك الحالة؟

نظر إليّ بتحدٍّ وقال بنبرة باردة، وقد فهم المغزى من سؤالي:

- كان هذا خيارها، فهو أقصر طريق إلى الجنّة بحسب معتقدها.

أيّ قلب لهذا الرجل الواقف أمامي؟ أحقّاً هذا خالي الذي يتحدّث عن شقيقته، أم هو رجل آخر؟

سألتُهُ وأنا أنظر إلى عينَيْه:

- مَنْ أنتَ، يا خال؟ لا أكاد أعرفكَ!

لم يفاجئه سؤالي، فقال بنبرة صارمة غريبة، كأنه يردّ على سؤال قاض في محكمة تفتيش:

- بابلو بابيخو؛ رئيس الشمامسة في أسقفية طُلَيْطِلَة.

كان ضوء مصباح الزيت قد عكس على ملامحه ظلالاً مخيفة، فبدا لي رجلاً غريباً بوجه حليق مغضّن، يشبه إلى حدّ بعيد وجه أسقف طُلَيْطِلَة وعينَيْه المطفأتَيْن. أيعقل أن تتغيّر صورة أحدهم إلى هذا الحَدِّ، بتغيّر

موقفكَ منه؟ هل كانت صورته الحقيقية تلك التي رأيتُها في تلك اللحظة؛ أم هي صورة من بنات أفكاري وخيالاتي؟

سألتُهُ مجدّداً بنظرة فيها الكثير من الاتّهام:

- هل تعرف دُون خيرونيمو راميريز؟

ما إن سمع الاسم حتّى أشاح بوجهه عنّي، ثمّ مضى مسرِعاً خارج حجرة التعذيب وهو يقول:

- مَنْ يكون دُون خيرونيمو راميريز هذا؟ وماذا تريد منه؟

أيقنتُ أنه يعرفه، فقلتُ وأنا أتبع خطواته السريعة:

- لا شيء؛ محض سؤال لا معنى له.

حانت منه التفاتة سريعة نحوي قبل أن يصعد الدرج، فرأيتُ في قسماته خُبثاً وعاراً حاول إخفاءهما من دون جدوى. وحين غادرنا القبو، توجّهتُ نحو باب الأسقفية من دون أن أودّعه أو أنظر إليه، ولا أعرف ما فعل حين رآني على هذا الحال، فلم أره منذ ذلك اليوم.

همتُ في شوارع المدينة على وجهي، أُغالب دموعي، وأحاول أن أستعيد رباطة جأشي وقد أوشكتُ على الانهيار. كان وجه أمّي الأصفر المزرقّ المُدمّى يحاصرني من كلِّ حَدَب وصَوْب، وصوت أنينها المكتوم يصرخ في رأسي.

لم أنم تلك الليلة وأنا أقلّب ملفّ قضية أمّي، وأعيد قراءته حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة حتّى حفظتُ وقائعه المؤلمة عن ظهر قلب. واجتاحتْني رغبة قوية في التحدّث إلى الشيخ الأشقر، فعزمتُ على التوجّه، مع شروق الشمس، إلى مقرّ رهبانية الجِزْوِيْت، لعلّي أراه هناك.

سألتُ الحارس الموكَّل بباب الرهبانية عن البادري خوسيه النقي، كان هو نفسه الرسول الذي قادني قبل أكثر من عام إلى مخبأ الشيخ في فابريقة الحرير .. نظر إليَّ مليّاً ثمّ قال:

- انتظر هنا.

غاب برهة من الزمن، ثمّ عاد ليفتح الباب وهو يقول:

- البادري في صومعته ينتظركَ.

حمدتُ الله في سرّي أن الشيخ بخير، وأنه رضي عنّي وقبل باستقبالي. وما إن دخلتُ عليه حتّى نهض وعانقني وهو يردّد عبارات الترحيب بالقَشْتَالِيَّة.

وكما هي عادته؛ أجلَسني قُربه وأخذ يسألني عن أحوالي؟ فسألتُهُ من فوري:

- أرجو أن تُصدِقَني القول، يا شيخي؛ هل ما زال في قلبكَ مكان لي؟

تبسّم الشيخ، ثمّ أحاطني بذراعه، وجذبني إلى صدره وهو يقول بالعربية:

- أنتَ بمثابة ابني، يا عيسى، وإن شئتَ الدقّة، أنتَ بمثابة حفيدي، والآن قلْ ماذا تريد منّي؟

- في الحقيقة رضيتُ بحكمكَ عليّ؛ حين صوَّرَتْ لي حماقتي أن باستطاعتي خداعكَ، ولا أقول خيانتكَ، لأنني لم أفكّر لحظة واحدة بالخيانة، كنتُ أتوهّم بأنكَ لا تسير على طريق الحقّ، ثمّ تبيّن لي أنكَ محقّ في كلّ حرف قلتَهُ. وبعد لقائنا الأخير في فابريقة الأنوال، حسبتُ أنكَ أَخرجتَني من قلبكَ نهائياً.

تبسّم الشيخ بأسى وقال:

- يشهد الله أنني سامحتُكَ، وكنتُ واثقاً تمام الثقة بأنكَ راجع إلى جادّة الصواب، ما إن تدرك الحقيقة .. وأودّ أن أحيطكَ علماً بأنني، ورغم زوال الخطر، التزمتُ البقاء هنا في الرهبانية، من دون أن أتواصل مع أحد، فشيوخ الجماعة غادروا تباعاً إلى مُراكُش، وفاس، والجزائر، وإِسْطَنْبُل. ولا أكتمكَ، يا عزيزي عيسى، بأنني عزمتُ على الهجرة إلى الجزائر، فثمّة إخوة لنا أعدّوا لي مكاناً هناك بين أبناء أمّتنا.

لم يفاجئني قرار الشيخ؛ فقد كنتُ أتوقّعه، ولكنْ، ليس بهذه السرعة، وخطر لي أن أصارحه بقراري الذي بدأتُ أفكّر فيه منذ مدّة قصيرة.

- وأنا أيضاً بدأتُ أفكّر بالهجرة.

بَشَّ الشيخ حين سمع قراري، كأنه كان ينتظر ذلك منّي، فقال بحماس:

- خير ما تفعل، يا عيسى؛ فالهجرة واجبة على المسلم من دار الحرب إلى دار الإسلام.

أردتُ أن أسأله في تلك اللحظة عن دُون خيرونيمو، فأشار لي بحركة من يده بأن أصمت. ثمّ أضاف وهو يصغي لحفيف خطوات في الممرّ:

- تحدَّثْ بالقَشْتَالِيَّة على سبيل الاحتياط.

قلتُ هامساً:

- هل تعرف دُون خيرونيمو راميريز؟

ارتسمت الدهشة على وجهه وقال:

- نعم، أعرفه، ما به؟

- وقع ملفّ قضية أمّي مريانا تحت يدي أمس، وقرأتُهُ بتمعّن، وتبيّن لي أن سبب كلّ ما أصابها من آلام هو دُون خيرونيمو راميريز، المدّعي العامّ في محكمة "ديوان الإيمان"، ولديّ شكوك قوية بأنه وراء اختفاء والدي.

أصابت الشيخ جمدة، واكتست قسماته بالذهول، ثمّ نظر إلى الأعلى ورفع سبّابته اليمنى وقال بالعربية:

- الله أكبر، ولله الحمد أنني لم أظلمه.

فاجأتْني ردّة فعل الشيخ، فأنا لم أره بمثل هذه الحال من قبل، فأردف وقد حوّل نظره نحوي:

- كنتُ واثقاً بحول الله مِن أن خيرونيمو هذا ما هو إلّا مخادع كبير.

تشابكت الأمور في رأسي، وفجأة انبثق أمامي وجه خالي بعينَيْه المطفأتَيْن:

- هل تظنّ أن خالي يعرفه؟

نظر الشيخ إليّ باستغراب وهو يقول:

- نعم، يعرفه، هل أنكر ذلك؟

- نعم، أنكر!

- لا حول ولا قوة إلّا بالله، أتمنّى أن لا تصدُق شكوكي بخالكَ.

- لم يعد يهمّني أمره، لقد مات في وجداني مساء أمس.

نهض الشيخ وأحضر كاساً من مغلي الصعتر المحلّى بالعسل، وقدّمه لي، ثمّ أحضر كأساً له وهو يقول:

- دعنا من خالكَ الآن، سأحدّثكَ عن دُون خيرونيمو راميريز.

احتسى الشيخ جرعة كبيرة من الكأس، ثمّ جلس في مكانه قربي وتابع حديثه:

- منذ أن سمعتُ عنه للمرّة الأولى لم أرتح له، ولم أثق به، تستطيع أن تقول إنها إشارة إلهية .. ففي اللحظة التي أتى عمّكَ، أقصد زوج خالتكَ سيرخيو غونثالث، أو سراج الدِّيْن بن حميد، ليخبرني بأمر ضمّه إلى جماعتنا، سقط سراج الزيت الذي كان على المنضدة أرضاً، من دون سبب ظاهر، وكاد أن يشعل المكان لولا لطف الله. فحذّرتُ عمّكَ سيرخيو منه، وطلبتُ ألّا يصلني به بأيّ شكل من الأشكال، رغم تأكيده بأن الرجل صالح ومن أبناء أمّتنا.

صمت قليلاً، ثمّ نهض باتّجاه النافذة وراح ينظر إلى الشمس التي حجبتها بعض ندف الغيوم، فرسمت شكلاً يشبه سفينة محترقة.

بعد هُنَيْهَة من الوقت التفت نحوي، وقال:

- يغفل الناس عن لغة القلوب، القلب عين ثالثة ترى ما لا تستطيع العينان رؤيته. عيناكَ تخدعانكَ، تُريانكَ ما تشتهي، ما تحبّ أن تراه، أو تحجبان عنكَ ما لا تودّ رؤيته، أمّا القلب، فلا.. قلبكَ يصدُقكَ القول، قلبكَ لا يخدعكَ.

يا له من اتّفاق غريب .. لقد أجاب الشيخ عن سؤال تبادر إلى خاطري ليلة أمس حول صورة خالي المرعبة المقزّزة التي رأيتُهُ عليها في حجرة التعذيب. كأن الشيخ كان يقرأ ما يجول في خاطري:

- كيف تراه، يا شيخي؟ أهو خائن أم جاسوس؟

نظر إلى عينَيّ، ثمّ قال:

مَنْ تقصد؛ خالكَ أم دُون خيرونيمو؟

ابتسمتُ من ذكاء السؤال، لقد قرأني في تلك اللحظة:

- خالي بتُّ أعرفه جيّداً، أمّا دُون خيرونيمو، فلا أعرف عنه شيئاً.

- ما الفرق إن كان خائناً أم جاسوساً؟

- سأسأل السؤال بصيغة أخرى؛ هل تعتقد بأنه من أبناء أمّتنا أم هو قَشْتَالِيّ أو أَرَغُونِيّ مخادع؟

- لا أملك أن أجيبكَ عن هذا السؤال الصعب جواباً شافياً وافياً، ولكن قلبي يقول لي إنه مخادع.

- هل تعرف أين أجده؟

- الشخص الوحيد الذي يمكن أن يعرف مكانه هو عمّكَ سراج الدِّيْن، سيرخيو غونثالث، فهو الذي عرَّفنا به، وزكَّاه عندنا.

نظر الشيخ إلى عينَيّ، ثمّ قال:

- أحسبكَ ستسافر إلى مَذْرِيْل.

- نعم، هذا ما أفكّر فيه.

- أودّ أن أحيطك علماً بأن عمّكَ سيرخيو انفصل عن الجماعة، وعن دِيْن الإسلام مثل خالكَ، وهو الآن كاثوليكي مخلص .. هو لا يعرف عن انتظامكَ في الجماعة، ولا عن إسلامكَ، إيّاكَ أن تبوح له بأيّ شي.

قلتُ مستغرباً:

- ألَا تخشى منه؟

- هو يعرف الشيخ الأشقر، ولا يعرف البادري خوسيه النقي، والشيخ الأشقر متوارٍ عن الأنظار منذ زمن بعيد.

قلتُ وأنا أنهض معلِناً عن مغادرتي:

- أوصِنِي، يا شيخي.

قال وهو يضع يده على كتفي:

- هي وصية، أرجو أن تحفظها في صدركَ وعقلكَ .. إيّاكَ أن تبوح لأحد بشيء. أجبْ بأقصى قَدْر من الاختزال إن سألكَ أحدهم عن أمر ما. لا تبادرْ إلى الحديث، وكنْ مستمعاً.

ودّعتُ الشيخ الأشقر بحرارة على أمل اللقاء في دار من ديّار الإسلام، وعدتُ إلى البيت لكي أنام وأرتاح بعد ليلتَيْن من الأرق، وفي عزمي أن أُرتّب أموري وأوراقي استعداداً للسفر إلى مَذْرِيْل.

في صبيحة اليوم التالي توجّهتُ إلى المحكمة، وطلبتُ من رئيسي استيداعاً مؤقّتاً من العمل، وتذرّعتُ بحاجتي لرحلة حجّ إلى سانتياغو دي كامبوستيلا، ففرح كثيراً بهذا الخبر، وأمر بأن تُدفَع لي مستحقّات نصف عام، اشتريتُ بها حصاناً نشيطاً، وحقيبة جِلْدية، جمعتُ فيها أغراضي الضرورية، وسرتُ برفقة قافلة مسافرين إلى مَذْرِيْل التي وصلتُها في يوم وليلة، قطعتُها بين مشاجر، وغياض، وأنهار، وجسور، وطُرُق مرصوفة بالحجارة، وأخرى عارية إلّا من التراب والوحل في بعض الأحيان.

خالتي إيزابيلا

في مَدْرِيْل، قصدت بيت خالتي إيزابيلا في الجهة الغربية من المدينة. لم أزرها منذ عامَيْن. انهمرت دموعها حين فوجئتْ بي واقفاً أمام الباب حاملاً حقيبتي وإلى جانبي يقف حصاني. احتضنتْني بقوّة، وهي تلثمني وتتشمّمني كما تفعل القطط بصغارها، وتردّد بين هذا وذاك:

- اشتقتُ إليكَ، يا عمري .. أين كنتَ؟ لماذا انقطعتَ عن زيارتي؟

ثمّ صاحت لابنها الأوسط:

- رامون! تعال، أدخِلْ حقيبة أخيكَ.

اندهش الفتى من كوني أخوه. نظر إليّ ساخراً، وقال:

- لقد أصبح أخي وسيماً واشقرَّ شَعْره.

ثمّ راح يجرّ حقيبتي بتثاقل، وسط تأنيب أمّه واتّهامها له بالسماجة.

قالت خالتي محاولة تبرير سخرية ابنها:

- يتظارف، ويتظاهر بأنه ظنّكَ شقيقه ياغو الذي هاجر إلى مِخِيْكُو قبل أكثر من عام.

لم يفاجئني خبر هجرة ابن خالتي الأكبر ياغو إلى مِخِيْكُو، فقد كان صديقاً حميماً لي، ورفيقاً في حلقات العلم، وجماعة الشيخ الأشقر من

وراء ظهر أبيه. وحين زرتُهم قبل عامَيْن أسرَّ لي بأنه ضاق ذرعاً بتخاذُل والده وتنكّره لدِيْنه وأصله، وأنه عازم على الهجرة إلى أرض مِخِيْكُو مع عائلة خطيبته التي علمت لاحقاً بأنه تزوّجها قبل السفر.

أحبّ خالتي إيزابيلا كثيراً، اعتنت بي بعد موت أمّي كما لو كنتُ ابنها، بل كانت تفضّلني في بعض الأحايين على أبنائها، وخصوصاً حين كانت تُشرِكني معها في إعداد أصناف الأطعمة التي أحبّ. ولا أنسى كيف كانت تحضنني، عند عودتي من مكتب التعليم وعلى لسانها تلك الجملة المحبّبة: «أهلاً بالغالي ابن الغالية»، حينها كان الفرح يغمرني، مهما كنتُ كئيباً، أو مغتمّاً من دروس الراهب الدومنيكاني القاسي صاحب العصا.

ابتهجت خالتي بي كثيراً، وانتعش مزاجها الطريف، هيّأت لي حجرة ابنها الأكبر ياغو، وأخرجت لي من خزانتها أغطية ومخدّات ريش فارهة، كانت تحتفظ بها بوصفها جهاز عرسها. واحتفاء بوصولي؛ أعدّت وليمة طعام، عليها أصناف عديدة من تلك التي أحبّها، على رأسها **سكباج الصيف**، وهو من أطايب بطن العجل وأطرافه، يُطبَخ بالخلّ، والأبازير، ويُسقى بالنبيذ الريحاني، والقرع المسلوق. ومن أصناف حلوى اللوز التي أحبّها أعدّت لي **المعاصم بالفانيد**.

أمّا **عمّي سيرخيو**، فلم تكن علاقتي به وثيقة، رغم الودّ الذي يكنّه لي. وهو من ذلك الجيل الجبان الذي أدركه اليأس بعد فشل قومة جبل البَشَرَات. كانت الذريعة التي برّر فيها انهزامه، هي الخيانات التي ظهرت، والمآسي التي تمخّضت عنها، ولذلك نفض عن كاهله ما كان يسمّيه، **عبث الأندلس والأندلسيِّيْن**، وانخرط بكلِّيَّته في خدمة قَشْتَالَة وملكها والإخلاص لدِيْن الكاثوليكية.

حين جلسنا بعد الغداء لتناوُل الحلوى راح يتأمّلني بودّ شديد، وهو يقول:

- كم تشبه والدكَ حين كان في مثل سنّكَ.

ووجدتُها فرصة، لكي أسأله عن والدي، ألونسو دي لونا:

- هل كان صديقكَ؟

أجاب وهو يدير ابتسامته بنوع من الفخر:

- أنا مَنْ زوَّجتُهُ أمَّكَ.

فاجأني هذا الخبر، فلم أكن أعلم به قبلاً، ضحكت خالتي إيزابيلا وهي تستمع لزوجها، وقاطعتْهُ فجأة وهي تقول بمرح:

- بل أنا صاحبة الفكرة .. حين رأيتُ والدكَ في بيتنا، لفتتْ نظري وسامته، وحضوره الطاغي، وحياؤه. يومها لم يكن مضى على زواجنا أنا وعمّكَ سيرخيو سوى شهرَيْن، فقلتُ له: لمَ لا نُزوِّج صاحبكَ بمريانا.

هزّ عمّي سيرجيو رأسه موافِقاً، وقال:

- نعم، الفكرة منكِ، أمّا إقناع **ألونسو**، فقد وقع على عاتقي. لم يكن من السهل إقناعه بفكرة الزواج في طُلَيْطِلَة، ولكن جمال أمّكَ سَحَرَهُ، ووقع في غرامها من النظرة الأولى، وهي أيضاً وقعت في غرامه، وأصبحنا نحن الغريبَيْن.

ساعتها؛ ضحكنا من أعماقنا، ثمّ انقلب ضحك خالتي إلى بكاء صامت، اضطرّنا لإنهاء الحديث.

في مساء ذلك اليوم؛ تسامرنا طويلاً بعد العشاء، وعلمتُ من عمّي

سيرخيو أشياء كثيرة عن والدي. لم أكن أعلم قبلاً أنني أُشبهه إلى هذا الحَدِّ؛ في الطول، ولون الشَّعْر الأشقر، والعينَيْن المخضرَّتَيْن، والقسمات الهادئة. وأكثر ما أثار عجبي؛ وَلَعي مثله بقراءة الرسائل، واقتناء المخطوطات، والزُّهْد في الناس، واجتماعاتهم، وملاهيهم.

انسحب **عمّي سيرخيو** من الجلسة معتذِراً بأن موعد نومه أزف، وتابعنا السهرة أنا وخالتي إيزابيلا التي كانت تسألني عن كلّ ما يخصّني: أين أعيش؟ وكيف آكل؟ ومَنْ يهتمّ بي؟ وكيف هي معاملة **خالي بابلو**؟ وقد عرضتْ عليّ عروساً جميلة، تجيد تحضير أصناف الطبيخ الأندلسي القديم، فوعدتُها بأنني قد أراها بعد إنجاز مهمّة مستعجلة، وقد استبدّ بها الفضول، وحاولت كثيراً أن تعرف ما هي، ولكنْ، من دون جدوى.

في تلك الأيّام العشرة التي لم أغادر فيها بيت خالتي إلّا لماماً، قسّمتُ وقتي بين حصّتَيْن لا ثالث لهما: حصّة النهار، وكنتُ أمضيها بصحبة خالتي وجاريتها الصقلبية في المطبخ أُدوّن ما تُمليه عليّ، أو ما تصنعه أمامي من **الطبيخ الأندلسي**. أمّا حصّة المساء؛ فكنتُ أمضي جُلَّها مع عمّي سيرخيو، أحاول، من دون أن أُثير ريبته، استدراجه للحديث عن صديقه **دُون خيرونيمو راميريز**.

حضَّرتُ ورقاً مجموعاً، وريشة للكتابة، ودَوَاة حبر، ونقلتُ منضدة ومَقعَداً إلى المطبخ، وشرعتُ في تدوين كلّ ما كانت تقوله، وكنتُ أصف كلّ ما أراه، وما زال هذا المجموع، الذي أسميتُهُ **صفوة الكلام الأنسي في صفة الطعام الأندلسي**، مِن أحبّ الأشياء إلى نفسي، جلَّدتُهُ بجِلْد سميك، وكنتُ آخذه معي أينما أذهب، ولا أُفرّط به لأيّ سبب كان.

كان مطبخ خالتي متَّسِعاً، مرتَّباً، نظيفاً. كلّ شيء في مكانه. جِرَار الزيت

لها زاوية مخصوصة، والمُرِّيُّ والخلُّ في أواني فخّار مزجّجة من الداخل والخارج، محكمة الإغلاق. أمّا الأبازير، فكلّ نوع منها محفوظ في قطرميز من الزجاج الشفيف، محكَم الإغلاق بغطاء من خشب السنديان. في منتصف المطبخ موقد الطبخ، نظيفاً عليه تُرْس من الحديد المشبّك. وغير بعيد عنه فرن لعمل الخبر والطواجن. وفي زاوية بعيدة مفصولة عن المطبخ بقَنْطَرَة صغيرة، ثمّة لحم مقدّد يتدلّى من حبال رفيعة معلّقة بحلقات في السقف، وإلى جانبها قِرَبٌ صغيرة بحجم حبّة البِطِّيْخ الأصفر، مشنوقة بحبل ناعم يتدلّى من السقف، أخبرتْني خالتي أنها قِرَبُ جبن حليب النعاج، والذي نسمّيه في الأندلس «جبن المشنقة»، لأن شكل القربة يشبه شكل الإنسان المعلّق على مشنقة!

كان طلبي الأوّل من خالتي التي أسعدها اهتمامي، أن تبدأ بنقيع المُرِّيِّ، وهذا النقيع هو سرُّ الأسرار التي تعطي للطبيخ الأندلسي نكهته المميّزة. فاجأتْني خالتي بدقّة تلك الصناعة، وهي تشرح لي طريقة تحضيره من الشعير المطحون المنقّى من النخالة، والتي يُشترَط أن تبدأ في أواخر مارس الشمسي، وتستمرّ حتّى نهاية ماي.

- ما هذا، يا خالتي؟! ثلاثة شهور لتحضير نقيع المُرِّيِّ!

هزّت رأسها بثقة العارف وهي تشرح:

- هذا إذا أردتُ عمل الفاخر منه، ولكنني أستطيع ان أعلّمكَ صنفاً يُعمَل بيوم وليلة واحدة، ولكنه لا يبلغ الأصل.

- علّميني، يا خالتي، أرجوكِ.

قالت وقد اتّخذت هيئة معلّمة صارمة:

- اكتبْ عندكَ إذن: يُعجَن رطلان من دقيق شعير، مع نصف رطل من ملح، ويُطبَخ خُبزه حتّى يُقَمَّر، ثمّ يُكسَر الجميع ويُنقَع فيما يغمره من ماء حارّ يوماً وليلة، ثمّ يُصفّى، ويُؤخَذ رطل من زبيب، ومثله من خَرُّوْب، وشونيز، ورازيانج، وسِمْسِم، وأنيسون، من كلّ واحد أوقية، وقبضة من عود بَسْبَاس، وقليل ورق الأُتْرُج، ولبن صَنَوْبَر، وقليل من عُوده، فيُطبَخ الجميع، فيما يغمره من ماء عذب حتّى تخرج قوى الأدوية، ويُصفّى الماء إلى الماء الأوّل، ويُوضَع في قِدْر على نار حتّى يتكثّف ويصبح جاهزاً، وبإمكانكَ أن تضيفَه على الأصناف التي تحبّ.

وطلبتُ منها أن تعلّمني أيضاً صنف «التفايا الخضراء بالباذنجان»، وهذا الصنف هو الأَحَبّ إلى قلبي، وهنا قالت إنها ستُحضّره أمامي، ولن تُمليَهُ عليّ إملاءً، فكنتُ أرى ما تصنع وأكتب. وكنتُ مهتمّاً بعض أصناف الدجاج التي كانت تحضِّرها الخالة في صغري، فعلّمتني صنفَيْن، هما: **الكافورية**، وهي تطبخ باللَّيْم وتُطيَّب بماء الكافور، و**الزرباجية المحلّاة**، ولم تنسَ أن تعلّمني صنع بعض أصناف الحلواء التي لا تحتاج كبير عناء كـ **الجِلِجْلَانِيَّة البيضاء**، و**الحلواء الحمراء**، و**معقود العسل**. وكان يمكن أن أتعلّم أكثر لو أسعفني الوقت، ولكنني كنتُ قد استكملتُ ما أريد معرفته من **عمّي سيرخيو**، فلم يعد هنالك سبب موجب لبقائي في مَذْرِيْل أكثر من ذلك.

ما علِمتُهُ من عمّي سيرخيو في أُمسيّة السمر الأولى أن والدي هو الذي عرَّفه على **دُون خيرونيمو راميريز**، وأنهما، أي أبي والدُّوْن، كانا صديقَيْن مقرَّبَيْن جدّاً، وأن **دُون خيرونيمو** لطالما حاول إبعاد الشُّبهة عن والدي حين أراد **ديوان الإيمان** محاكمته.

لو لم أقرأ ملفّ محاكمة أمّي لصدّقتُهُ! وهذا ليس غريباً؛ فعمّي سيرخيو

يفتقد إلى الكثير من النباهة! وخطر لي أن أسأله عن محاولة ضمّ **دُون خيرونيمو** لجماعة **الشيخ الأشقر**، لكنني خشيتُ أن يثير السؤال ريبته، فهو الآن كاثوليكي مخلص للكنيسة والملك. ومع ذلك خاطرتُ وقلتُ:

- خالي بابلو أخبرني خلال حديث عن والدي، بأنكَ حاولتَ ضمَّ دُون خيرونيمو لجماعتكم، هل فعلتَ ذلك حقّاً؟

نظر إليّ وقد علت الدهشة محيّاه، وجحظت عيناه:

- خالكَ بابلو قال ذلك لكَ؟

- ومِن أين لي أن أعرف إذن؟

- نعم، كانت فكرة عابرة خطرت لي، لكن خالكَ حذرني من ذلك، وأخذ عهداً منّي على أن لا أفعل.

- هل أنتَ صاحب الفكرة أم هو دُون خيرنيمو؟

قال بحسم:

- هي فكرتي، ودُون خيرونيمو لا يعلم بالأمر، لا من قريب ولا من بعيد.

وأضاف وهو يتذكّر:

- بعد اختفاء والدكَ كان يزورني ويطمئنّ عليّ، وكما علمتُ منه، فقد حاول مساعدة أمّكَ، لكنه لم ينجح. وبعدها بشهور انتقل إلى مَدْرِيْل وانقطعت أخباره عنّي، حتّى أرسل لي خطاباً يدعوني فيه للعمل ترجماناً في القصر الملكي. يا له من صديق مخلص! لم ينسَ الأيّام التي جمعتْنا، رغم قصرها.

حين وجدتُهُ مقبِلاً على الحديث سألتُهُ:

- هل تعرف مَنْ وشى به؟

- حامت الشكوك حول رجل بعينه، لكننا لم نتيقّن من الأمر.

- مَنْ هو ذلك الرجل؟

- أخبرَنا **دُون خيرونيمو** أنه صديق حميم لوالدكَ من غَرْنَاطَة، كان يعمل مع ديوان الإيمان، هو الذي كشف لهم شخصيّته الحقيقية هنا في طُلَيْطِلَة.

لم أفهم كلام عمّي تماماً، فاسم والدي المثبَت في ملفّ المحاكمة هو ألونسو دي لونا، وهو اسمه الحقيقي الذي استخدمه في وثائق الزواج من أمّي، ولذلك سألتُهُ مشكّكاً:

- كيف غاب عنهم اسم والدي الحقيقي ألونسو دي لونا وهو مثبَت في عقد زواجه من أمّي؟

ضحك عمي سيرخيو ضحكة العارف ببواطن الأمور:

- ليس اسمه النصراني، بل اسمه العربي .. محمّد بن أحمد!

لفت نظري أن عمّي سيرخيو لا يعرف الكثير عن والدي قبل قدومه إلى طُلَيْطِلَة، فنقلتُ الحديث إلى مكان آخر عن عمله في القصر، ومزايا العمل ترجماناً في هذا الوقت بالذات، إلى أن غلبنا النعاس، ومضى كلّ إلى حجرته.

في الأُمسيّات التالية، وكانت أخبارها أقلّ من الأُمسيّة الأولى، علِمتُ أن دُون خيرونيمو أقام عدّة أعوام في مَدْرِيْل، وكان قريباً من القصر المَلَكِيّ

الذي كلّفه بسفارة إلى ملك فَرَانْصَة هنري الطيّب، وأن الملك أحبّه كثيراً وقرّبه إليه، وأقام إلى جانبه في بَرِيْش حصّة من الزمن، ومنها سافر في مهمّة إلى الفاتيكان، حيث انقطعت أخباره بعد ذلك.

من الأمور المستطرفة خلال تلك الأيّام، لقائي في إحدى الأُمسيّات بصديق من أصدقاء عمّي سيرخيو الكثر يُدعى **دُون رودريغو**، أخبرنا أن **ميغيل دي ثيربانتس**، وهو أديب ذاع صيته في عموم إشبانية بعد أن طبع بالمطبعة الحجرية قصة **العبقري الفارس دون كيخوطه دي لا مانشا**، نقل حكايته عن أندلسي أسماه **سيّد هاميت بن إنجيلي**. وقال إن **سيّد هاميت** هذا هو نفسه **الشيخ أحمد البَيَاسِيّ** المعروف عند الإشبان باسم **ميغيل دي لونا** صاحب **قصّة الملك رودريغو**.

وشرح لنا **دُون رودريغو** كيف قلب **ثيربانتس** اسم **أحمد** إلى **هاميت**، إذ إن القَشْتَالِيِّيْن لا يستطيعون لفظ حرف الألف في أوّل الأسماء، ولا لفظ حرف الدال في آخرها، ولذلك يحوّلون الألف إلى الحرف الثاني، ويقلبون الدال تاءً، فيصبح أحمد «هاميت». في تلك الأُمسيّة ضحكنا كثيراً من طرائق قلب الأسماء العربية إلى القَشْتالِيَّة.

حين أيقنتُ بأنني لن أُحصِّل أخباراً أخرى، عزمتُ على التوجّه إلى **الفاتيكان**، وقلتُ لعمّي سيرخيو إنني آمل أن أقابل دُون خيرونيمو هناك، لكي يخبرني مزيداً من الأخبار عن والدي، وقد يفتح لي نافذة أمل في العثور عليه!

تحمّس عمّي للفكرة، واستخلص لي صَكّاً من القصر الملكي، يسهّل تنقّلي حيث أشاء في بلاد إيطالية، وأعطاني مالاً أضفتُهُ إلى المال الذي

كان معي، وسافرتُ من مَرسَى بَلَنْثِيَة إلى روما على متن سفينة ملكية فارهة، وهناك رحتُ أسأل عن عمّي **دُون خيرونيمو راميريز**، فأخبرني موظّف في الفاتيكان بأنه قصد مدينة **البُنْدُقِيَّة** قبل قرابة الثلاثة شهور من حضوري، ولم يكن هذا الخبر صحيحاً كما علمتُ فيما بعد!

سِفر الدير
في ستة فصول

وهي: 'مهمة في بَريش'، و'أقفال المخطوطات ومفاتيحها'، و'البادري راميرو'، و'الراهب لازارو'، و'من الشك إلى اليقين'، و'الخروج من الدير'

مهمّة في بَرِيْش

ما إن خرجنا من مضيق **دردنيلوس**، الذي يسمّيه الأتراك **جنق قلعة بوغاز** ، حتّى بدأت سفينتنا بالانحراف غرباً باتّجاه مَرسَى مدينة أطناش، قاعدة بلاد الإغريقو، حيث نرسو يومَيْن أو ثلاثة، بحسب الرياح، نُقلع بعدها إلى البُنْدُقِيَّة، محطّتي البحرية الأخيرة.

اعترتْني غُمَّة شديدة وأنا أراقب سفينة فيروزة التي غربت بعيداً في أفق البحر المتكسّر. شعرتُ بأنني أرسلتُ في غامض البحر جزءاً من روحي. هذه الغُمَّة واحدة من أطوار الخوف التي خبرتُها طوال سنوات عمري، لا أعرف بماذا أُسمّيها.

في هذه الحياة؛ ثمّة أشياء لا يدرك معناها المرء إلّا إذا خاض غمارها. كثير من الناس لا يميّزون الخوف من الهلع. الهلع شعور عابر يشعر به الأطفال، ممّنْ لديهم آباء وأمّهات. هؤلاء تجدهم يصرخون باسم الأب أو الأمّ حين تفاجئهم قِطّة شرسة، أو كلب ضالّ، أو نقاط دماء من جرح عرضي. وحين يحضر أحد الوالدَيْن؛ يتبدّد الهلع في الحضن الدافئ وكأنه لم يكن. أمّا الخوف، فهو ظلٌّ يرافق يتيم الأبوَيْن أينما حلّ، ويتسلّل حتّى إلى مناماته. سأُسمّي هذه الغُمَّة فَقْدَاً. نعم، هو الفَقْد الذي استشعرتُهُ في نظرات خالتي إيزابيلا وهي تتحدّث عن ابنها ياغو الذي هاجر إلى مِخِيْكُو، ولم يكن لديها أمل برؤيته مرّة أخرى .. نظرات الفَقْد لا تشبه نظرات الشفقة التي رأيتُها في عينَيْها وهي تقبّلني حين غادرت قبل أكثر من عشر سنوات وعائلتها إلى مَذْرِيْل.

يعرف اليتيم جيّداً كيف يميّز الشفقة عن الحبّ أو الفَقْد، يشعر بها من نظرة خاطفة، من نبرة الصوت، من تمسيدة اليد على الشَّعْر، من حرارة القبلة.

استغرقت الرحلة من أطناش إلى البُنْدُقِيَّة نحو خمسة أيّام بلياليها، لم تفارق مخيِّلتي صورة فيروزة لحظة واحدة. وحين كان الشوق يشتدّ بي، كنتُ أُخرِج منديل عطر النَّارَدِيْن وأشتمّه وأنا مغمض عينَيّ، فتحضر صورتها من غياهب قبّة السماء، وتبقى معي ما بقي عطر النَّارَدِيْن.

المكان الأوّل الذي قصدتُهُ ساعة حلولي في البُنْدُقِيَّة كان مخزن البدر بن الحَكَم. واكتشفتُ أنه كان ينتظر وصولي على أحرّ من الجمر. حين رآني مقبلاً على مخزنه، هرع إليّ معانِقاً، ودعاني إلى غداء عامر من أسماك البحر وثماره.

قال وهو يقدّم لي قطعة من سمك السردينا المقلي، لما رأى من تردّدي في تناوُل الطعام:

- عوّدتُ نفسي على تناوُل السمك في هذه البلاد، يبقى السمك خيراً من الذبح غير الحلال.

قلتُ وأنا أتناول قطعة السمك وأمضغها:

- لقد أحلّ الله عزّ وجلّ لنا ذبح أهل الكتاب.

تبسّم ابن الحَكَم وقال:

- اسألني عنهم، لقد رأيتُهُم كيف يذبحون الدجاج، إنهم يكتفون بِلَيِّ عنقه وخنقه! واللحم، ما أدراكَ أنه ليس لحم خِنْزِير؟

- شيخنا أبو بكر بن العربي أفتى بجواز تناوُل طعامهم الذي يبيحونه لأنفسم أيّاً كان، بدليل قوله تعالى: {**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ**}.

قال وهو يمضغ لقمته:

- لن أدخل معكَ في جدال فقهي، ولكنني أظنّ أن ابن العربي مخطئ، هم يحلّون أكلَ الخِنْزِير، وهو محرّم عندنا بنصٍّ شرعيٍّ لا جدال فيه.

- في رأيي أن النصّ القرآني واضح: يُحلّ لنا أكل الخِنْزِير في موائدهم، ولا يُحلّه في موائدنا نحن.

تأمّلني ابن الحَكَم مليَّاً، ثمّ قال بتشكّك:

- لو لم يُوصِني بكَ الشيخان الأشقر، والشريف الأندلسي، لقلتُ إنكَ من الجماعة الملعونة جماعة الأُكَيْحِل الأندلسي، عليه من الله ما يستحقّ.

تبسّمتُ وأنا أقول:

- وإذا كنتُ منهم، ماذا ستفعل بي؟ هل ستذبحني مثل شاة؟ أم ستلوي عنقي مثل دجاجة؟

أشاح ابن الحَكَم بوجهه خجلاً، كأنه شعر بخطئه، وأردف قائلاً:

- المهمّ الآن هو ما أودّ إطلاعكَ عليه، لتُخبر به الشريف الأندلسي. فقد بلغني من أحد إخواننا في مَدْرِيل بوجود جاسوس للملك فيليب بن فيليب في قصر سلطان المؤمنين حفظه الله. وأظنّ أن مهمّة كشفه وحماية السلطان منه ينبغي أن يتولّاها واحد من جماعتنا.

قلتُ ساخراً:

- هل ترانا قادرين على حماية أنفسنا حتّى نتولّ حماية سلطان بني عثمان؟

قال متبرّماً:

- أنتَ ما زلتَ غِرّاً، لا تدرك ألاعيب الدول .. هذا الجاسوس مكلّف بمهمّة واحدة، وهي منع سلطان المؤمنين من تقديم يد العون لأُمّتنا .. هل فهمتَ الآن؟

- نعم، فهمتُ. وماذا أيضاً؟

- هناك خبر آخر لا يقلّ أهمِّيَّة، وهو أن الشاه عبّاس الكبير، ملك الفُرْس، أرسل سفارة إلى فيليب بن فيليب حول ترتيب حرب ضدّ سلطان المؤمنين على جبهتَيْن، في البحر من جانب الإشبان، وفي البرّ من جهة بلاد فارس، وأنهم سيطبقون الخناق عليه، ويقضون على دولته. هذا ما وصلني، ولذلك أرجو أن تحمل هذا الخبر عاجلاً إلى الشريف الأندلسي، لكي يتصرّف في الأمر وَفْق معرفته، وليس عن طريق موظّفي القصر. هل فهمتَ الآن؟

هززتُ برأسي هزّات خفيفة، فأردف:

- أرجو أن تُوصِل نصيحتي للشريف الأندلسي، لكي ينقلها إلى السلطان أحمد: الملك الفَرَانصَاوِيّ هنري الطيِّب هو الآمر الناهي على ملك إشبانية فيليب بن فيليب، وهو وحده مَنْ يستطيع أن يأمره بتسهيل خروج أبناء أمّتنا المسحوقة بأدنى كلفة من الخسائر. فالأخبار التي بدأت تصلني أن لصوص الفَرَانْصَاوِيِّيْن والجِنْوِيِّيْن والقَشْتَالِيِّيْن بدؤوا يستعدّون لنهب مهاجري الأندلس. وذلك بعد أن مرّت، من دون محاسبة، جرائم نهب طلائع المهاجرين من جانب ربابنة السفن المستأجرين لإيصالهم إلى مراسي بلاد المغرب، كما يبيّن كتاب ابن البَرْطَال الذي بعثتُ به إليكم.

- أرجو أن تعذر جهلي، يا سيّدي، لكنْ، ما الذي سيدفع سلطان المؤمنين لإرسال كتاب إلى ملك فَرَانْصَة؟ وما الذي يضمن أن يمتثل ملك فَرَانْصَة لطلبه؟

- خبر سفارة شاه الفُرْس، سوف يدفع السلطان لأن يُسرِع في إرسال سفارته إلى ملك فَرَانْصَة، لأن إشعال حرب في مياه بحر الروم مع أسطول العثمانيِّيْن، المرابط في الجزائر، من شأنه أن يضرّ بمصالح فَرَانْصَة، ويقوّي مركز إشبانية. ولا تنسَ أن ملك فَرَانْصَة يُبطِن إيمانه بدِيْن قَلْبِن، رغم أنه عاد إلى دِيْن الكاثوليك لمصلحة فَرَانْصَة، كما قال. مصلحة القَلْبِنيِّيْن مع المسلمين، وضدّ الكاثوليك .. ولذلك فإن أفضل خيار أمام السلطان في هذه الفترة، عقد هدنة مع الشاه عبّاس، ومنع وقوع الحرب البحرية، لأنها ستكون وبالاً على السلطنة.

لا أكتم عنكم سرّاً؛ فقد أثار ابن الحَكَم إعجابي الشديد لمعرفته الوثيقة بأمور الدول، ودهاليز سياساتها، كما أكبرتُ فيه هذا الدهاء الذي يستقرئ مصلحة أمّتنا بين نقائض الملوك، وهذا واحد من الدروس التي تعلّمتُها منه.

عدتُ إلى إِسْطَنْبُل على متن السفينة التي أقلَّتْني منها إلى البُنْدُقِيَّة، وفور وصولي توجَّهتُ إلى الشريف الأندلسي، وأحطتُهُ علماً بما طلب البدر بن الحَكَم أن أُوصلَه، فأخذني الشيخ من يدي وتوجّه بي إلى صديقه شيخ الإسلام محمّد أفندي خوجة زاده، وكان يجيد العربية كأحد أبنائها، فأعدتُ عليه كلّ ما سمعتُهُ من ابن الحَكَم، وقد سُرَّ كثيراً بما سمعه، إلى درجة أنه أهداني خلعة ثمينة، ونقدني خمسين قطعة ذهبية، وطلب منّي أن ألزم بيتي ريثما يَرِدُني خبر منه.

في فترة الانتظار، كان الشريف الأندلسي يزورني كلّ يوم، لدى عودتنا من

صلاة الظهر، نتذاكر فيما ينبغي علينا فعله في هذه الأيّام العصيبة، وكيف يمكن أن نساعد أبناء أمّتنا. وكان رأي الشيخ أن لا سبيل لنا سوى سلطان المؤمنين، فهو وحده القادر بعد أن خذلنا سلاطين المسلمين الآخرين.

في إحدى هذه الزيارات سألتُهُ عن الطبيب ابن أبي العاص، فأخبرني بأنه علم عن توجّهه إلى بلاد الأناضول منذ مدّة، لكي يبارك لصديقه القاضي إسعاد أفندي، شقيق شيخ الإسلام، بتعيينه قاضي قضاة تلك الناحية من البلاد.

شجّعني هذا الخبر على معاودة المحاولة للوصول إلى الطابق الخامس في برج كَلَطَه، فلربّما استطعتُ أن أكشف شيئاً يُوصِلني إلى يقين يقطع شكوكي بهذا الرجل الغريب. وفي الليلة نفسها بعد صلاة العشاء صعدتُ الشارع نحو البرج، ودرتُ حوله، كما هي العادة. وكم كانت المفاجأة مخيّبة لي، فقد كان ثمّة ضوء منبعث من النافذة، وهذا يعني أن ابن ابي العاص هنا، أو ربّما هو شخص على صلة وثيقة به. عدتُ إلى البيت، وقرّرتُ أن أبقى سهرانَ، أراقب بيته من النافذة المطلّة على الزقاق، لكي أتأكّد من عودته إلى بيته، إن كان هو حقّاً مَنْ أضاء السراج في البرج. ومن أجل ذلك فاتتْني صلاة الفجر، ثمّ طلعت شمس الصباح ولم أره عائداً إلى بيته!

وأخيراً؛ وبعد أن أخذ منّي التعب مأخذاً، تمدّدتُ على الأريكة ساهم الفكر، تتقاذفني الهواجس والهموم، بين وجه فيروزة الحبيب، ووجه الطبيب ابن أبي العاص المخيف، وإذ بطَرْقات قوية على الباب أثارت ريبتي، فهرعت إلى النافذة لأرى الشريف الأندلسي يدعوني للنزول من فوري، ومرافقته إلى شيخ الإسلام.

انتظرنا نحو ساعة في بهو الاستقبال حتّى سُمِح لنا بالدخول، وكم

كان مفاجئاً لي أن أصادف الطبيب ابن أبي العاص خارجاً من المكتب، في اللحظة التي دخلتُ فيها مع الشريف الأندلسي. اكتفينا بابتسامات مجاملة خاطفة، بينما كانت نظراته نحوي غريبة، كأنه كان يتحقّق من شيء ما.

أخبرنا شيخ الإسلام بأنه قابل السلطان أكثر من مرّة في الأيّام الأخيرة، وكلّفه بأن يتولّى هو شخصياً إرسال السفارة إلى ملك فَرَانْصَة، وزوّده بكتاب عليه خاتمه، ترجمه إلى الفَرَانْصَاوِيَّة الطبيب ابن أبي العاص، كونه من العارفين بلغة القوم. وقد كلّفني شيخ الإسلام بمرافقة آغات البعثة بصفتي مترجماً، ونقدني خمسين قطعة ذهبية أخرى، وعيَّن سفرنا على متن أوّل سفينة تتوجّه إلى البُنْدُقِيَّة، ومن هناك نسافر في طريق البرّ إلى بَرِيْش.

في الحقيقة أردتُ أن أحذّر شيخ الإسلام من ابن أبي العاص هذا، ولكنني أحجمتُ في اللحظة الأخيرة، حين رأيتُ الشريف الأندلسي يشيد به، ويمتدح سعة معارفة وإخلاصه، وتفانيه. وحين غادرنا؛ أبديتُ للشيخ امتعاضي من تكليف الطبيب ابن أبي العاص بترجمة هذا الكتاب، فهو رجل غامض، لا يكاد يعرفه أحد، وقد يكون هو الجاسوس الذي حذّرنا منه البدر بن الحَكَم.

قهقه الشريف الأندلسي ضاحكاً من مخاوفي، ثمّ قال وهو يربِّت على كتفي:

- {**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**}. **صدق الله العظيم**.

- ربّما سوء الظنّ من حُسن الفِطَن، يا شيخي، وشيخنا **القُرْطُبِيّ** يقول: «لَا حَرَجَ فِي الظَّنِّ القَبِيحِ بِمَنْ ظَاهِرُهُ القُبْحُ».

رمقني **الشريف الأندلسي** بنظرة «ما وراءكَ، يا فتى؟»، فقلتُ:

- قلبي لم يرتح له.

- أمّا أنا، فقلبي مرتاح، وصدري منشرح له.

أمضيتُ سحابة اليوم الذي سبق موعد السفر في بيت **الشريف الأندلسي**، نبحث مسألة بقائي في بَرِيْش بعد إنجاز المهمّة، فقد أخبرني الشيخ أن كُتُب عدّة وصلتْهُ من بعض وجوه أمّتنا الأندلسية، وخصوصاً أولئك النازلين في فاس ومُرَاكُش، وأنهم سوف يوفدون مبعوثاً عنهم إلى بَرِيْش لبحث تسهيل انتقال المهاجرين إلى موانئ فَرَانْصَة، ومنها إلى الإيالات العربية التابعة لسلطنة بني عثمان مثل الجزائر، وتونس، ومصر، وطرابلس، وغيرها.

وفي اليوم الموعود أقلّتْنا سفينة غليون إلى البُنْدُقِيَّة في عشرة أيّام، وبعد أن مكثنا فيها يومَيْن اشترينا خيولاً فارهة للركوب، وبغالاً لحمل الأمتعة، واستأجرنا عدداً من الخدم، وسافرنا إلى بَرِيْش.

وممّا منح قافلتنا عناية مضاعفة من جانب قنصل مملكة فَرَانْصَة؛ أن عربتَيْن مخصوصتَيْن لامرأتَيْن من خواصّ **الملكة ماريا التُّوسْكَانِيّة**، كانتا تتقدّمانا في المسير إلى بَرِيْش، ترافقهما سريّة من الحرس الملكي موكَّلة بحمايتهما.

كانت رحلة ممتعة رغم طولها، فقد عبرنا بلاداً شتّى، وبتنا ليالينا في خيام حملناها معنا، وكنّا نشتري طعامنا وشرابنا من الأسواق التي نصادفها في طريقنا. وكان موكبنا الكبير المكوّن من عربتَي المرأتَيْن الغامضتَيْن، وجماعة الحرس الملكي، وقافلتنا التي تجاوز عدد رواحلها العشرين راحلة،

مَدعَاة لتجمّع الناس في الشوارع والأزقّة، وعلى وجوههم علامات الذهول والتعجّب من هندامنا الشرقي الغريب.

وأخيراً وبعد مسير ثلاثة أسابيع وصلنا بَرِيْش، فذهبت المرأتان نحو القصر الملكي، ونزلنا نحن، امتثالاً لنصيحة البدر بن الحَكَم، في نزل يديره رجل من أبناء أمّتنا يُدعى **ميغيل إيرناندث**، واسمه العربي **محمّد بن حمدان**، وكانت نِعْمَ النصيحة.

في اليوم الثاني على وصولنا ذهبتُ إلى القصر الملكي، ولم يكن بعيداً عن النُّزُل، ووجدتُ وكيل التشريفات على علم بخبرنا ومحلّ نزولنا، فقال لي:

- انتظروا منّي خبراً يأتيكم في أقرب وقت.

ولم يمض يوم واحد حتّى أتى بنفسه إلى النُّزُل، وأخبرنا أن الملك الطيّب هنري ينتظرنا في صباح الغد، فتوجّهنا إليه في الموعد المضروب، وسلّمناه الكتاب ومعه الهدايا والخلعة السلطانية، فقبلها بكلّ سرور، وقرأ الكتاب بحضورنا، وفيه إعلام من السلطان أحمد بأن الأندلسيِّيْن في أيّ مكان كانوا، وحيثما حلّوا، هم من رعايا السلطنة العثمانية. وقال **الملك هنري** إنه أخذ علماً بهذا الإعلام، وسيصل جوابه مع سفارة سيرسلها إلى إِسْطَنْبُل في أقرب وقت.

أمضيتُ ورفاقي الأتراك في **بَرِيْش** أيّاماً عدّة، يصحبنا في حِلّنا وترحالنا طبيب فَرَانْصَاوِيّ يُدعى **إتيان أُبِرت** يعمل في بلاط الملك، زعم أنه يجيد العربية، وعندما امتحنتُهُ ببعض الأمور تبيّن لي جهله.

وبينما كنتُ مشغولاً بخوض جدالات مع أُبِرت، كان حسين آغا، كبير البعثة ورئيسها، قد شرع بكتابة موجز لوقائع الرحلة، ضمَّنه وصفاً للمدينة

وما تحتويه من عجائب، بغية تقديمه للسلطان أحمد. وبعد عشرة أيّام عادت البعثة إلى البُنْدُقِيَّة من دوني، فيما أفرد لي محمّد بن حمدان حجرة مطلّة على نهر كبير غزير الدفق، تطلّ عليه أبراج وحصون، يسمّونه **السين**، انتظاراً لوصول **أحمد بن قاسم الحجري** القادم من مُرَاكُش. ومن غريب الاتّفاقات التي وقعت في أثناء مقامي في بَرِيْش أن متعصّباً كاثوليكياً مجنوناً اغتال **الملك هنري الطيّب** في أحد الشوارع القريبة من النُّزُل، فكان ذلك مَدعَاة لمكوثي فيه أشبه بسجين.

أقفال المخطوطات ومفاتيحها

مضى شهران ولم يصل خبر من أحمد بن قاسم الحجري، وطوال مدّة انتظاري كان يتردّد عليٍّ في النُّزُل المتطبّب إتيان أُبِرت السالف ذِكْره. وقد اقترح عليّ، حين رأى ضيقي من الانتظار، أن أقرأ عليه إحدى المخطوطات العربية الكثيرة التي جمعها في رحلاته إلى مُرَاكُش، وفاس، وتِلِمْسَان. وقد وقع اختياره على مصنف **الجامع لمفردات الأغذية والأدوية** لابن البيطار الأندلسي، وهو سِفْر كبير يشتمل على مفردات غريبة تحتاج عطّاراً متمرّساً، كي يفهم الكثير منها؛ وسرعان ما سئمتُ القراءة وأسئلته المكرورة، حول أمور كنتُ أظنّه عارفاً بها. وبدأ هاجس العودة إلى **إسْطَنْبُل** يلحّ عليَّ، وزاد في إلحاحه عثوري بين ثيابي على منديل فيروزة المعطّر بالنَّارَدِيْن.

أعلمتُ محمّداً بن حمدان بأنني عازم على الرحيل في أقرب وقت، وكان أُبِرت جالساً معنا حينها، فلم يُبدِ رأياً، وانسلّ مغادِراً ونحن منشغلان بالحديث. وفي اليوم الموعود ارتديتُ ثياب السفر الفرنجية، وودّعتُ محمّداً بن حمدان، وأخذتُ مكاني في قافلة متوجّهة إلى مدينة روان، ومنها إلى مَرسَى البركة على المحيط العظيم، ومن هناك على متن سفينة غليون وجهتها النهائية جِنْوَة.

ما إن تجاوزنا **بَرِيْش** نحو الغرب، ودخلنا في دَغَل غاصٍّ بأشجار الكستناء المعمّرة، حتّى عرض لنا فارسان، معهما حصان ثالث، أوقفا القافلة، ونادياني باسمي العربي: **عيسى بن محمّد!**

نزلتُ عن الراحلة وأنا في غاية الاستهجان من معرفتهم اسمي العربي، بينما انبرى المسافرون يزجون آيات الشكر للفارسَيْن اللذين كشفا خدعتي لهم بملابسي الفرنجية، وأوراقي الإشبانية التي تحمل اسم خيسوس غونثالث!

لم يردّ الفارسان على عبارات الامتنان، واكتفيا بإشارة للقائد، الذي أعطاهما أمتعتي، قبل أن تواصل القافلة سيرها على وقع شتائم المسافرين وتوعّدهم لي بالثبور وعظائم الأمور.

طلب منّ الفارسان أن أركب الحصان الشاغر، وعادا بي إلى المدينة. والحقّ أنني لم أشعر بأدنى خوف أو قلق من هذا «الاختطاف»، إذ كنتُ خليَّ البال من أن يجرؤ أحد على أذيّتي بعد إعلام السلطان أحمد لملك فَرَانْصَة أننا، نحن الأندلسيِّيْن، أصبحنا من رعايا سلطنته، وتحت وصايته.

عبرنا قنطرة صغيرة توصل إلى بَوَّابة دَيْر مُسوَّر شاهق الأبراج، محاط بالماء من جهاته الأربع، على اسم القِدِّيْس جِرمِن. جذب أحد الفارسَيْن عوداً مربوطاً بحبل يتّصل بناقوس صغير، معلّق أعلى البَوَّابة، راح يقرعه بقوّة. وبعد هُنَيْهَة من الوقت انفتحت طاقة صغيرة، أطلّ منها راهب تعرّف إلى الرجلَيْن بسرعة، وفتح الباب من فوره.

عبرنا البَوَّابة على متون أحصنتنا، وسرنا نحو بَوَّابة داخلية تقع إلى الشمال من مبنى الدَّيْر الكبير. كان هناك راهب ينتظر وصولنا عند درج صغير. طلب منّي أحد الفارسَيْن أن أترجّل عن صهوة الحصان، فترجلت بسرعة، وحين رآني واقفاً قال للراهب باللسان الفَرَانْصَاوِي:

- ها هو السيّد **عيسى بن محمّد**.

ثمّ ألقى عليَّ أمتعتي ومضى هو وصاحبه عائدَيْن نحو البَوَّابة الخارجية.

أشار لي الراهب بأن أتبعه إلى قاعة مقبوَّة، شاهقة الارتفاع، شحيحة الضوء، وطلب منّي، وهو يغادر، أن أجلس على كرسيٍّ خشبيٍّ، وأنتظر.

مرّت دقائق تميّزت خلالها ما في القاعة جيّداً. غالبها مخطوطات مجلّدة بجِلْد سميك، مصفوفة على مناضد وكراسٍ خشبية من تلك التي يجلس عليها المُصلُّون في الكنائس.

لفت نظري وجود حلقتَيْن من الحديد مثبَّتَتَيْن بإحكام في جِلْدتيَ كلّ مخطوط، تُداخلهما سلسلة حديد تحوز على حلقات المخطوطات جميعها. للمرّة الأولى أرى شيئاً مثل هذا! ألم يجدوا سبيلاً آخر لحفظ المخطوطات من السرقة غير تكبيلها بالأصفاد؟!

حاولتُ عبثاً فتح المخطوط الأوّل. كانت السلسلة تضغط بقوّة على حلقتَيْه المتقابلتَيْن؛ كأن قفلاً قوياً يُطبِق عليهما. انتقلتُ إلى المخطوط الثاني؛ فكان مثل الأوّل. تابعتُ السلسلة إلى نهايتها، وإذ بها تحوز على عشرين مخطوطاً، ضُرب عليها جميعاً قفل حديدي، نُقش عليه رَقْم من أرقام اللاطين. في القاعة أكثر من مائة قفل، وهذا يعني أن عدد المخطوطات يتجاوز الألفَي مخطوط.

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا منشغل بِعَدِّ المخطوطات ومقارنة أحجامها، إنما يمكن أن أخمّن بأن وقتاً طويلاً مرّ، إذ إن الشمس مالت عن النافذة الوحيدة ذات الزجاج المعشّق بالألوان.

وبينما أنا منشغل بِعَدِّ المخطوطات؛ تناهى إليّ صوت رخيم من مدخل القاعة يقول بالعربية:

- أهلاً بعيسى بن محمّد!

عرفتُهُ حتّى قبل أن ألتفت نحوه. كان صوت المتطبّب أُبرت.

أضاف وهو يقترب منّي:

- أرجو أن تعذرني على طريقة استضافتكَ .. لا شكّ أنها كانت مزعجة! والحقّ أنكَ لم تترك لي خياراً آخر.

كان الراهب الذي أدخلني إلى القاعة يقف خلفه مُتصنِّعاً اللامبالاة بما يدور بيننا من حديث، نصفه بالعربية، ونصفه الآخر بالفَرَانْصَاوِيَّة.

قلتُ بيأس:

- أكان لا بدّ من ذلك؟

- أجل، للأسف! كما ترى، هذه المخطوطات يلزمها تصنيف وتلخيص، فقد أنقذها الرهبان من الحَرْق، ولم أعلم بأمرها إلّا قبل شهور قليلة.

قبضتُ على جِلْد مخطوط منها، وحاولتُ أن أفتحه أمامه وأنا أقول:

- أنتَ مَنْ أمر بتكبيلها هكذا؟

تبسّم بخبث، وهو ينظر إلى الراهب الواقف خلفه:

- لا؛ لستُ أنا؛ بل هو صاحب السعادة رئيس الدَّيْر، والمفاتيح جميعها بحوزته!

- وكم سأمكث هنا؟

- حتّى تنتهي، وعندها سوف يدفعون لكَ أجركَ، ويُخلون سبيلكَ.

وقبل أن يسمع جوابي، قدّم لي ورقة من الكَاغِد الفاخر، مكتوب عليها بالفَرَانْصَاوِيَّة عقد اتّفاق بيني وبين رئيس الدَّيْر، ينصّ على قيامي بتصنيف وتلخيص المخطوطات العربية الموجودة في هذه القاعة، وترجمة ما يرتؤونه

منها، مقابل مبلغ من المال، يُعطى لي في نهاية المهمّة الموكَلة لي، يُحسَب من إجمالي العمل، ويُتَّفق عليه في وقته. ومن أجل القيام بهذه المهمّة على أحسن وجه؛ فقد خصّصوا لي حجرة لائقة من حجرات الدَّيْر، وطعاماً وشراباً وكسوة طوال مدّة عملي، ومن دون ذِكْر أجل محدّد لنهاية هذا العقد. وقد وضعوا عليّ جملة من الشروط المجحفة، أهمّها أنني لا أستطيع أن أغادر قبل إنجاز العمل كاملاً. وإذا حاولتُ الفِرَار وقبضوا عليّ خارج الدَّيْر، فعند ذلك يحقّ لهم أن يبيعوني في سوق النخاسة. وفي نهاية العقد إمضاء وختم رئيس الدَّيْر.

قلتُ لأُبِرت:

- وإذا لم أقبل؛ ماذا ستفعلون بي؟

راح يفرك يدَيْه ببطء شديد، ثمّ قال وقد ارتسمت على وجهه نظرة تشفٍّ:

- أظنّكَ أعقل من أن ترفض. الرفض يماثل محاولة الفِرَار.

ثمّ تقدّم نحو إحدى السلاسل وراح يتفحص قفلها:

- عندها سنبيعكَ في سوق النخاسة.

لم أدرك لحظتها سبب انحرافه عنّي بهذه الطريقة، فقد بدا لي صديقاً ونحن نتجوّل في بَرِيْش بصحبة بعثة السفارة. ربّما تعليقاتي الساخرة من أسئلته، حين كنتُ أترجم له بعض عبارات مخطوط ابن البيطار، هي السبب في هذا التشفّي، وربّما هو سبب آخر أجهله الآن، فأيقنتُ لحظتها أنني وقعتُ في شَرَكٍ لا فِكَاك منه سوى بإمضاء العقد، وتنفيذه كاملاً، من دون نقصان.

خُصِّصت لي حجرة في الطبقة الثانية من مبنى منام الرهبان، وهي ذات نافذة خشبية عالية، مزيّنة بالزجاج المعشّق ذي الألوان المختلفة، تطلّ على زاوية من زوايا سور الدَّيْر، منظرها كئيب، على الرغم من أنهم زرعوها بشجيرات زينة تحيط بمرج أخضر مزدهر بمختلف ألوان الزهور.

يومها كنتُ أحسب زاوية السور وارتفاعه الشاهق هما سبب كآبة المنظر، أمّا اليوم، فأظنّ أن الكآبة كانت نابعةً من يأسي، فقد تتزوّج فيروزة في غيبتي التي لا أعرف متى ستنتهي، وأفقدها إلى الأبد.

إطلالة النافذة على سقوف الأبنية الممتدّة بعيداً نحو غروب الشمس كانت تدعو للكآبة أيضاً. تنقلب السقوف الرمادية إلى سوداء عند هطول زخّات المطر. ليس هناك أكثر بؤساً من تجاوُرِ اللونَيْن الرمادي والأخضر، عند ذلك يستحوذ الرمادي على العين ويخدعها، فترى الأخضر رمادياً! وحده الأحمر يقهر الرمادي. حين يحضر الأحمر تخجل الألوان جميعاً، وتتوارى خلفه.

في صبيحة اليوم الأوّل حضر الراهب نفسه الذي كان في انتظاري لحظة وصولي إلى الدَّيْر. قرع الباب بهدوء، وحين فتحتُ له، قال إن علينا أن نتوجّه إلى مكتب رئيس الدَّيْر، كي نجلب المفتاح.

ارتديتُ ثوبي التركي الذي أهدانيه **شيخ الإسلام**، وسرتُ خلفه حاسر الرأس. هبط الدرج الخشبي القلق مسرِعاً، وأنا ألهث خلفه. بدا لي أكثر نحافة، ورشاقة، ونشاطاً ممّا كنتُ أظنّ. للدرج صرير يُنذِر بأنه على وشك التحطّم. تنفّستُ براحة حين فارقت قدمي الدرجة الأخيرة. ردهة المبنى طويلة، شاهقة الارتفاع، شحيحة الضوء، تعبق فيها رائحة العطن التي ذكّرتني برائحة أقبية الأندلسيِّيْن في طُلَيْطِلَة!

تأمّلني وكيل رئيس الدَّيْر مليّاً؛ قبل أن يفتح سجلاً فيه زيج بعشرين صفّاً، في كلّ صفّ خمسة حقول، واحد للتأريخ، وآخر للوقت، وثالث لرَقْم المفتاح، ورابع لإمضاء الاستلام، والخامس لإمضاء التسليم عند نهاية اليوم.

ما زلتُ أذكر المفتاح الأوّل، يومها واجهتُ صعوبة كبيرة في تخليص السلسلة من القفل الذي غلّفتْهُ الرطوبة بطبقة رقيقة من الصدأ. نصحني الراهب بلسان قَشْتَاليٍّ؛ أن أحاول تقريب المخطوطات من بعضها البعض، حتّى أستطيع تخليص السلسلة من القفل. كانت نصحية ثمينة شكرتُهُ عليها، فهزّ رأسه وتابع بالقَشْتَاليَّة:

- هذه المخطوطات نقلناها قبل عامَيْن من إشبانية أنا وشقيقي إلى هذا الدَّيْر.

سألتُهُ بتِلْقَائِيَّة:

- أنتَ إشباني؟

تردّد قليلاً قبل أن يجيب:

- نعم.

ثمّ أردف:

- انتقيناها من بين عشرات ألوف المخطوطات التي وُزّعت على أصحاب الأفران.

سألتُهُ:

- كيف انتقيتُمُوها؟ هل تُتقنون العربية؟

- نعم، شقيقي يتقنها، ولكنْ، ليس إلى درجة قراءة مصنَّف في الأدب أو الفلسفة.

- وأنتَ؟

- أنا! ما شأنكَ بي؟

- لا شيء؛ محض فضول منّي أرجو أن تعذرني عليه، فقط أردتُ أن أسأل إن كنتُم عرباً في الأصل؟

نظر إليّ بريبة وقال متبرّماً:

- ربّما يكون أصلنا عربي، ولكننا الآن إشبان كاثوليك كما ترى!

ثمّ ركّز نظرته إلى عينَيّ، وقال بثقة العارف:

- أنتَ من طُلَيْطِلَة، أليس كذلك؟

فاجأني سؤاله:

- نعم! كيف عرفتَ؟

قال وقد افترّ ثغره عن ابتسامة خفيفة:

- صحيح أنني وُلدتُ في سَرَقُسْطَة، وقضيتُ فيها طفولتي وشبابي، ولكنني عشتُ الشطر الأكبر من حياتي في طُلَيْطِلَة، وأعرف جيّداً لهجة التُّطَيْلِيِّيْن عند تحدّثهم بالقَشْتَالِيَّة.

صمت قليلاً وعاد للتحديق مجدّداً في عينَيَّ وهو يقول:

- مَنْ أتى بكَ إلى هنا؟

باغتني سؤاله، فقد كنتُ أظنّه عارفاً بكلّ شيء، فخرج الاسم من فمي على دفعتَيْن:

- أُ .. أُبِرت.

هزّ رأسه هزّات خفيفة، ثمّ قال:

- كنتُ متأكّداً من ذلك! منذ خمسة شهور وهو يتردّد على رئيس الدَّيْر محاوِلاً أن يستحوذ على المخطوطات بدعوى أن أحداً لن يفهمها غيره، ولكن الموضوع أكبر منه كما يبدو.

ثمّ أردف؛ وهو يطوف بين صفوف المخطوطات:

- ثمّة خلاف بين كبار الرهبان، هل يحتفظون بها جميعاً أم ينتقون منها المفيد؟ الرأي الغالب أنهم سيُبقون على كُتُب العلوم الدنيوية، كالطبّ، والجبر، والهندسة، وعلم الحِيَل، والبصريات، ويتخلّصون من كُتُب الدِّيْن والأدب واللغة والفلسفة.

قال كلمته الأخيرة، ثمّ توقّف وتابع قائلاً:

- لو كنّا نعلم أن الموضوع سيتعقّد إلى هذا الحَدِّ، لَمَا تكبّدنا عناءها.

- لماذا جلبتُمُوها إلى هنا؟

قال بشيء من الضجر:

- تربط أخي صداقة قوية بعائلة **الملكة ماريا في فلورنسا**، وهي التي نصحتْهُ بأن يقدّم هذه المخطوطات للملك هنري هدية، لأنه كان عازماً على تأسيس مكتبة كبرى، تنافس مكتبة الفاتيكان. ولكنْ، للأسف الشديد، لم يكن المقرّ الذي اختاره الملك مؤقّتاً للمكتبة، وهو دَيْر كورديليريس للرهبنة

الفرنسيسكانية، مهيّئاً لاستقبال هذا العدد الضخم من المخطوطات، فأمر بإيداعها هنا في دَيْر البندكتيِّيْن هذا.

ثمّة أمور غامضة لم أفهمها في القصّة، فسألتُهُ:

- أرجو أن تعذر جهلي؛ فأنا لم أفهم حتّى الآن لماذا أنتَ باق هنا؟ لماذا لم تعد إلى إشبانية طالما أنكَ سلّمتَ المخطوطات؟

نظر إليَّ بحِدّة، ثمّ اقترب وقال هامساً في أُذُنِي:

- أنا محتجز هنا مثلكَ!

- مثلي؟

- أجل! رئيس الدَّيْر قايض شقيقي على أن أبقى هنا مع المخطوطات بدلاً منه ريثما يبتُّون في أمرها، وها قد مضى أكثر من عام، وأنا أنتظر حضور شقيقي أو شخصاً مثلكَ يفهم العربية جيّداً، لكي يصنّفها وأنتهي من هذا العذاب.

وجدتُني أسأله بتِلْقَائِيَّة:

- وشقيقكَ أين ذهب؟ ولماذا ترككَ هنا؟

- هذا الأمر يكاد يُفقِدني صوابي، فقد ذهب منذ أكثر من عام إلى الفاتيكان، ولم يعد. ولكن؛ ويا لحظّي السيِّء، فقد علمتُ أخيراً أنه يعيش الآن في إِسْطَنْبُل، بعد أن اعتنق الإسلام واتّخذ اسماً عربياً.

قال كلمته الأخيرة، ثمّ صمت لحظة، فتغيّرت نظرته، وبدا القلق عليه، كأنه أرتكب خطأً كبيراً. فأشار إلى المخطوطات:

- عليكَ أن تُنجِز المهمّة في أسرع وقت من أجلكَ ومن أجلي .. أريد أن أغادر هذا المكان كما تريد أنتَ .. هل اتّفقنا؟

- نعم، هذا ما أريده بالضبط.

استدار مغادِراً، فهتفتُ به:

- ولكنْ، لم تخبرني باسمكَ، أيُّها الراهب.

توقّف لحظة، ثمّ التفت نحوي وهو يقول:

- اعذرني، أيُّها الشابّ، نسيتُ أن أقدّم لكَ نفسي. اسمي البادري راميرو. وأنتَ، ما اسمكَ النصرانيّ؟

- خيسوس.

هزّ رأسه عدّة مرّات، وقبل أن يعلّق على اسمي، سألتُهُ:

- وشقيقكَ، ما اسمه؟

تأمّلني للحظة، ثمّ قال بنزق:

- أنتَ تكثر الأسئلة، أيُّها الشابّ .. عليكَ بإنجاز العمل سريعاً لكي تغادر .. هل فهمتَ؟ اهتمّ بهذه المخطوطات فقط.

قلتُ مباغِتاً كأنني لم أسمع نصيحته:

- هل يُدعى دُون خيرونيمو؟

اتّسعت عيناه دهشة، فأردفتُ:

- راميرز.

وهنا تقدّم نحوي وقبض عليّ من تلابيبي وجذبني نحوه بقوّة وهو يقول:

- من أين تعرف دُون خيرونيمو؟

قلتُ وقد حافظتُ على ثباتي:

- لا أعرفه، ولكني سمعتُ اسمه أكثر من مرّة.

- ماذا سمعتَ؟ وممّنْ؟

- أشياء متناقضة، أحدهم شاهده على متن سفينة متوجّهة إلى إِسْطَنْبُل، وآخر قال إن قرصاناً من بُونَة اختطفه وباعه في إِسْطَنْبُل.

- وماذا سمعتَ أيضاً؟

- لا شيء آخر ..

نظر إلى عيني مباشرة محاوِلاً سبر غوري، ثمّ هدأت ثائرته، وترك ياقتي وقال:

- صحيح؛ سمعنا أن **قرصاناً بربرياً** اختطفه قبالة رومة، وباعه في **إِسْطَنْبُل**، هو الآن في إِسْطَنْبُل، هذا ما تأكّدنا منه.

ثمّ أردف:

- لكنَّ ما يثير قلقي هو رفضه الفدية التي عرضها **مبعوث فَرَانْصَة**، وإصراره على البقاء في إِسْطَنْبُل بعد اعتناقه الإسلام.

عندها تشجّعتُ وسألتُ:

- هل هو طبيب؟

لم يجبْ عن سؤالي، بل راح ينتظر ما سأقوله، فأردفتُ:

- وهل اتّخذ اسم **محمّد بن أبي العاص**؟

نظر إليّ مليّاً، ثمّ سحبني من يدي:

- تعال لنجلس .. يبدو أن الحديث بيننا سيطول.

جلسنا على كرسيَّيْن متقابلَيْن في إحدى زوايا القاعة، وتحدّثنا طويلاً. وإن شئتُم الدقّة؛ كنتُ أجيب عن أسئلته القصيرة، والتي تقتضي إجابات مستفيضة.. أخبرتُهُ بأنني كنتُ في إِسْطَنْبُل، والتقيتُ بطبيب أندلسي يُدعى ابن أبي العاص، وأن لديّ شكوكاً كبيرة بأن يكون هو نفسه **دُون خيرونيمو راميريز**. فأكّد لي أنه لا يعرف الاسم العربي لشقيقه بعد إعلان إسلامه، رغم أنه لا يستبعد أن يكون قد قدّم نفسه كطبيب، كونه تعلّم مبادئ الطبّ في شبابه. ووجدتُني أحدّثه عن فيروزة وخشيتي من فقدها إن طال مكوثي في الدَّيْر، فكان هذا الخبر مبعث تفاؤل كبير بالنسبة إليه، إذ أدرك أن توقي للخلاص يفوق توقه.

البادري راميرو

لم يدر بيني وبين البادري راميرو أيّ حديث بعد ذلك، كان يكتفي باصطحابي إلى مكتب الوكيل مرّتَيْن في اليوم، الأولى صباحاً لأستلم المفتاح، والثانية مع غروب الشمس لتسليمه. وبين الحين والآخر كان يدخل إلى القاعة؛ يتأمّل صفوف المخطوطات، ويقارن بين المنجَز وما ينتظر الإنجاز، فيهزّ رأسه هزّات حفيفة، ثمّ ينصرف بهدوء.

والحقّ أنني لم أقف على سبب تحفّظ **الأب راميرو** وزهده في الكلام. كان من العسير عليّ أن أعرف ما كان يدور في خَلَده، كأن الكلام خطيئة يخشى أن يقترفها، أو ضوءاً كاشفاً يخاف أن يفضحه! ولكنْ، بعد شهور قليلة من رؤيته بشكل يومي، بتُّ قادراً على فَهْم قسماته، وحركات يدَيْه، وقراءة نظراته التي كان يقول فيها كلّ شيء، من إشعاع السعادة وهو يحصي حقول الزيج الممتلئة بإمضائي، إلى سحابة الغضب المتلبّدة بين عينَيْه بسبب إبطائي في الإنجاز لسبب يخصّني ولا يفهمه. أمّا أقصى درجات الرضا، فهي تلويحة بيمناه وهو يتوجّه إلى مخدعه من دون التفاتة إلى الوراء.

كنتُ أراجع المخطوط صفحة صفحة، وألخّص بلسان اللاطين، على أوراق سميكة لا يتجاوز حجمها راحة الكفّ وصف كلّ مخطوط وفحواه، ثمّ أصنّفه في واحد من الأقسام العديدة التي اقترحتُها، وهي: قسم للطبّ وعلم الحِيَل والجبر، وقسم ثانٍ للخيماء، وقسم ثالث للفقه والفِرَق المذهبية، ورابع للتاريخ والتراجم، وخامس للغة والأدب.

في بعض الأحايين كنتُ أعيد طلب أحد المفاتيح أكثر من مرّة في الأسبوع الواحد، بسبب صعوبة قراءة حروف بعض المخطوطات، إذ إنني لم أكن معتاداً على أشكال الحروف المشرقية، وعلى الأخصّ منها حروف الجيم، والحاء، والخاء، والراء، والزاي، والسين، والشين، والتاء المربوطة وهاء آخر الكلمات. لقد احتجتُ أيّاماً عدّة لأدرك أن المَدَّة بين حرفيَ اللام والراء هي حرف سين في كلمة «السرّ»، وأن الانحناءة القصيرة المائلة، في نهاية المَدَّة الطويلة، هي تاء مربوطة في كلمة السياسة!

ولم يطل الوقت حتّى اعتدتُ على قراءة النصوص المشرقية، بحروفها وأشكال نقاطها جميعها، من الشرطة الصغيرة التي تعادل النقطتَيْن، إلى رَقْم الثمانية المشرقي الصغير فوق الثاء بدلاً من النقاط الثلاث.

حين كنتُ ألحظ نظرات الأب راميرو المستنكرة، وهو يراني أُعيد طلب المفتاح ذاته أكثر من مرّة، كنتُ أقول له، وأنا أبتسم معتذِراً، حتّى من دون أن يسألني، بأنني أحتاج إلى وقت أطول كي أُلمَّ بالمخطوط إلماماً يسهِّل عليّ تلخيصه، وكعادته كان يكتفي برسم امتعاضه على قسمات وجهه، من دون أن يعلّق بكلمة واحدة.

معظم المخطوطات من مقتنيات ملوك غرْنَاطَة، أو وزرائهم، أو من مكتبات الفقهاء المعروفين في وقتهم، والذين ثبَّتوا أسماءهم في الصفحات الأولى أو الأخيرة من تلك المخطوطات.

كنتُ أعمل بهمّة الجاحظ، ودأب ابن قتيبة، وتمحيص ابن حزم. أقضي جُلَّ وقتي في القاعة التي بدأتُ أعتادها حتّى غدا المكوث فيها مبعث الراحة الوحيدة لروحي المُتعَبَة، أمّا رائحة كُتُبها العطنة، فأصبحت عندي أزكى من الطيوب العربية كلّها. وكم تمنّيتُ أن يقبل رئيس الدَّيْر طلبي بنقل

سرير نومي إليها حتّى أُواصل الليل بالنهار في مطالعة المخطوطات، ولكنه رفض الطلب، وراضاني بقبول إحضار وجبة الغداء إلى القاعة، لأتناولها وأنا أعمل.

أمضيتُ الخريف والشتاء، وبلغتُ ربيع سنة إحدى عَشْرة وستّمائة وألف مسيحية، ولم أبارح الدَّيْر. ومع ذلك لم أنْجِز سوى عُشْر المخطوطات. وكان **أُبِرت** يزورني في الأسبوع الواحد مرّتَيْن أو ثلاث مرّات، ينسخ الملخّصات التي ألصقتُها على جِلْد المخطوط ، ويراجعني في بعض الأمور التي لم يفهمها، فيطلب منّي إعادة صياغة الملخّص من جديد، فكنتُ أفعل من دون مجادلة. كنتُ أريد أن أنهي عملي بسرعة وسلام.

وشيئاً فشيئاً تعلّمتُ الكتابة بفَرَانْصَاوِيَّة بَرِيْش، فهي تشبه، إلى حَدٍّ كبير، القَشْتَالِيَّة واللاطينية. وأقرب اللغات إليها الإيطاليانية، ولكنها تختصّ بمفردات دخلت إليها من لغات الألمان، إضافة إلى تعقيد لم أستطع فهمه البتّة، وهو بتر الصوامت المسبوقة بحروف صوتية!

في الأيّام المشمسة الدافئة، وهي قليلة على كلّ حال، كان **أُبِرت** يطلب منّي أن نتجوّل بين أشجار الحديقة، نتجاذب أطراف الحديث حول بعض ما يَرِدُ في المخطوطات، وعلى رأسها **القانون في الطبّ** للشيخ الرئيس ابن سينا؛ فقد كان هذا السِّفْر يحظى بعناية غير عادية من جانبه، كأنه كان يريد أن يفهم كلّ كلمة، بل كلّ حرف فيه، وقد اضطررتُ إلى ترجمة الجزئَيْن الثاني والرابع من هذا السِّفْر الضخم بناء على إلحاحه الشديد، لأنه لاحظ اختلافاً كبيراً بين النسخة المترجمة التي كانت بحوزته، وبين ما كنتُ ألخّصه له. ونتيجة إلحاحه ذاك وافق رئيس الدَّيْر على أن أتفرّغ للعمل على هذَيْن الجزئَيْن طوال فصل الصيف، فكنتُ أَصِلُ الليل بالنهار حتّى أُنجز العمل بأقصى سرعة ممكنة، وقد منحني الرئيس استثناء من استلام المفتاح وتسليمه طوال هذه المدّة، لأنه مفتاح واحد لا يتغيّر!

كان **الأب راميرو** يراقب ذلك كلّه، وسحائب الغضب تتلبّد بين عينَيْه! ما إن يرى أُبرت داخلاً إلى القاعة، حتّى ينسلّ مغادِراً، متّخذاً طريقاً ملتويةً نحو الباب، كي يتجنّب إلقاء التحية عليه، بل تناهت إلى سمعي في إحدى المرّات شتيمة قَشْتَالِيَّة مُقذِعة، تلفَّظ بها همساً وهو ينسحب إلى زاوية معتمة من زوايا القاعة، قبل أن ينصرف مسرعاً.

أمّا **أُبرت**، فلم يكن يعبأ براميرو، ولم يعلّق في يوم من الأيّام أيّ تعليق بشأنه، وكأنه غير موجود، كان اهتمامه منصبّاً على المخطوطات فقط، ولا شيء آخر سواها. وكلّما رآني يلحّ عليَّ، من دون كَلَل أو ملل، بدعوى إسداء النصيحة لي، بأن أُركّز جهودي على مخطوطات الطبّ وعلم الحِيَل، والجبر، والهندسة والمقابلة، وأن أمرّ على مخطوطات الفقه والأدب والتاريخ مرور الكرام، لأن ذلك سيختصر مهمّتي، ويُسرِّع بإطلاق سراحي.

كنتُ مؤمناً بأن حرّيّتي لا تعني لأُبرت شيئاً، ونصيحته لي إنما تصبّ في مصلحته هو، فهي أقرب إلى التهديد والوعيد، خصوصاً وأنه كان يؤكّد على عبارة **إطلاق سراحي**، مذكّراً إيّاي بأنني أشبه بأسير الحرب. ومع ذلك لم أكن أعبأ بتهديداته أو **نصائحه**، وكنتُ أسترسل في قراءة مخطوطات التاريخ والتراجم، وأُمحِّصها وأُعيد قراءة بعض فقراتها مرّات عدَّة.

مرّت أيّام لم يحضر البادري راميرو كعادته، فحسبتُ أنه متوعّك بسبب تقلّب الجوّ، وحين طالت غيبته أكثر من أسبوع، سألتُ عنه الراهب الشاب المكلّف بإحضار الطعام إلى القاعة، فأخبرني، وهو يعتذر بشدّة، أن **البادري دُون راميرو** غادر الدَّيْر منذ أيّام، وأنه ترك عنده، يوم مغادرته المفاجِئة، كتاباً لي نسي أن يسلّمني إيّاه بسبب انشغالاته الكثيرة، وبعد ساعة، عندما أتى ليأخذ آنية الطعام، حمله لي مكرّراً اعتذاراته على النسيان غير المقصود.

فضضتُ الكتاب المكتوب بالقَشْتَالِيَّة، وبدأتُ بقراءته على عجل، وكان نصّه مفاجِئاً في وُدِّه، إذ كتب يقول:

«إلى خروفنا الضالّ خيسوس:

عندما تستلم كتابي هذا، أكون في طريقي إلى مدينتنا الحبيبة طُلَيْطِلَة، لم أتمكّن من رؤيتكَ، لأن قرار تسريحي من المهمّة أتى مفاجِئاً وسريعاً ولم أتوقّعه. صحيح أنني سبق وألححتُ على قُدْس رئيس الدَّيْر الموقر بأن يتركني في حال سبيلي بعد أن تيقّنتُ من أنكَ قادر على القيام بالمهمّة وحدكَ، ولا حاجة لبقائي مع المخطوطات، غير أنني لم أتوقّع أن يستجيب لطلب رهبنتنا الجِزْوِيْتية بأن يُخلِيني من المهمّة، ويرسلني سريعاً إلى طُلَيْطِلَة لأمر يتعلّق بخدمة جديدة يريدونني من أجلها بطلب من قداسة سيّدنا البابا شخصياً.

أتمنّى من قلبي كلّه أن تُنجِز المهمّة في أسرع وقت ممكن، رغم أني بدأتُ أشكّ في ذلك بسبب تسلّط أُبِرت عليكَ وعلى المخطوطات، وكأنكما ملك شخصي له. أتمنّى أن تضع حدّاً لأُبِرت وجشعه ومحاولة استئثاره بالمفيد من المخطوطات لمصلحته الشخصية، فإن سارت الأمور على هذا المنوال، وواصلتَ الاستجابة لطلباته؛ فلن تكفيك تسع سنوات أُخر.

أتضرّع إلى الربّ بأن تكون عودتكَ إلى إِسْطَنْبُل سريعة، لكي تتزوّج الفتاة التي أحبّها قلبكَ. واسمح لي، أيُّها العزيز، أن أطلب منكَ هذا الطلب الملحاح إن أُتيحت لكَ هذه العودة السريعة، طلبي هو أن تبحث عن شقيقي دُون خيرونيمو راميريز، وأن تحيطه علماً بأنني عدتُ مؤقّتاً إلى مقرّ رهبنتنا الجِزْوِيْتية في طُلَيْطِلَة، وأنني أنتظر منه رسالة يخبرني فيها بما جرى معه، مهما كان الوضع، فأنا أعيش متقلّباً على جمر القلق والانتظار، حتّى يأتيَني خبر منه.

سامحني، أيُّها العزيز، إن بدر منّي ما يزعجكَ طوال المدّة السابقة، وسوف أصلّي من أجلكَ بأن تتكلّل مهمّتكَ بالنجاح، وأن يُطلق سراحكَ في أسرع وقت ممكن.

الخاطئ راميرو راميريز».

أثار الكتاب شجوني، وأعادني إلى أيّامي الأولى في هذا الدَّيْر، حين كان وجه فيروزة الحبيب مؤنسي الوحيد من وحشة المكان وكآبته، ورائحة النَّارَدِيْن المخزَّنة في منديلها، وإن بدت أقلّ نفاذاً، سلوتي ودافعي لأن أصل الليل بالنهار حتّى أنتهي من المهمّة، وأعود إلى **إِشْطَنْبُل**، وأُدركها قبل أن يقترن بها غيري.

رحتُ أتأمّل عامي المنصرم وقد مضى سريعاً كأنه أحد منامات آخر الليل. كانت مشاعري حيال انقضائه متناقضة. في البداية كنتُ أظنّ أن الأمر لن يتعدّى تصفّح مقدّمة المخطوط وكتابة ملخّص صغير في وصفه، وتحديد موضوعه، ولكنني وجدتُ نفسي متورّطاً في قراءة مخطوطات بكامل أجزائها، لأن مواضيعها جديدة عليٍّ. وها قد مضى عام ويزيد، وما زلتُ في العُشْر الأوّل من المهمّة، ولا أدري كم سيستغرق العمل على باقي المخطوطات إن واصلت اللهاث وراء فضولي لمعرفة المزيد ممّا كنتُ أجهله من تواريخ، وعلوم، وآداب عربية.

أشدّ ما أثار حَيْرتي انقضاء هذا العام سريعاً رغم حالة الانتظار التي دخلتُها منذ يومي الأوّل في الدَّيْر! كنتُ أعرف تمام المعرفة أن الانتظار يجعل الوقت ثقيلاً كالرصاص، تعبر أيّامه ولياليه بصعوبة بالغة كأنها سنوات. سبق لي أن اختبرتُ هذا الأمر خلال الشهور الخمسة التي أمضيتُها في **إِشْطَنْبُل** وأنا أبحث عن **دُون خيرونيمو**. لقد مرَت عليّ تلك الشهور

وكأنها دهر كامل، بل كنتُ أشعر في بعض الأحيان بأنني وُلدتُ فيها، وأنني لم أبارحها في يوم من الأيّام، وما ذكرياتي في **طُلَيْطِلَة** سوى منام عابر من دون ملامح ولا تفاصيل.

ما الذي يجعل الوقت ثقيلاً بطيئاً في **إسْطَنْبُل** إلى هذا الحَدّ؟ وما الذي يجعله سريعاً هنا في هذا الدَّيْر كأنه ومضة حُلْم؟ لا شكّ أن تقسيمه إلى ساعات، وأيّام، وأسابيع، وشهور، وسنوات فيه الكثير من المجاز، أمّا الحقيقة، فهي كامنة في ذواتنا. لقد بتّ أفهم اليوم قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**ثمّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ ممّا تَعُدُّونَ**﴾. الزمن بمنطوق القرآن الكريم متغيّر الطول بين السموات والأرض، فاليوم في السموات يعدل ألف سنة أرضية، وإن كان الأمر كذلك؛ فما المانع إذن في أن يكون يوم **إسْطَنْبُل** بمائة يوم من أيّام **بَرِيْش**؟

قبل كتاب البادري راميرو مرَّ عليّ وقت كدتُ أنسى معه وجه فيروزة الحبيب، وسألتُ نفسي:

- ما الذي أنسانيه هكذا؟

لا شكّ في أنه سيل الأخبار والعلوم العرم الذي كان يتدفّق عليَّ من صفوف المخطوطات. إذن؛ فالقراءة هي التي تجعل الوقت يمضي سريعاً، والتفكّر هو الذي يجعله بطيئاً مُملاًّ. في أثناء مكوثي في نُزُل ابن حمدان، منتظِراً **أحمد بن قاسم الحجري**، كان الوقت عبئاً ثقيلاً يعذّب روحي، ويجعلني أبحث عن خلاص في مكان آخر. يومها حزمتُ أمري، وقرّرتُ اتّخاذ إِسْطَنْبُل وطناً، فثمّة بيت ينتظرني، وأمل بأن تجمعني الأقدار بفيروزة مرّة أخرى، لأُكمل حياتي معها في بيت واحد كزوجَيْن على سُنَّة الله ورسوله، ولكن الأمور بدأت بالتغيّر مع اعتيادي على قاعة المخطوطات، بقبّتها

العالية، المزيّنة بصورة الملاك جبريل وهو يبشّر السيِّدة العذراء بحَمْلها، وأقواسها المتناظرة التي تسندها أعمدة المرمر المُجزَّع، وروائحتها العطنة، وإضاءتها الشحيحة.

في اليوم التالي لكتاب **البادري راميرو** عادت أموري إلى سابق عهدها، فاستأنفتُ العمل على ترجمة الجزء الرابع من مخطوط **القانون في الطبّ**، ولم يمضِ شهر حتّى وصلني كتاب ثانٍ منه. عندما فضضتُهُ صدمني نصّه المكتوب بـ **الخميادو**.. ما الذي يخفيه البادري راميرو، يا ترى؟ وبدأتُ بقراءة الكتاب:

«إلى عيسى!

أُحيّيكَ، أيُّها العزيز، من طُلَيْطِلَة، وأودّ أوّلاً أن أجيب عن تساؤل يشغل بالكَ الآن: نعم، أنا أُجيد العربية قراءة وكتابة، وكما ترى أُجيد كتابة الخميادو! وكنتُ قادراً على فهرسة هذه المكتبة التي تعمل عليها الآن وتصنيفها، ولكنني كنتُ أعرف أن الأمر سيستغرق منّي سنوات وسنوات، كوني كنتُ واثقاً من أنهم سيطلبون ترجمة بعض المخطوطات، فتظاهرتُ بعدم المعرفة، ومع ذلك أمضيتُ ما يقارب العامَيْن، ولذلك فأنا متعاطف معكَ أشدّ التعاطف، وأدعوكَ، أيُّها العزيز، لأن تجد حلّاً ما، وتنتهي من هذا الفخّ بأسرع وقت ممكن، فهوبرت لن يتركَكَ حتّى تُترجم له المخطوطات جميعها التي يحتاجها.

وددتُ أن أُخبركَ بأن رهبنتنا قرّرت إرسالي في مهمّة إلى جزر الهند الشرقية، وسوف أُماطل في تنفيذها ما استطعتُ إلى المماطلة سبيلاً، وأظنّ بأنني أستطيع أن أُماطلهم عاماً أو يزيد .. فإذا منَّ عليكَ الربّ بالخلاص، ونجحتَ في لقاء شقيقي دُون خيرونيمو

في إِسْطَنْبُل، أرجو أن تخبره بموضوع مهمّة جزر الهند الشرقية، وبأن يرسل كتاباً لي إلى مقرّ رهبنتنا في رومة، حيث سأكون هناك، وإذا فات الأمر وسافرتُ إلى الهند الشرقية، فهم سيُوصلونها لي بطريقتهم.

أرجوكَ، يا عيسى، أن تسرع في تخليص نفسكَ، فمصير حياتي متوقّف على كتاب شقيقي، إن كنتُ سأواصل ما أنا فيه أم ألتحق به في إِسْطَنْبُل وأفعل ما فعل!

اعذرني، أيُّها العزيز، فالأمر جِدُّ مهمّ لي.

الخاطئ راميرو».

أذهلني كتاب **البادري راميرو** عمّا كنتُ فيه، ودفعني نحو كهف حالك الظلمة؛ تتردّد فيه أصداء أسئلة لا تنتهي ولا تنتظر إجابات .. تُرى ما هو **اليقين**؟ ما كُنهه؟ ماذا يعني؟ ما الذي يدفع راهباً جِزْوِيْتياً أمضى حياته في الصوامع للتفكير بتغيير دِيْنه؟ ما الذي جعلني متيقّناً من أن راميرو كان يتمتّع باليقين؟

في تلك الأيّام؛ بدا لي أن **اليقين** الوحيد في هذه الدنيا هو **اللايقين!**

الراهب لازارو

مكتبة
t.me/soramnqraa

ذات يوم قال لي الراهب الشابّ المكلّف بخدمتي وهو يستعيد طبق طعام فارغاً:

- ألم تملّ من طعام الرهبان؟

نطق سؤاله بلسان قَطَلُونيٍّ ممطوط وهو يبتسم، فسألتُهُ:

- أنتَ من قَطَلُونْيَة؟

- من بَرْبَنْصَة، فنحن ننطق بلسان يشبه لسان قَطَلُونْيَة.

للمرّة الأولى أنظر إلى وجه هذا الراهب، لعلّه يصغرني بعام أو عامَيْن، له وجه طفولي أمرد، سبحان الله، ما ألطف ابتسامته! لمتُ نفسي، لكوني لم أنتبه له وهو يحضر الطعام لي، ويرافقني إلى ديوان رئيس الدَّيْر منذ أكثر من شهر.

سألتُهُ بودٍّ:

- ما اسمكَ؟

قال، والابتسامة عينها على محيّاه:

- **لازارو**، اسمي **لازارو**.

تناول الطبق ومضى، وأنا أتتبّعه بعينَيّ، وحين حضر صباح اليوم التالي لكي يصطحبني إلى ديوان رئيس الدَّيْر، سألتُهُ:

- لِمَ حدّثتني عن طعام الرهبان يوم أمس؟

- إنه لأمر مملّ أن تتناول الطعام ذاته منذ سنوات: اللفت والخبز الداكن، والعصيدة، الأسماك أو اللحوم المقدّدة ذاتها .. ألم تملّ؟

قلتُ له ونحن نهبط الدرج الخشبي متّجهَيْن نحو الديوان:

- أجل، سئمتُ هذا الطعام، ولكنْ، هل هناك بدائل أخرى؟

- نعم.

توقّفنا عن الحديث؛ فقد وصلنا إلى ديوان رئيس الدَّيْر، فختمتُ بخاتمي على الزيج، وأخذتُ مفتاح السلسلة، كما جرت العادة.

قلتُ للازارو ونحن نتوجّه إلى القاعة مستكمِلاً الحديث الذي انقطع بمفتاح السلسلة:

- كيف؟

- هل ترغب بطهي صنف معيّن؟

- أحبّ الطعام الأندلسي، هل تذوّقتَهُ من قبل؟

- لا، ولكنني أستطيع أن أتدبّر لكَ الأمر.

- كيف، هل لديكَ مطبخ خاصّ؟

- لا، لكنني أعرف مواعيد المطبخ، ومتى يفرغ من الطبّاخين، وأعرف أماكن تخزين الأطعمة.

راقت لي الفكرة كثيراً، فأردف هامساً وهو يغمز بعينه:

- بعد صلاة المساء يذهب الجميع إلى النوم، وقد اعتدتُ على التجوّل في أرجاء الدَّيْر خلال الليل، ولم أر أيّاً من رهبان المطبخ يقصده قبل شروق الشمس .. أؤكّد لكَ ذلك.

لم أنتبه كيف مضى يومي، فقد شغلني كلام **لازارو** كثيراً، ولم أعد أذكر أسماء المخطوطات التي لخّصتُها وصنّفتُها، وفي اليوم التالي حضر **أبِرت** ليراجع الملخّصات كعادته، ولكنه توقّف طويلاً عند مخطوط اسمه **رتبة الحكيم ومدخل التعليم**، وهو رسالة في الكيمياء لـ **مَسْلَمَة بن أحمد المَجْرِيطِيّ القُرْطُبِيّ**.

بينما كنتُ مستغرقاً بتصفّح مخطوط أكلت العُثَّة جزءاً منه، إذ بـ **أبِرت** يقف فوق رأسي، ويأخذني من يدي إلى ذلك المخطوط الذي حظي باهتمامه، وسأل:

- ما هذا؟

قلتُ باستغراب:

- كما تقرأ، مخطوط في **الخيمياء** بخطّ مؤلّفه.

- لدينا نسخة منه مترجمة إلى لسان اللاطين، ولكنها نسخة مختزلة، ولم تعتمد الأصل. لمَ لا تترجمه؟

- للحقّ أقول لكَ إن هذا الحقل من حقول التأليف لم يستهوني، ولم يثر فضولي للتعمّق فيه، وقد وجدتُهُ فنّاً من فنون الشعوذة، لكنني مستعدّ لترجمته لو أحببتَ.

- كم تحتاج من الوقت؟

- شهر كامل، قابل للزيادة، شريطة أن أعمل في الوقت الذي أراه مناسباً لي، ليلاً أو نهاراً، وأن لا أتقيّد بمواعيد الاستلام والتسليم اليومية، وأخيراً أن يبقى **الراهب لازارو** طوال الوقت معي لخدمتي.

نظر **أبِرت** إليَّ مليّاً، ثمّ قال وهو يفرك يدَيْه:

- سأجلب لكَ استثناء من **رئيس الدَّيْر**.

حين علم **لازارو** بالأمر طار فرحاً، وانكبّ عليّ معانِقاً كأنه فاز بجائزة كبيرة كان ينتظرها .. وبدأنا برسم خطط العمل، وأوقات الاستراحة، واللهو، والطبخ. كنتُ أُنجز الترجمة في النهار، وأُراجع الصفحات في المساء، وحين يذهب الجميع إلى النوم، كنّا نتسلّل أنا و**لازارو** إلى المطبخ، ونبدأ بإعداد وجبة العشاء التي أصبحت وجبتنا الرئيسة.

مطبخ الدَّيْر متّسع الأرجاء، معتم الجدران، مرتفع السقف، فيه نافذة واحدة، ولكنها عالية مقبوَّة، تمرّر الضوء إليه في النهار، وبعد غروب الشمس تضيئه أسرجة الزيت الموزّعة على زواياه وكُوّاته الكثيرة. في منتصفه موقد عظيم محاط بحاجز من الأجرّ المَشويّ بارتفاع أربعة أشبار، وفي أعلاه تدلّت سلسلتان مثبَّتتان بالسقف، تنتهيان بخطّافَيْن غليظَيْن، عُلّق فيهما قدران كبيران من النحاس المبيّض. نار الموقد لا تُطفأ أبداً، فعلى الدوام يبقى جمر متّقد تحت الرماد. ثمّة مشبك من الحديد يغطّي نصف الموقد، تُوضَع عليه القدور بعد نضوج الطبيخ، لكي يبقى حارّاً أطول مدة ممكنة.

على جدران المطبخ خطاطيف كثيرة عُلِّقت عليها أطباق من النحاس بمختلف الأحجام، وثوم يابس، وأكياس مشبّكة، فيها بصل يابس أيضاً، وفُلْفُل مجفّف، وسلال كثيرة من القَشّ. وفي منتصف الجدار الأكبر، المواجه للباب، كُوّة فرن كبير. في الجهة اليمنى من المطبخ هناك باب

مقبو منخفض الارتفاع، يفضي إلى حجرة المؤن التي تمتلئ بالمقدّدات المعلّقة، وبراميل الجعة وجِرَار النبيذ والزيت والخلّ، وأشولة القمح والطحين. وعلى جدران الحجرة رفوف عليها أوان زجاجية مغلقة، فيها ملح وأبازير وتوابل.

من الصعوبة بمكان طهو صنف لشخصَيْن في مواعين هذا المطبخ، لكن **لازارو** حلّ هذه المعضلة بأن جلب من مكان ما قدراً ومقلاة صغيرَيْن. ولم يتأخّر يوماً عن إحضار ما كنتُ أطلبه من أبازير وتوابل، إن لم تكن متوفّرة في حجرة مؤن الدَّيْر.

صحيح أنه لم يستطع توفير كلّ ما يتطلّبه المطبخ الأندلسي من المطيّبات والتوابل، لكن الأمر كان في حدود المقبول، فقد طهونا معاً، ونحن نتسامر ونضحك، معظم ما كتبتُهُ من وصفات في مجموعي الذي نقلتُهُ عن **خالتي إيزابيلا**.

بعد العشاء ننظّف كلّ ما لمسناه، ونُخفي بمرح آثار فِعلتنا، ثمّ نعود إلى القاعة، وكانت تبعد كثيراً عن المطبخ، وكان علينا أن نتخطّى أروقة عديدة، فندخل أبواباً، ونخرج من أبواب. و**لازارو** يحبّ أن يتشاقى، فيخلع حذاءه ويركض مسرِعاً ويدعوني للركض معه وهو يكتم ضحكاته. لم أكن استطيع مجاراته في معظم الأوقات، فقد يراني أحد كبار الرهبان ويخبر **رئيس الدَّيْر**، فتهتزّ صورتي عنده.

حدّثني **لازارو** عن شقيقتَيْه اللتَيْن رعتاه بعد موت والدَيْه، وكيف فقد إحداهما بالوباء، وتزوّجت الأخرى برجل شرّير كان يضربه، ويمنع عنه الطعام، فتضطرّ شقيقته لأن تُلقي إليه بالفتات من وراء ظهر زوجها. وذات يوم رآها وهي تفعل، فضربها ضرباً مبرّحاً، كاد أن يقضي عليها، فما

كان من **لازارو** إلّا أن فرَّ من البيت، وهام في الطُّرُقات يتسوّل الطعام من العابرين إلى أن وصل **بَرِيش**.

وذات يوم رآه راهب يُطعِم كلباً مريضاً من فتات طعام تسوَّله، فأخذه إلى الدَّيْر، لم يكن عمره قد تجاوز العشر سنوات، فأدخله في مكتب للرهبنة البندكتية تعلّم فيه القراءة والكتابة والحساب، وبعد أن أظهر نباهة سيم راهباً، وبات أصغر رهبان الدَّيْر سنّاً.

في أحد الأيّام سألتُ **لازارو** إن كان في وسعه أن يُحضر دجاجة سمينة لإعداد الزِّيرْبَاجَة المخلّلة. ومن دون أن يجيب بكلمة؛ غاب حصّة من الزمن، ورجع ومعه دجاجة حَيَّة في كيس من الكتّان، وكي لا يسمع أحد الرهبان صوتها؛ ربط منقارها بخيط أحكم وثاقة. ترك الكيس في زاوية من زوايا القاعة، وأخبرني همساً بأنه جاء بها من حظيرة ذبائح **رئيس الدَّيْر!**

في المساء؛ وحين انصرف الجميع إلى النوم؛ تسلّلنا كعادتنا إلى المطبخ ولازارو يحمل كيس الدجاجة.

قلتُ له:

- أنتَ اذبحْها، وأنا سأتلو عليها تعزيمة الذبح.

والحقّ أني لم أذبح طوال حياتي حتّى عصفوراً، وكنتُ أخشى أن لا أُحسن الذبح، فتفلتُ الدجاجة من بين يدي، وتُلطّخ المطبخ بدمائها.

قال **لازارو** هازئاً:

- ما بكَ؟! هل خفتَ؟!

- لا، لكنني لم أذبح شيئاً طوال حياتي.

وفجأة رأيتُهُ يأخذ الدجاجة ويلوي عنقها، ويُثبّتها براحتَيْه حتّى هدأت اختلاجاتها، ثمّ وضعها في ماء مغلي حصّة من الزمن، ونتف ريشها، وشقّ بطنها بسكّين ضخم، ونظّف جوفها من الأحشاء، وقال لي:

- تفضَّلْ.

لم تتح لي سرعة لازارو في القضاء على الدجاجة أن أقرأ عليها تعزيمة الذبح. تردّدتُ قليلاً، ثمّ شرعتُ في إعداد الوصفة. وضعتُ الدجاجة في القدر خاصّتنا، وسكبتُ عليها ماء، وأضفتُ ملحاً وزيتاً، وفُلْفُلاً، وكُزْبَرَة يابسة، ثمّ أضفتُ يسيراً من بصل مقطّع، وعدداً من فُصُوص الثوم، ولوز مقشور. لم أضع مُرِّيَّ النقيع لعدم توفّره، واستعضتُ عنه بورق الأُتْرُجّ. كنتُ أقوم بالطهي ولازارو يحضِر لي ما أطلب، لكنه نسي أن يحضر الكراوية. كان يُفترض أن أُضيف إليها زعفراناً، ولم يتمكّن أيضاً من إحضاره، واكتفيتُ بإضافة خلّ العنب البلسمي اللذيذ.

وريثما تنضج الدجاجة سلقتُ بيضتَيْن، شقّقتُهما بعد نضوجهما إلى أربعة أجزاء، ورششتُ على الطبق كُزْبَرَة يابسة وفُلْفُلاً. كانت الدجاجة قد نضجت؛ فأفرغتُها في غَضَارَة، وجعلتُ عليها ما تصفّى من مرقها، ثمّ زيّنتُها بالبيضتَيْن المطيَّبتَيْن، وذررتُ عليها قِرْفَة وزنجبيلاً.

حملتُ الغَضَارَة إلى طاولة قرب النافذة، فوجدتُ لازارو قد هيّأ طبقَيْن من الصيني، تتوسّطهما شمعة وكأسان من النبيذ الأحمر المختوم.

قال وهو يفرك كفّاً بكفٍّ حماساً:

- هذا الطبق الرفيع يلزمه كأس نبيذ من قبو رئيس الدَّيْر.

وحين رأى تردّدي؛ تبسّم وقال مردّداً قول بُولُص لطيموثاوس:

- استعملْ خمراً قليلاً من أجل معدتكَ وأسقامكَ الكثيرة.

قلتُ له:

- لأجلكَ، أيُّها العزيز **لازارو**، سأشاركك بكأس، وعسى أن يغفر الله لي هذا الذَّنْب.

كانت الدجاجة لذيذة إلى درجة أن **لازارو** أحضر كأسَيْن آخرَيْن، شربناهما دفعة واحدة، ثمّ كأسَيْن تاليَيْن حتّى لعبت الخمرة برأسي، فطلبتُ منه بحزم أن نتوقّف عن الشرب. آخر ما أذكره من تلك الليلة أنني نهضتُ عن الطاولة وأنا أُشدِّد على لازارو بأن يتخلّص من العظام كلّها، فألقى بها إلى جمر الموقد، ثمّ وضع القدر والطبقَيْن في كيس الدجاجة، ودسّه خلف أحد البراميل الخشبية، قبل أن يكاتفني ليساعدني على الوصول إلى حجرتي (!).

في صباح اليوم التالي، صحوتُ وأنا أشعر بألم شديد في عقب قدمي اليمنى. كان ثمّة دم ينزُّ من **جرحي القديم**، لطّخ الفراش والأغطية. لا أذكر أنني دستُ على شيء حتّى يُنكَأ الجرح هكذا! حاولتُ أن أقف. كان الألم شديداً، فعدتُ إلى الفراش وبدأتُ أستشعر حُمّى خفيفة تجتاح رأسي.

حضر **لازارو** متأخّراً، وحين رأى الدم على الفراش وغطائه، أُصيب بجمدة، ثمّ أسرع بالكشف عن مكان الجرح وهو يقول ملهوفاً:

- ماذا أصاب قدمكَ؟ وكيف حدث هذا؟

قلتُ له بصوت واهن:

- لا أذكر، صحوتُ ووجدتُها هكذا.

غاب لحظات ثمّ حضر ومعه قطعة قماش بيضاء، ربط قدمي بها، ثمّ أخذ الأغطية عن السرير ووضعها جانباً.

قلتُ له وأنا أغالب وهني:

- لا أظنّ أنني أستطيع العمل اليوم، فأنا متعَب.

- لا تقلقْ، سأُخبر رئيس الدَّيْر بمرضكَ.

لم يطل غياب **لازارو**، إذ حضر ومعه راهبتان، إحداهما طبيبة تُدعى **الأخت ماريا**، والأخرى **مارثا**. وضعت الأخت ماريا يدها على جبيني، فاستشعرت الحُمّى. عندها طلبتُ من لازارو أن يسقيَني منقوعاً كان معها.

في مساء ذلك اليوم كانت حُمّى جسدي قد بلغت ذروتها، حتّى إنني صرتُ أهذي بكلام لارابط ينظمه. في حمأة ذلك الهذيان كانت الراهبة **مارثا** تحمل الإنجيل وتقرأ، والراهبة الطبيبة **ماريا** تمسّد قدمَيّ:

- «**فأخذتْ مريم منّاً من طيب نَارَدِين خالص كثير الثمن، ودهنث قدَمَي يسوع، ومسحت قدمَيه بشَعْرها، فامتلأ البيت من رائحة الطيب**».

وفجأة ملأت حجرتي رائحة عطر النَّارَدِيْن، ورأيتُ في وجه **الراهبة ماريا** وجه **فيروزة** وهي تبتسم لي. كانت ابتسامتها الحبيبة آخر ما أتذكّره من حُمّى تلك الليلة.

في فجر اليوم التالي نهضتُ من فراشي نشيطاً. كانت رائحة عطر النَّارَدِيْن ما تزال تملأ الحجرة، ووجه **فيروزة** الباسم يظهر لي كيفما التفتّ. توجّهتُ إلى النافذة، ها إن الصبح يتنفّس، وزقزقة العصافير تصمُّ الآذان. كأنني أسمعها للمرّة الأولى. جلستُ على الكرسي المجاور للنافذة، وكشفتُ عن جرحي. يا للغرابة! لقد التأم الجرح كأنه لم يكن.

لم يتأخّر **لازارو** هذه المرّة، فقد حضر ومعه كأس من الحليب المحلّى بالعسل، والمطيّب بالزنجبيل، وفطيرة الصباح المعجونة بالزبدة.

فوجئ بشفائي، فعانقني مهنّئاً، ولكنني وحين شرعتُ بتناول فطوري، لاحظتُ أنه لم يكن على مايرام، ثمّة شيء ما في عينَيْه .. كان يتحاشى أن ينظر إليّ.

- ما بكَ، أيُّها الحبيب **لازارو**؟

أخفض رأسه، ثمّ تكلّم بصوت واهن لاح في نبرته انكسار:

- لا شيء، لا شيء، البارحة خفتُ عليكَ، كنتُ خائفاً أن تموت .. علامات غريبة ظهرت عليكَ، خفتُ أن يكون ذاك هو الموت، يا إلهي، كم كان وجهكَ شاحباً!

تبسّمتُ مطمئنّاً ولسان حالي يقول، هل يمكن لشقيّ مثلي، أن يلوي عنقه وينام ولا يستيقظ ليضرب فأسه في وجه وحش الموت؟!

- ها أنذا حيٌّ لم أمت، فلمَ القلق إذن؟!

لم يغادر الذهول عينَيْه وهو يتمتم:

- الشكر لله على سلامتكَ .. الشكر لله.

وأضاف، وهو يشيح ببصره نحو النافذة:

- هل سترتاح اليوم أم نذهب للعمل؟

- بل نعمل.

- تعرّقتَ كثيراً البارحة، وأظنّكَ بحاجة لحمّام ساخن.

- ليس ثمّة ماء ساخن في الحمّام.

- لا عليكَ، سآخذك ليلاً إلى حمّام كبار الرهبان، في الجهة الغربية من الدَّيْر، فيه ماء ساخن.

ذلك اليوم كان الأخير في الشهر الممنوح لي لإنجاز ترجمة المخطوط، وكنتُ قد أنهيتُهُ بالفعل قبل خمسة أيّام، لكنه احتاج منّي إلى شيء من المراجعة والضبط حتّى يأخذ صيغته النهائية.

في تلك الليلة لم نطبخ، توجّهنا إلى حمّام خواصّ الرهبان، كان المكان مضاء بأسرجة زيت وشموع. ثمّة ماء ساخن في أحد الأحواض. دخلتُ مقصورة، وخلعتُ ثيابي، وأبقيتُ على السروال الداخلي، ورحتُ أسكب على نفسي الماء، وأدعك جسمي بليفة عشَّقْتُها بصابون زيت الزيتون الذي كان لا يفارقني.

تناهى إليّ صوت **لازارو** من وراء باب المقصورة:

- هل تودّ أن أساعدكَ بتنظيف ظهركَ؟

- لا تُتعِبْ نفسكَ، سأتكفّل به.

لكنه دخل عليّ المقصورة، ومن وراء ظهري مدّ يده وتناول الليفة من يدي، وشرع يدعك بها ظهري. التفتُّ إليه، لكي أستعيد الليفة منه شاكراً صنيعه، ومحرَجاً من مبادرته غير المتوقَّعة، وإذا به عارياً تماماً وفي عينَيْه دموع.

اعتراني ذهول، ارتخت له يدي. قال بشفتَيْن راجفتَيْن:

- مَنْ هي **فيروزة** التي كنتَ تهذي باسمها، حين **ثملنا قبل ليلتَيْن** (؟!)، وأيضاً حين كنتَ تصارع الحمَّى ليلة أمس؟ لم تُخبرني عنها يوماً .. مَنْ هي؟

نظرتُ إليه مليَّاً، ولم أجبه. أزحتُهُ عن طريقي، وتناولتُ ثيابي عن المشجب فارتديتُها، وقبل أن أخرج، ناولتُهُ منشفة ليجفِّف دموعه:

- **فيروزة** هي أملي الجميل في هذه الحياة.

رمى يده على كتفي، كمَنْ يستنجد، وأجهش بالبكاء .. وقال وقد اخضلَّت عيناه، كمَنْ أصابه جنون:

- لماذا؟

لم أفهم ما جرى، بدا لي كلّ ما وقع غريباً وصادماً. قلتُ له وأنا أغادر الحمّام:

- ارتدِ ثيابكَ، واتبعني.

لم يتبعني، ولم أنم تلك الليلة والأفكار تصطرع داخل رأسي .. لقد أحببتُ **لازارو** كثيراً، أحببتُهُ كأخ صغير لي .. كانت ابتسامته المرحة تُدخِل الفرحة إلى قلبي، تُشعِرني بقوّة الحياة في موات الدَّيْر، وجمال الصداقة في صقيع المصلحة. لم يخطر لي، للحظة واحدة، أن يكون حبُّه لي هو حُبَّ رجل لرجل!

لا أعرف في أيّ ساعة غفوتُ تلك الليلة، ربمّا قبيل الفجر بقليل، ولكنني صحوتُ متأخّراً على ضربات الباب، وراهب مسنٌّ يحمل خبراً له وقع صاعقة:

- كُلِّفتُ بخدمتكَ .... **لازارو ذهب إلى السماء**.

يا الله! ماذا يقول هذا الراهب الخَرِف؟ متى حدث ذلك؟! وكيف؟! تركتُهُ قبل ساعات قليلة.

وحين رأى الراهب الهَرِمُ ذهولي، قال:

- المسكين، وجدوه في حوض الحمّام وشرايين يده مقطوعة من المعصم، ولم يكن فيه نَفَس.

انقسم رهبان الدَّيْر بين مَنْ رأى أن **الانتحار** خطيئة كبرى، تمثِّل النقيض لحُبّ الله، وبالتالي لا يجوز إقامة القدّاس والجناز لراحة نفسه، فيما رأى آخرون، وكانوا أقلِّيَّة، بأن الله القدير، بطُرُقه التي يعلمها وحده، هو مَنْ يقرّر منح فرصة للتوبة، فلا ضير من الصلاة للأشخاص الذين أقدموا على إنهاء حيواتهم بأنفسهم.

في الجنَّاز الصغير الذي أُقيم في حديقة الدَّيْر الغربية، حين فتحوا التابوت الخشبي، وكشفوا عن وجه **لازارو**، خنقتني العبرات، فهتفت:

- «**لازارو، لازارو، انهضْ وتعالَ لأعانقكَ .. هلمَّ خارجاً، يا فقيدي**».

من الشك إلى اليقين

زرع انتحار **لازارو** بذور الشكّ في أعماقي نفسي. حاصرني بالأسئلة التي تلد أسئلة عن معنى **الخطيئة** .. ما الذي يجعل الخطيئة خطيئة؟ ما هي خطيئة **لازارو** التي استوجبت منع إقامة جنَّاز له في كنيسة الدَّيْر؟ هو قتل نفسه؟ خطيئة مَنْ هذه؟

لازارو لم يبارح الأديرة منذ تسعة أعوام، لم يرَ خلالها سوى راهبات المستشفى الملحق بالدَّيْر! كيف له أن يدرك الفارق ما بين المرأة والرجل وهو لا يعرف المرأة؟ **خطيئة مَنْ هذه؟**

وأنا: هل أخطأتُ حين تركتُهُ وحيداً في أحلك لحظات يأسه؟ لو أنني استجبتُ لرغبته الجامحة في الحمَّام، ربمّا منعتُهُ بذلك من اقتراف خطيئة قتل نفسه .. ولكنْ، ألَا أكون قد ارتكبتُ خطيئة لا تُغتَفَر، عقوبتها الموت في شرائع اليهود والنصارى والمسلمين .. خطيئة مَنْ هذه؟ **خطيئتي أم خطيئته؟**

لم يُنقِذني من هواجس الأسئلة المُمِضَّة سوى استغراقي في العمل. صرتُ أراجع في اليوم الواحد سلسلة كاملة، أضع لها تعاريف مختصرة، وهدفي من وراء ذلك الإسراع في إنجاز المهمّة، والنجاة من هذا الشَّرَك الذي وقعتُ فيه.

ذات يوم فتحتُ قفل إحدى السلاسل، فطالعني عدد من مصنَّفات

الأدب والفقه، ومنها مخطوط **الفَرْق بيـن الفِرَق** لعبد القاهر البغدادي التميمي. تصفَّحتُهُ سريعاً، ثمّ وضعتُ له تلخيصاً شافياً وافياً في ورقة كاملةً.

في صبيحة اليوم التالي، وبينما كنتُ أضع خاتمي على حقل استلام مفتاح السلسلة ذاتها في زيج الاستلام والتسليم، إذا برئيس الدَّيْر يفتح باب مكتبه ويتقدّم نحوي وهو يحمل ورقة بيده. اضطرب الوكيل وألقى القلم من يده ونهض واقفاً، بينما اعتدل الراهب العجوز المرافق لي في وقفته وأخفض رأسه. لم يلتفت رئيس الدَّيْر إليهما، واكتفى بأعطائي الورقة وهو يقول بفرانصاوية بَرِيْش: مكتبة سُر مَن قرأ

- ما هذا؟

فوجئتُ بالورقة، كانت ملخّص مخطوط **الفَرْق بين الفِرَق** الذي كتبتُهُ أمس، فقلتُ:

- كما تقرأ، يا صاحب السعادة، هذا مخطوط يشرح الفَرْق بين المذاهب الإسلامية.

قال وقد بدا الاهتمام الشديد على قسماته:

- أعرف؛ أنتَ كتبتَ هذا في الملخص، ولكنْ، لماذا لا تترجمه كاملاً؟

- لم يطلب أحد منّي ذلك.

- أنا أطلب منكَ الآن. تَرجِمْهُ بأسرع وقت ممكن، كان البابا يسأل عن هذا المخطوط منذ مدّة طويلة.

قال جملته واستدار عائداً إلى مكتبه، وقبل أن يدخل التفت نحوي وأردف:

- أسرع .. أريده الأسبوع القادم في مثل هذا اليوم جاهزاً، ولتبذل عناية أكبر بجمال الخطّ وتنسيق الصفحات.

قلتُ له بكثير من اللامبالاة والتحدّي:

- لن أستطيع أن أُنجزه قبل شهر، فهو كبير الحجم.

نظر إليّ بتذمّر، ولكنه هزّ رأسه موافقاً وقال:

- إذنْ، بعد شهر، وبالشروط التي شرطتَها حين ترجمتَ مخطوط **الخيمياء**.

ما فائدة تلك الشروط من دون **لازارو**؟! ماذا سأفعل وحدي ليلاً في ردهات الدَّيْر، وفي المطبخ؟!

أمضيتُ الشهر في ترجمة المخطوط من دون أن أغادر القاعة إلّا للنوم في حجرتي. وكان الراهب العجوز يحضر لي طعام الرهبان إلى القاعة. أتناول بعضه حيناً، وأنساه حيناً آخر. وبعد شهر أحضرتُ ترجمة المخطوط إلى رئيس الدَّيْر وقدّمتُهُ له، وأحطتُهُ علماً بأن الغالبية الساحقة من هذه الفِرَق لم تعد موجودة، وأن الموجود حالياً لا يتجاوز عدد أصابع اليدَيْن، فقال وهو يتصفّح الترجمة باهتمام كبير:

- ذلك لا يهمّ .. سيّدنا البابا يريد أن يعرف أكثر عن الخلافات بين أصحاب الهرطقات المسلمين.

بعدها عدتُ إلى عملي المعتاد؛ يرافقني الشكّ في كلّ شيء .. أكثر من سبعين فرقة، كلّ فرقة تحسب نفسها الفرقة الناجية .. كيف نشأ هذا الخلاف كلّه بين المسلمين؟ مَن المسؤول عن ذلك؛ النقل أم العقل؟

لقد أعادني مخطوط **الفَرْق بين الفِرَق**، إلى سؤال **اليقين** من جديد، ما الذي يجعل صاحب النِّحْلَة، أو الفكرة، أو الفلسفة متيقّناً من أنه يمتلك الحقيقة كلّها؟ ودفعني ذلك للبحث عن كُتُب الفلاسفة المسلمين، فعثرتُ على نسخة من مخطوط ابن رشد **تهافت التهافت** في ردّه على مخطوط الغزالي **تهافت الفلاسفة**. وبعد أن قرأتُهُ ورجعتُ إلى أجزاء منه مرّات عدّة، أيقنتُ أن **البرهان العقلي** على وجود الخالق يبقى ناقصاً مهما حشد الفيلسوف من البراهين. ودفعني ذلك لإعادة البحث عن كُتُب المتكلّمين، فلم أظفر إلَّا بتلخيص لكتاب فخرالدِّيْن الرازي **المحصِّل**، وضعه علاء الدِّيْن المارديني، وفيه شرح وإحاطة لمختلف آراء علماء الكلام والردّ على الفلاسفة والحكماء. ولكنها، وللأسف الشديد، ردود تسير على منوال مبرهنات الفلاسفة، ووَفْق المنطق ذاته، وبالأدوات نفسها .. نقض البراهين العقلية ببراهين عقلية!

من القضايا التي توقّفتُ عندها طويلاً؛ تلك الشروح المتناقضة للحديث النبوي الشريف الذي يقول منطوقه: **إن اللّه خلق آدم على صورته**، وهي متناقضات ذكّرتْني بما قرأتُهُ عن جدالات البيزنطيِّيْن حول الطبيعة الإلهية، والمشيئة، وجنس الملائكة، والتي آذنت بزوال ملكهم وذهاب ريحهم. المذاهب جميعها تحمل اليقين ذاته، **يقين الفرقة الوحيدة الناجية** من عذاب جهنّم. أيّ وَهْم أكبر من هذا؟!

والحقّ أن حكايتي مع هذا النوع من المخطوطات لا تُروى بالكلمات وحسب، ولا تُقاس بالساعات، لكنها تُستعاد بإعمال المقارنة الواقعية والتاريخية، والمحاكمة العقلية، والتأمّل في أطوار النَّفْس البشرية وهي تعيش قلق الوجود، وغسق التفكير به، بحثاً عن إشراقة نور، فتجتمع وتفترق، تتعارف وتتناكر، تخطئ وتظنّ أنها تصيب، تولد وتموت، تسمو

وتهبط إلى الحضيض، بينما هي تبحث عن الفرصة الفضلى لتجسيد المثال.

في تلك الأيّام؛ أيقنتُ أن البراهين العقلية كلّها لا تمنح اليقين، مهما كانت مُحكَمة المنطق، مسبوكة العبارة. لقد غادرني **اليقين** إلى غير رجعة، كما يغادر سرب من الطيور المهاجرة قرية حطّ رِحاله فيها ذات يوم، وظنّ أهلها، وهم يرونه يبني أعشاشه في كلّ مكان من قريتهم، أنه باق إلى ما شاء الله، ليكتشفوا ذات صبيحة بأنه غادرهم على حين غِرَّة، تاركاً خلفه كلّ شيء.

مع دخول عامي الثالث في الدَّيْر، لم أعد أُقيم وزناً للوقت، فقد تشابهت الأيّام عندي، كأنها قطيع ماعز، وصار **لازارو** يظهر لي بين فينة وأخرى، واقفاً في زاوية معتمة خلف سلاسل الكتب.. وكنت ما إن أرفع له يدي بالتحية حتى يختفي في الظلام. ولكنْ، في يوم خريفي من أيّامي تلك، وبينما كنت أفتح قفل سلسلة جديدة، تسللت رائحة ناردين خفيفة إلى أنفي. التفتُّ فوجدت **لازارو** يقف خلفي وهو يشير إلى المخطوط الأول بإلحاح.

فتحت جلد المخطوط فكان **كتاب فُصُوص الحِكَم** لابن عربي، مكتوب بخطٍّ أندلسي أنيق، ثُبِّت في صفحته الأولى أنه من مكتبة **أبي عيسى محمّد بن أحمد البَيَاسِيّ**. لفت نظري الاسم؛ ترى مَنْ يكون هذا الرجل الذي لم يُرفق باسمه أيّ لقب، لا شيخ ولا قاض؟ اسمه يقول إنه من مدينة بَيَاسَة من نواحي جَيَّان.

تحت الاسم قرأت الأبيات التالية:

سـألته الوصـل لمـا رأيتـه يتجنّـى

فهــز عطفيــه عجبــاً كالغصــن إذ يتثنّــى

فقـــال أنـــت غريـــب يـــا ذا إليـــك عنّـــا

قــد ذبت شــوقاً ويأســا ومــت وجــداً وحزنا

أخذت المخطوط وحملته إلى المنضدة، وأنا أنظر إلى **لازارو** الذي مضى إلى زاويته المعتمة.

كان رأيي بالصوفية، حين كنتُ أعيش في الأندلس، أنها طائفة ضالَّة تدّعي أن في أولياء الله تعالى مَنْ هو أفضل من الأنبياء والرُّسُل جميعهم. وكان ثابتاً عندي أنها تُسقِط الشرائع والفرائض عن أولئك الأولياء المجذوبين بدعاوى واهية. والحقّ أن رأيي هذا تأثّرتُ فيه بابن حزم القُرْطُبِيّ الذي كان يناصبهم أشدّ العداء، ويردّ عليهم في كُتُبه ورسائله أنّى حضر ذِكْرهم.

على أنني؛ وبعد وصولي إلى **إسْطَنبُل**، تعرّفتُ على طُرُق صوفية مختلفة أشدّ الاختلاف عمّا كان راسخاً في ذهني، يجوز لي أن أُسمِّيَها **الصوفية المحاربة**. فقد قامت أمجاد بني عثمان على أخويات **الألبلار**، وهم الأبطال في عربيّتنا. **الألبلار** فرسان تركمان صوفيون خاضوا الحروب ضدّ الروم والمغول، وثبّتوا سلطة الترك في هذه البلاد. وحتّى جيش الانكشارية الذي خاض حروب السلاطين في البرّ والبحر، منذ عهد الفاتح وحتّى اليوم، هم أصحاب طريقة صوفية، يسمّونها **البِكْطَاشِيَّة**! لا أعلم مصدر صوفية **حاجي بِكْطَاش**، ولكنني أعلم أن صوفية التُّرك بعامّة تنهل من **ابن عربي**.

ومع أني كنتُ أعاف قراءة **هذياناته**، كما كنتُ أسمّيها، بدأتُ بمطالعة مقدّمة **كتاب فُصُوص الحِكَمْ**، على سبيل الفضول لا أكثر، فكانت، ويا للعجب! أشبه بطُعْمٍ ألقاه صيّاد في الماء، وجلس ينتظر سمكة يتمنّى أن

تكون كبيرة! وحين أنهيتُ القراءة أدركتُ أنني تلك السمكة التي ابتلعت الطُّعْم، فوجدت نفسها عالقة بالشَّصِّ، غير قادرة على تخليص نفسها منه، حتّى لو تقيَّأت الطُّعْم ذاته! أما كَنَهُ الطُّعْم الذي ألقاه **ابن عربي** لي في مخطوطه، فهو قوله بثقة مطلقة أثارت حَيْرتي وغضبي في آن معاً، إنه تلقّى من **الرسول الأكرم**، في رؤيا صحيحة، مخطوطه هذا، أي **كتاب فُصُوصُ الحِكَمْ**، وأن الرسول، صلوات الله عليه، طلب منه أن يأخذه ويُخرِجه إلى الناس ينتفعون به.

أيّ جرأة هذه؟ وكيف له أن ينسب مخطوطاً كاملاً إلى رسول الله، وهو الذي ختم رسالته بالقرآن الكريم؟

في البداية شعرتُ بالنفور من تجرّؤه على الرسول الأكرم، وفكّرتُ بإلقاء المخطوط جانباً، ووضع تلخيص بسيط أقول فيه: إنه مخطوط شعوذة، يمثّل مناماً غير معقول لمتصوِّف مجذوب، يتخيّل رؤية رسول الإسلام. ولكنني، وبعد أن قرأتُ الفص الأوّل **فَصّ حكمة إلهية في كلمة آدمية**، وجدتُ أن فحواه أعمق بكثير ممّا كنتُ أظنّ. فهو يشرح الآية القرآنية {**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيْفَةً**} بطريقة بديعة لامست شغاف قلبي، ولم تشغل نفسها بعقلي.

أجاب **ابن عربي** في هذه الفَصِّ، من فُصُوص الحِكَم الإلهية، عن السؤال الذي أرَّقني وأدخل الشكَّ إلى نفسي حول غاية الوجود، والجواب كان في فكرة **الإنسان الكامل**، الذي تتعيّن فيه الذات الإلهية بصفاتها كلّها.

يا لجمال فكرتكَ، يا محيي الدِّيْن! كيف انتبهتَ لهذا التطابق بين الآية الكريمة ومعنى الحديث الشريف، عن أن الله خلق آدم على صورته؟!

وشيئاً فشيئاً بدأتُ أفهم مقاصد ابن عربي من العبارات الملتبسة التي كان يملأ مخطوطه بها، سواء بالشِّعْر الغامض الذي لم أقرأ مثله من قبل، أو بالنَّثْر الحائر بين الأدب ومصطلحات الفلاسفة والمتكلِّمين. والسبب أنه يخاطب شغاف القلب، وينأى بنفسه عن متاهات العقل الصرف.

ثمّة فكرة أخرى حول **الكلمة الإلهية والثالوث**، شرحها بتفصيل معقّد، اقتضى منّي شهراً كاملاً وأنا أتفكّر فيها لكي أفهمها تمام الفهم، فثالوث الكلمة يتجلّى في ثلاثة مظاهر: **العلم الإلهي، والوحي المنزَل على الأنبياء، وكمال الإنسان.**

لقد قادني فهم الكلمة الإلهية كما شرحها ابن عربي إلى فهم مقولته في **وحدة الوجود**، التي طالما عدَّها شيوخنا دليلاً على انحرافه عن الجادّة القويمة. وهنا وجدتُ نفسي أسيرَ اصطراع داخلي حول **الجبر** و**الاختيار**، وكيف لي أن أفهم فكرة الثواب والعقاب، ما دام أن حيواتنا كلّها خاضعة للوجود الواحد، وصادرة عن **العقل الإلهي الأعظم**؟! والحقّ أن هذه الفكرة أوصلتْني إلى حافّة **الكفر والإلحاد.**

استغرق هذا المخطوط منّي شهرَيْن كاملَيْن حتّى عقلتُهُ وتدبّرتُه، فكنتُ أتذرّع بالمخطوطات التي كانت معه في السلسلة نفسها، وأتظاهر بأني أُراجع قراءتها أكثر من مرّة لأنها مستعصية عليّ، في حين كنتُ أقرأ وأتمعّن وأُعيد قراءة **كتاب فُصُوصُ الحِكَمْ** أكثر من مرّة. ومع كلّ قراءة جديدة كنتُ أقترب من نعيم **اليقين**، حتّى أدركتُ أخيراً أن **اليقين يقيم في القلب، والشكّ يقيم في العقل**. فإن بحثتَ عن اليقين فاسأل قلبكَ لا عقلكَ!

باقي مخطوطات السلسلة كانت تتناول مسائل فقهية، يمكنني أن ألخّصها كلّها في يوم واحد أو يومَيْن، من قبيل أحكام الصلاة ومنقضات الوضوء على مذهب الإمام مالك، و**خلافات فقهاء الأمصار**، وشروح **رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، وغيرها، ولكنني كنتُ أُماطل، وأتذرّع

بالقراءة والتمحيص، وإعادة القراءة من جديد، لكي أكسب الوقت من دون أن يحاسبني أحد.

وكان من حسن طالعي أن السلسلة التالية كانت تشتمل على مجلَّدَيْن مخطوطَيْن من **الفُتُوحات المَكِّيَّة** لابن عربي، وهو ما كنتُ أدعو الله من قلبي كلّه بأن أعثر عليه بين هذه الأكداس من المخطوطات. في الحقيقة لم تكن هذه النسخة كاملة بدليل أن ناسخها، وهو نفسه **أبو عيسى البَيَاسِيّ** صاحب مخطوط **كتاب فُصُوص الحِكَم**، كتب حاشية قال فيها:

- «نسختُ من مخطوط بخطّ الشيخ ابن عربي ما استنسبتُهُ من كتاب **الفُتُوحات المَكِّيَّة**، واستبعدت بعض الفصول لعدم قدرتي على فهم مقاصدها، بما يعادل ثُلث المخطوط».

إذن المخطوط الذي بين يدَي هو ثلثا مخطوط **الفُتُوحات المَكِّيَّة** للأسف الشديد، ولكنْ، لا بأس في ذلك، فكُتُب الشيخ لا يؤذيها الحذف، ولا التقديم والتأخير، أو العبث بترتيب الفصول، فغاية المخطوط وخلاصته يكوِّنها ويُلِمُّ بها عقلكَ، كلّما استعدتَها وغامرتَ في استشراف مراميها البعيدة، بعد أن تفرغ من القراءة وتمتلئ بإشراقاتها، سواء؛ إن بدأتَ بتقليب الصفحات من الجِلْد الأيمن للمخطوط، أم من الجِلْد الأيسر، أو إن شئتَ من المنتصف. ولا أخفيكم أنني جرّبتُ هذا وذاك وذياك، وأنا أجول في سهول ابن عربي، وهضابه، وقِمَم معانيه.

غرقتُ في **الفُتُوحات المَكِّيَّة** ردحاً طويلاً من الزمن، ولم أعد أعبأ بشيء، لا الزمان ولا المكان، وحمدتُ الله أن بَوَّابتي إليه كانت **كتاب فُصُوص الحِكَم**، فلولا قراءتي المتدبّرة له؛ لعجزتُ عن فهم كَنْه **الفُتُوحات** وإدراك مراميها، فهي شروح مستفيضة لِمَا ورد في **الفُصُوص**.

من أكثر قِطَع **الفُتُوحات** تأثيراً في نفسي تلك القطعة التي شبه فيها

لعبة «**خيال الظّل**» بحيواتنا، فالستارة التي تعكس صور دمى البابات للصغار، هي صورة العالم الذي نحياه، والدمى هي مصائرنا وأقدارنا كما قدَّرها الله في كتاب محفوظ من الأزل، والصغار اللاهون بما تعكسه الستارة هم نحن البشر.

أخذتني فصول **الفُتوحات المَكّيّة** وأجزاؤها التي تبدو مفكَّكة، غير مترابطة، إلى دَغَل تتشعّب مساربه نحو وديان مخوّفة من غرائب الفِكَر، ومستنقعات تَعِجُّ بالأوهام، لا فِكَاك من طينها الرطب، ومشاجر معتمة لا تنتهي؛ من قصص تقود إلى قصص أخرى، ومن حِكَم تقود إلى حِكَم أخرى، ومن أسئلة تقود إلى أسئلة أخرى، ومن غسق سماوات إلى أنوار سماوات.

يا الله، كيف تغيّر حالي، ولم أعد أعبأ بتقريع **أبِرث**، ولا بالرهبان الذين كانوا يأتون إليّ في القاعة، محاولين أن يفهموا ما حلّ بي! فقد استطالت لحيتي وتشعّثت كثيراً، وطال شَعْري حتّى غطّى كتفَيَّ، ولم أعد أعبأ بالردّ على مَنْ يكلّمني. حتّى الراهب الظريف المكلّف بإيصال الطعام لي لم أكن أعاتبه إن انقطع عنّي يوماً أو يومَيْن.. عندها تركوني أفعل ما أشاء، فقد أيقنوا أنني لم أعد الرجل عينه الذي كنتُهُ حين أدخلوني إلى الدَّيْر أوّل مرّة! ترى هل فكّروا مليّاً بذلك الشيء الذي بدَّلني من صورة إلى صورة، أم أن غرضهم منّي لم يدفعهم لأن يتمتّعوا بالنباهة ليسألوا مثل هذا السؤال؛ عن شخص أصابه من الورق والحبر مَسّ؛ فلم يعد ما كان؟!

أمّا أنا، فكنتُ في هضبة بعيدة، أترنّم بكلمات شيخي الجديد ابن عربي:

- «**لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة**».

الخروج من الدَّيْر

كان يوماً صيفياً، وكنتُ أتفيّأ ظلّ شجرة كستناء عملاقة غربي الدَّيْر، أتأمّل روعة الوجود وطرافته في فراشات صغيرة ترتجف أجنحتها الرقيقة وتنسلُّ من أوراق الشجرة المائلة إلى صفرة ما قبل الخريف، يا الله، كيف يمكن للإنسان أن يسهو عن جمال الكائنات التي تشاركه سكنى عالمه، كائنات صغيرة ضعيفة، لوجودها مغزى عميقاً، رغم سرعة زوالها؟!

أخرجني ممّا أنا فيه صوت خاطبني بالعربية:

- عيسى، أنتَ هنا؟

للمرّة الأولى أسمع العربية منذ زمن طويل! التفتُّ لأرى المتكلّم، كان **محمّد بن حمدان** واقفاً إلى يميني يحدِّق فيَّ بخوف وذهول، وبجانبه الراهب العجوز المكلّف بملازمتي.

نهضتُ بسرعة لكي أسلّم عليه، فاحتضنني بقوّة، وقال وهو يغالب دموعاً ترقرقت في عينَيْه:

- حسبناكَ متَّ.

لم أعلِّق بحرف، ففي تلك اللحظة لم أعِ سبب ظنّه بأنني متّ، ولا مَنْ هم أولئك الذين يشاركونه مخاوفه، حين تكلّم بصيغة الجمع **حسبناكَ!** راح يتأمّل وجهي، وشَعْري الطويل، ولحيتي التي وصلت إلى صدري، كأنه يتحقّق من أن الشخص الواقف أمامه هو نفسه مَنْ كان يبحث عنه.

قلتُ ببرود:

- كم مضى مذ غادرتُ النُّزُل؟

افترّ ثغره عن ابتسامة خفيفة، وشعَّت عيناه بالأمل، فقد أيقن بأنني أدرك ما يدور حولي.

قال بحماس:

- **أربع سنوات** ..

ثمّ قبض على يدي وسحبني لأسير معه وهو يقول:

- هيّا بنا، لنغادر هذا المكان.

يا إلهي! أربع سنوات مضت مثل حُلْم عابر؛ بالكاد أتذكّر نتفاً من تفاصيلها. كيف مضى الوقت سريعاً هكذا؟! كيف؟! في الطريق إلى المبنى، حاولتُ أن أستجمع شتات ذهني، وأن أُرتّب ما استطعتُ تذكّره، ترتيباً يُعينني على فهم ما جرى منذ يوم وصولي إلى الدَّيْر وحتّى هذه اللحظة، فعجزتُ. كلّ ما تذكّرتُهُ هو أيّام متشابهة بين قاعة المخطوطات وحجرتي، وسلاسل وأقفال تُفتَح وتُغلَق، ثمّ تُفتَح وتُغلَق، ثمّ تُفتَح وتُغلَق، ووجوه تعرض لي صباحاً ومساء في طريقي إلى ديوان رئيس الدَّيْر، أو قاعة المخطوطات، تنظر إليَّ بريبة وتمضي، من دون أن أنجح في تمييز وجه من آخر.

حين وصلنا إلى المبنى حيث حجرتي، انتبهتُ إلى أن **ابن حمدان** كان يكلّمني من دون أن أُصغي له، ويسألني أسئلة لم أُجبْهُ عنها. فجأة أوقفَني أمام باب المبنى:

- ما بكَ؟ لم تجبْني على شيء ممّا سألتُكُ؛ هل تركوا لكَ أمتعتك

حين ساقوكَ إلى هنا؟ هل تودُّ أن تأخذ معكَ شيئاً إلى النُّزُل؟ هل تريد منهم أيَّ شيء؟

قلتُ بنبرة باردة:

- لا أريد إلّا جراب أمتعتي؛ ففيه كلّ ما يهمّني.

تقدمني **لازارو** بخطوات واسعة وأنا متوجه إلى حجرتي لأُحضر أغراضي، وطوال سيري خلفه في ردهة المبنى؛ كان الرهبان ينظرون إليّ بإشفاق، وعلى وجوههم علامات الرضا، فالظاهر أن حالي في الفترة السابقة لم يكن يعجبهم، وقد أسعدهم خبر إخلائي من الدَّيْر أخيراً، بعد أن يئسوا من عودتي إلى سابق عهدي كما رأوني في عامي الأوّل، شابّاً نشيطاً، نظيفاً، مُقبِلاً على العمل بانتظام لا تشوبه شائبة.

والحقّ أن الرهبان كانوا في منتهى الظَّرْف والدَّعَة معي، على الرغم من أنني كنتُ أميل للانزواء تجنّباً للمماحكات اللاهوتية العقيمة، وكنتُ أكتفي بعبارات المجاملة متذرّعاً بضيق الوقت، حين يحاول أحدهم فتح حديث معي. والأحاديث في غالبها حول الإسلام، وسيرة النبي صلوات الله وسلامه عليه، وما يُبث حولهما من أباطيل وافتراءات صادرة عن قلوب مريضة.

هيّأ **ابن حمدان** لي حصاناً، فقد كان حريصاً على أن أُرافقه إلى النُّزُل بشكل لائق، وقبل أن أمتطي ذلك الحصان المطهَّم المزيّن بسرج تونسي باذخ، ألقيتُ نظرة أخيرة على الدَّيْر. ثمّة عيون تتطلّع إليَّ من خلف النوافذ المعتمة، كأن أصحابها يخشون أن يراهم أحد متلبّسين بالحزن على فراقي. لم يتغيّر شيء في الدَّيْر مذ دخلتُهُ أوّل مرّة، ولكنه بدا لي، ذلك اليوم، أقلّ ضخامة ممّا كنتُ أراه في السابق، وجدارنه أقلّ ارتفاعاً وأكثر اتّساخاً. أمّا الرياح العابثة بأشجاره، فكان هريرها أعلى بدرجات من أيّ مرّة سابقة. بل؛ بدا لي ذلك الهرير شبيهاً بنشيج أمّهات يندبنَ أولادهنّ.

امتطيتُ الحصان بصعوبة بالغة، فقد أفلتت قدمي من الرِّكَاب مراراً وكدتُ أقع أرضاً؛ لولا يد **لازارو** التي أسعفتني في تلك اللحظات الحرجة. وما إن غادرنا بَوَّابة الدَّيْر؛ وجزنا القنطرة المفضية إلى شارع النهر، حتّى أصابني دوار مادت معه الأرض وآخت السماء.

سألتُ **ابن حمدان** أن نتوقّف قليلاً. هدأنا في ظلّ شجرة حتّى ذهب الدوار واستجمعتُ قواي من جديد، ثمّ سرنا الهُوينى مع جموع السائرين؛ نجرّ حصانَيْنا خلفنا بتؤدة، في شارع يظلّله صفان لنوعَيْن من الأشجار، شجر الكستناء المعمّر، وشجر البلّوط بجذوعه الضخمة.

تغيّر المنظر ونحن نبتعد عن الدَّيْر. بدت ألوان حجارة الأبنية أكثر نصوعاً، وأوراق الأشجار أكثر اخضراراً، وحتّى ماء نهر السين، بدا لي وهو يجري تحت الجسر الجديد المسمّى **بونت نوف**، أزرق أزرق كأنه قطعة من بحر عميق.

انتبهتُ إلى جرحٍ غير ملتئم في عقب قدمي اليمنى راح يؤلمني فجأة، كأنه شُطِبَ للتوّ. لا أذكر متى جُرحتُ ولا كيف!

أوصلَني **ابن حمدان** إلى حجرتي القديمة في الطابق الثاني. كانت كما غادرتُها قبل أربع سنوات، لم يتغيّر فيها شيء البتّة، حتّى قماش الفراش والأغطية، والستارة المجلوبة جميعها من تونس. وفور استلقائي على السرير، بدأتُ أتشمّم رائحة نتنة تنبعث من ثيابي وجسدي. لا أذكر آخر مرّة استحممتُ فيها! وفجأة انتابتْني حَكّة شديدة في جِلْد رأسي انتشرت إلى باقي جسدي، فأيقنتُ لحظتها أن القمل استوطن شَعْري وبات ينهشني نهشاً.

في حمّام النُّزُل المبني والمزيّن على الطريقة الأندلسية، استشعرتُ

الماء مجدّداً كما في مرّات أخرى في أمكنة أُخَر.. طال جلوسي على المقعد الخشبي الخفيض. يا الله؛ ها إن الماء يُحيي مَنْ كان ميتاً .. اغتسلتُ بسعادة، وحلقتُ شَعْري كلّه حتّى كادت الشَّفْرة أن تكشط الجِلْد. وبعد أن برؤتُ من القمل؛ تسوّكتُ، وتعطّرتُ، وعدتُ إلى حجرتي مرتاح البال، لأنام نوماً عميقاً بلا منامات، ولا كوابيس، ولأصحو في فجر اليوم التالي على صوت طَرْقات **ابن حمدان** على الباب يدعوني للصلاة.

استقبلنا صلاة الفجر جماعة مع بعض النزلاء الأندلسيِّيْن، وبعد مجلس ذِكْر، جلسنا نتحدّث وأمامنا مائدة فطور عجيبة. سألني ابن حمدان في حديثنا الطويل ذاك؛ عن كلّ صغيرة وكبيرة وقعت لي، منذ أن غادرتُ النُّزُل. فأخبرتُهُ خبراً مختصراً قدر ما استطعتُ الاختصار، أمّا هو، فاسترسل في إحاطتي بكلّ ما حصل، منذ يوم غيابي وحتّى عثوره عليّ أمس، ولم يفوِّت كبيرة ولا صغيرة.

وممّا جرى من حديثه الطويل، أن **أحمد بن قاسم الحجري** حضر بعد ثلاثة شهور من مغادرتي النُّزُل وسأل عنّي، فأخبره **ابن حمدان** أنني غادرتُ إلى **إسْطَنْبُل**. وكان **الحجري** يحمل كُتُب توكيل من الأندلسيِّيْن الذين نهبهم ربابنة السفن الفرنجية المستأجرة لنقلهم إلى بلاد المغرب، بعد نفاذ مرسوم طاغية إشبانية **فيليب بن فيليب**.

وكما جرى معي؛ وقع الحجري بين براثن **أُبِرت** وهو يبحث عمّنْ يوصله إلى الملكة الوصية **ماريا التُّوسْكَانِيَّة**. فحاول **أُبِرت** مساومته على التوسّط له لدى الملكة، مقابل تدقيقه لترجمات كان يقدّمها له، وهي، في حقيقة الأمر، ترجماتي التي كنتُ أُنجزها له في الدَّيْر. ولكن **الحجري** لا يُؤخَذ على حين غِرَّة، وكان أكثر دهاء من أن يُسلِم قياده لأُبِرت، فعثر على طريقة للوصول إلى حاشية الملكة، ونجح في مسعاه عندها،

فأعطتْهُ كُتُب توصية للقضاة، ومنهم القاضي المكلَّف بأمور الأندلسيِّيْن المقيم في مدينة **بُرضُيُوش**، بأن يحكموا بالعدل في قضايا النهب التي تعرّض لها الأندلسيون، وأن يعيدوا الحقوق لأصحابها، مؤكّدة عليهم بعدم التهاون في الأمر، كون أحمد بن قاسم مبعوثاً شخصياً لـ **الرجل الكبير**، أي **سلطان المؤمنين** في إِسْطَنْبُل، كما يسمّونه.

ومع ذلك، وبسبب إلحاح أُبِرت، تمنَّت الملكة على **أحمد بن قاسم** أن يعلّمه حروف الرمز وقِيَمها العددية، لكي يفهم أموراً مستعصية عليه، تتعلّق بديوان **سلطان مُرَاكُش**، ولكن **أحمد بن قاسم**، المعروف بصبره على المماحكات، وولعه بالجدالات

اللاهوتية، جعل **أُبِرت** يعاف لقاءه، ويتمنّى أن يفارقه في أقرب وقت، ولذلك تركه يمضي في حال سبيله قبل أن يتعلّم قراءة الوفوق العددية المشهورة في بلاد المغرب.

مضى أحمد بن قاسم إلى بُرضُيُوش للقاء قاضي الأندلس، وهناك نجح في استخلاص ما قيمته ألف أوقية فضّة بحساب المغرب، من الربابنة الناهبين، أرسلها إلى موكّليه الأندلسيِّيْن المنهوبين، فوُزِّعت عليهم كلٌّ بحسب حصّته، ثمّ بعد مدّة أمضاها في الجدالات مع قاضي الأندلس وقَسّ المدينة، توجّه في قارب نهري إلى مدينة طُولُوث، وحصَّل بعض الحقوق من قاضيها، ولم يفتْهُ أن يجادل رجال الكنيسة فيها.

وكان **الحجري** يعلم أن قضاة فَرَانْصَة مُكرَهون على تلبية توصية الملكة، ولذلك قرّر التماس المعونة من أمير بلاد **فلانضس** المقيم في مدينة **ألَهايَه**، لنقل الأندلسيِّيْن العالقين في بلاد فَرَانْصَة، لعلمه أن الفلامنك كانوا يكنُّون العداء لإشبانية والكاثوليك على وجه العموم، كونهم أتباع نِحْلة

قَلْبِن و**لُوطِري**، ويميلون إلى العطف على الأندلسيِّيْن، فسافر إلى بلاد **فلانضس** بحراً، ومن هناك أرسل كتابه الأخير لابن حمدان يحيطه علماً بما وقع له خلال عام من التنقّل بين **فَرَانْصَة** وبلاد فلانضس، قبل أن يعود إلى **بَرِيْش** من جديد ويمكث فيها عاماً ونصف العام، ينتظر وصول كُتُب **السلطان أحمد** التي يأمر فيها باستقبال الأندلسيِّيْن المطرودين من بلادهم، في إيالات **الجزائر**، و**تونس**، و**طرابلس**، و**مصر**، وتقديم يد العون لهم من جانب ولاته.

وأخبرني **ابن حمدان** أن أسئلة **الشريف الأندلسي** عنّي لم تنقطع يوماً، وأنه كان يُلحُّ عليه في كلِّ كتاب أن يبحث عن أيِّ خبر يقود إلى معرفة مصيري. أمّا الحجري، فقد سافر إلى أَلَهايَه مرّة أخرى قبل شهور قليلة، لنقل رسائل وصلتْهُ من السلطان أحمد إلى أمير فلانضس، ومن أَلَهايَه أرسل كتاباً إلى ابن حمدان، يطلب فيه مساعدة امرأة، يهمّه أمرها، في السفر من بَرِيْش إلى **مِستِرْضَام**، بمنتهى السِّرِّيَّة، وإرسالها إلى ربّان سفينة أميرية بعينه.

وقع ذلك كلّه قبل أن يزور **أُبِرت** ابن حمدان، ليخبره بأنه مُزمِع على السفر إلى مدينة **أوزلِيَان** للاستجمام، بعد أن أصابه مرض غامض، ولكي يحيطه علماً بأنه علم قبل أيّام قليلة باحتجازي في **دَيْر القِدِّيْس جِرمِن**، ويطلب منه أن يتكفّلني أمام رئيس الدَّيْر، لأنني فقدتُ عقلي!

إذن؛ **أُبِرت** هو الذي أخبر ابن حمدان عن مكاني قبل سفره، وهذا الأمر ما زال يحيّرني حتّى اليوم، أَهو صحوة ضمير مفاجئة أم تلبية لطلب رئيس الدَّيْر بالتخلّص منّي بعد أن يئس من عودة وعيي؟! لقد فوجئ ابن حمدان حين أخبرتُهُ بأن أُبِرت هو الذي أوقع بي. لم يصدّق أنه كان بارعاً في إخفاء فِعلته أربع سنوات من دون أن تفلت منه عبارة صغيرة تفضحه، وهو يرى انشغالهم بالبحث عنّي.

بعد أيّام استعدتُ فيها صحّتي، ونشاطي، وصفاء ذهني، سألني ابن حمدان عن خططي لأيّامي المقبلة، وما إذا كنتُ مزمعاً على السير إلى **إسْطَنْبُل** من جديد؟

وللحقّ؛ باغتَني السؤال، إذ لم أكن أملك جواباً عنه لحظتها، فطلبتُ مهلة كي أفكّر.

في مساء ذلك اليوم؛ جلستُ في حجرتي أقلّب الأمور على وجوهها، وتيقّنتُ من أن إسْطَنْبُل لم تعد هدفي الأوّل، فمِن رابع المستحيلات أن تبقى **فيروزة** عزباء حتّى اليوم. ثمّ هَبْ أنها لم تتزوّج؛ ماذا أقول لها بعد هذه السنين؟ وهل ستتذكّرني حقّاً إن ذهبتُ لأطلب يدها للزواج؟ هذا ما يخصّ فيروزة، أمّا **دُون خيرونيمو راميريز**، فهل سأصل إليه بهذه السهولة؟ وإذا وصلتُ؛ ماذا سأفعل به؟ أقتله؟ وإذا قتلتُهُ؛ ما يدريني أنه كان صادقاً في إسلامه، وتاب توبة نصوحاً؟ ثمّ؛ ألا يُعدّ سعيي للانتقام منه معاندة لأمر الله؟ ألم ينه شيخنا ابن عربي عن الانتقام؛ لأن الله عزّ وجلّ خلق العالم بالرحمة لا بالانتقام؟

ستمرّ أيّام، من المراجعة، والتأمّل، والتفكير، استخرتُ معها قلبي ما رجّحه عقلي، وأخبرتُ ابن حمدان أنني متردّد في الذهاب إلى إسْطَنْبُل، وهي الآن عندي، مثلها مثل أيّ مدينة أخرى من مُدُن المسلمين، مثل مُراكُش، والجزائر، وتونس، ومصر .. ولو أن قلبي بات يهفو إلى **دمشق الشام**، فلربّما فتح الله فيها عليّ كما فتح على محيي الدِّيْن!

تبسّم ابن حمدان وهو يسمع اسم محيي الدِّيْن، ولا أعرف بماذا فكّر لحظتها، ولكنه قال فجأة:

- في الأحوال كلّها؛ وأيّاً كان قرارك، سأرسلكَ إلى **مِستِزِضَام** في قافلة

تسافر فيها امرأة أوصى بها أحمد بن قاسم الحجري، حتّى لا تقع في الأسر مجدّداً، وسأوصي ربّان السفينة الفلامنكية بأن يُنزلكَ حيث تشاء.

بعد أسابيع قليلة من حديثنا هذا، نجح ابن حمدان في الوصول إلى قافلة تجارية متوجّهة إلى بلاد فلانضس، وسلّم قائدها كتاباً ممهوراً بخاتم أمير الفلامنك، وأفهمه ما ينبغي عليه فعله بشأني وشأن المرأة، فارتديتُ ثياب تاجر ثري، وامتطيتُ الجواد المطهّم الباذخ، وانضممتُ للقافلة المكوّنة من ثلاثة وعشرين مسافراً فلامنكياً على أحصنتهم، معظمهم من التجّار، وعربتَيْن للنساء، تجرّهما الخيول، وخمس عربات للبضائع.

ومضينا شمالاً نطوي البلاد والحقول والمزارع، في طريق بعضها معبّد بالحجارة، وبعضها موحِل، يفصل بين مراحلها محطّات للمنامة وشراء الحوائج. ولم يُوقِفنا أحد من قطّاع الطُّرُق، ولا من جنود فَرَانْصَة طوال رحلتنا، بسبب رفعنا عَلَم بلاد فلانضس. وبعد نحو أسبوعَيْن وصلنا إلى مِسْتِرْضَام التي أذهلتْني زينتها ونقاء جوّها، وكثرة أهلها. فهي في عمارتها تعدل بَرِيْش إتقاناً، ولكنها أجمل في زينتها واعتناء أهلها بتزويق بيوتهم بالألوان العجيبة من أعلاها إلى أسفلها. ولم أرَ فيها بيتاً يشبه في رقمه وتلوينه بيتاً آخر. أمّا أزقّتها، فمرصوفة بالحجارة المُثبَّتة. وكان فيها تجّار وبحّارة طافوا مُدُن العالم بأسرها، من جزر الهند الشرقية، إلى بلاد الصقالبة. وقد أخبرني الربّان المكلّف بنقلنا في السفينة الأميرية، أن مَرسَى هذه المدينة العجيبة يتّسع لستة آلاف سفينة، كباراً وصغاراً في آن معاً!

بعد أيّام من مكوثي في نُزُل قريب؛ أرسل الربّان الفلامنكي مَنْ يخبرني بأن أستعدّ للسفر مساء اليوم ذاته، لأن الرياح كانت مواتية، وقد هيّأتُ نفسي لمثل هذا الأمر، فأسرعتُ إليه، وسرعان ما عثرتُ عليه بين الربابنة الذين كانوا ينتظرون هبوب الرياح. وحين رآني سألني بشيء من الغضب:

- أين المرأتان التركيّتان اللتان سترافقانكَ إلى القسطنطينية؟

فاجأني كلامه؛ عن أيّ امرأتَين تركيَّتَيْن يتحدّث؟ سمعتُ عن امرأة واحدة، ولم أعلم أصلاً بأنها تركية! فأعاد الحديث مجدّداً عن المرأتَيْن اللتَيْن حضرتا معي من بَرِيْش .. وقبل أن أُجيبه تبسَّم وهو يشير إليهما ويقول:

- ها هما حضرتا، هيِّئوا أنفسكم للصعود.

التفتُّ إلى الخلف؛ فرأيتُ امرأتَيْن إحداهما شابّة والأخرى في منتصف العمر، ترتديان زِيّ نساء بلاد فلانضس الثَّريَّات. وحين اقتربنَ أكثر لم أصدّق ما تراه عيناي! للحظات ظننتُ أنني فقدتُ عقلي، فاكتفيتُ بالتحديق إليهما بذهول، ثمّ تسلَّلت يدي إلى جيب سترتي الداخلية تتفقّد منديل النَّارَدِيْن .. عندها ارتسمت ابتسامة غريبة على وجه الشابّة وهتفت بلهجتها التركية:

- أنتَ عيسى الأندلسي .. أليس كذلك؟

حقّاً ... لم أتمالك نفسي وأنا أراها تخطو نحوي .. فأجدني أخطو أنا الآخر نحوها ... لكنها توقّفت، وأصابع كفَّيْها الغائبين في قُفَّازَيْن أسودَيْن، تُداري ارتباكاً مَشُوباً بالانبهار:

- عيسى ...!

- نعم، أنا عيسى ..

أجل؛ كانت **فيروزة** وأمّها **إيبرو** تقفان أمامي بشحمهما ولحمهما، كما يقف القدر نفسه في وجه الزمن .. وأين؟! في مَرسَى مِسْتِرْضَام! ها هي فيروزة، صارت أجمل، وقد تفجّرت أنوثة. كانت لحظة مسروقة من

الفردوس، لم أتمالك نفسي وأنا أراها فاتحة ذراعَيْها، فضممتُها بقوّة، ورفعتُها على صدري عالياً وصرتُ أدور بها، وسط ذهول الريّان وبحّارته، وتصفيق العابرين الذين تجمّعوا حولنا هاتفين بعبارات لم نفهمها، وإن كانت ابتساماتهم وضحكاتهم تُفصح عن فحواها.

- نحن في المركب نفسه.

ابتسمتْ بحياء يصرع الفارس، والعالم، والصوفي. ومن فورنا صعدنا سُلَّم السفينة، واتّخذنا أماكننا المحدّدة سلفاً في أفضل القمرات وأرفعها. هناك، ليس بعيداً عن نظرات أمّها التي كانت تحوك قطعة صوف حمراء مورَّدة، بدأت **فيروزة** حديثاً متّصلاً، منفصلاً، يشبه قرص العسل من فرط حلاوته، لن ينتهي حتّى وصولنا إلى **إسْطَنْبُل**.

سِفر فيروزة
في خمسة فصول

وهي: 'النوتي الآثم'، و'قرصان البندقية'، و'وَلَهُ الملكة'، و'الهروب من بريش'، و'عودة الروح'

النوتي الآثم

أخبرتْني فيروزة بفَرَانْصَاوِيَّة بَرِيْش التي باتت تجيدها كإحدى بناتها، أنها رأتْني بين جموع الصاعدين إلى قادس البُنْدُقِيَّة في مَرسَى **ميِّت إسْكِلَة سي** ، إلى جانب سفينتهم. حيّرها أمري، وجعلها تضرب أخماساً بأسداس، هل هي رحلة قصيرة أم طويلة؟ وهل سأعود؟؟

حين تحرّكت سفينتهم، أشارت فيروزة نحو القادس الذي يتبعهم وقالت لوالدها إنها رأتْني صاعداً إليه، وسألتْهُ إن كان يعلم بسفري؟ فبدت الدهشة على وجه حاجي رمضان، وقال لها مستغرباً:

- لم يخبرني عيسى شيئاً عن ذلك، ترى هل سيفي بوعده لعلي رضا كما أوفى بوعده لي؟

يومها بدأت فيروزة تحدّث نفسها بأنها ستتوقّف عن التفكير بي، لأنها لا تريد أن تتعلّق برجل لا تدري إن كانت ستراه مرّة أخرى أم لا. ولكنها؛ كلّما نظرت إلى سفينتنا وهي تقترب من سفينتهم في مضيق **جنق قلعة بوغاز** قالت لنفسها:

- نظرة أخيرة وأنساه بعدها!

قبل أن تنحرف سفينتهم يساراً، متّجهة صوب الجنوب، نحو **جزيرة رودوس**، كانت سفينتنا قد تجاورتْها متّجهة نحو الغرب. إذ ذاك باتت المسافة بين سفينَتَيْنا أقرب من أيّ وقت مضى، وكادتا أن تتلامسا، فتجمّع

الركّاب على الجهتَيْن المتقابلتَيْن. وكما أخبرتْني، وعلى وجنتَيْها حمرة خفر العذارى، كانت مندهشة من غيابي عن جموع ركّاب سفينتنا المصطفّين على برامق القادس وتفاريجه.

تأسّفتُ لها كثيراً على سوء حظّي، لأن قبطان القادس منعني من التوجّه إلى هذا الجانب من السفينة، بعد أن بات عدد الواقفين على جهة واحدة مقلِقاً؛ يُنذِر بغرق السفينة.

نظرتْ إليّ وقالت وهي تبسم بحياء:

- لقد حمدتُ الله أنني لم أركَ في تلك اللحظات.

لم أفهم بداية لماذا لم تكن ترغب في رؤيتي آنذاك، ولكنني ضحكتُ من أعماق قلبي حيت أردفت:

- قلتُ لنفسي إن رأيتُ عيسى، فستكون تلك النظرة الأخيرة، وإن لم أره، فهذا فأل خير!

ملأت السعادة قلبي وأنا أسمع الجملة الأخيرة، فهذه علامة من علامات العشّق الكبرى .. يا فيروزة الحبيبة؛ هو العشق الذي يصيِّر العاشق مدمناً المقامرة بكلّ شي. يقامر العاشق بحَبَّة قمح في فم نملة، تقول له نفسه؛ إن سقطت قبل وصول النملة إلى جُحْرها، فهذا فأل سيِّئ، وإن نجحت، فهو فأل خير. قد يقامر بغيمة تحجب الشمس بعد شَفْع أو وَتْر .. قد يقامر بِبَتَلات زهرة بين نعم ولا .. قد يقامر بفراشة إن كانت ستحطّ على زهرة أم على غصن.

بعد يومَيْن من الإبحار فاجأتهم أمواج عاتية وأمطار غزيرة ألجأتْهم للاحتماء بجزيرة قريبة، أخبرهم الريَّان، وكان تونسياً من أصل أندلسي يُدعى **الرايس إبراهيم**، أن اسمها بالتركية سوسام، وبالإغريقوية **ساموس**.

كانت الجزيرة خالية إلّا من سريّة للإنكشارية، لا عمل لها سوى منع قرصان البُنْدُقيَّة من الاستيلاء عليها، وثمّة عائلات من فلّاحي التركمان، جُلِبوا من الأناصول لتعميرها، بعد قرن كامل على طرد القراصنة. وهناك طائفة من الصيّادين الإغريقو بنوا أكواخهم قرب الماء، وامتهنوا بيع السمك الطازج والمملوح للسفن التي تدفعها الرياح إلى شواطئ الجزيرة.

عدد ساكني الجزيرة أقلّ بكثير من مساحتها، ولذلك نَمَتْ فيها حقول السِّمْسِمِ حتّى طغت على كلّ شي، كما أخبرهم الرايس إبراهيم، أمّا فيروز، فأخبرتني أنها أطلقت عليها اسم **جزيرة العصافير**، بسبب ما لاحظت من اجتماع عصافير الأرض كلّهم فيها!

كانت فيروزة تستمتع أشدّ الاستمتاع بقصص الرايس إبراهيم عن الحروب البحرية والقرصان، والتي كان يرويها بتركية صافية، وهي كانت تحفظ كلّ ما تسمعه منه، وتعيده عليّ كأنه مكتوب على صفحات ذاكرتها بمِدَاد لا يحول.

لم تطلْ إقامتهم على جزيرة السِّمْسِم، فبعد سبعة أيّام توقّفت الأمطار، وهبّت ريح خفيفة مواتية للإقلاع، فأبحروا نحو جزيرة رودوس. وبعد خمسة أيّام من الإبحار الرائق، تخلَّلتْها توقّفات قصيرة قرب جزر خاملة الأسماء، لاحت لهم من بعيد مئذنة عثمانية ذات قَلَنْسُوَة مخروطية؛ أخبرهم الرايس إبراهيم وهو يشير بعصاه، أنها **جزيرة رودس**، محطّتهم الأخيرة قبل الانطلاق بقفزة واحدة، ومن دون توقّف، إلى مَرسَى **الإسكندرية**.

في طريقهم نحو المَرسَى الصغير؛ روى **الرايس إبراهيم** قصّة فتح هذه الجزيرة كما سمعها من بحّار جزائري طاعن في السِّنِّ، من بطانة أمير البحر الشهير **الرايس خضر بن يعقوب**، المعروف عند الفرنجة باسم **باربروسا**.

وقد روتها **فيروزة** باستفاضة لِمَا لها عند التُّرك من ذكرى يعدُّونها من أهمّ مآثر السلطان سليمان، كونه هبّ للانتقام من قراصنة **الأسبتارية**، بسبب سطوهم على سفينة للحُجَّاج انطلقت بنفقة ورعاية منه، وأسرهم لبعض ركَّابها، وقتل مَنْ قاومهم، ومن بينهم شيخ له حرمة كبيرة عند التُّرك. وفي تلك المعركة البحرية الكبرى صمد السور المنيع أمام القذائف الحجرية، واستبسل فرسان الأسبتارية ومَنْ معهم من القراصنة في دفاعهم، وأحبطوا محاولات التسلّل جميعها. ولكن السلطان، المشهور بجبروته وصبره، قرّر مواصلة الحصار مهما طال الزمن. ولم يحلّ فصل الشتاء، بمطره وبرده، حتّى نفدت الذخائر والمؤن داخل السور؛ وأكل الفرسان أحصنتهم، ثمّ الكلاب والقطط، وأشرفوا على أكل موتاهم. وبعد أن يئسوا من وصول سفن صِقِلِّيَة، وقَشْتَالَة، وجِنْوَة، والبُنْدُقِيَّة، آثروا التسليم مقابل ضمان نجاتهم.

في أثناء فترة الانتظار الطويلة في عمارة الجزيرة انتظاراً لريح مواتية، دهمت فيروزةَ واقعة كادت أن تودي بحياتها، وأن تُشعل حرباً بين **صوباشي الجزيرة**، والرايس إبراهيم ربّان سفينة الصُّرَّة السلطانية. ومختصر القصّة التي روتها لي فيروزة بكثير من الاستطراد والترسُّل، واستغرقت عشر ليالٍ، من **مَرسَى البركة** في بلاد فَرَانْصَة على **بحر الظلمات**، إلى مَرسَى **قَادِش** في أقصى الغرب من بلادنا الأندلس، قالت فيروزة إنها اعتادت وإحدى صويحباتها اللواتي تعرّفتْ إليهنّ على مَتْن السفينة، أن تسيرا كلّ يوم نحو ينبوع ماء ليس بعيداً عن **العمارة**، تتريّضان بالخضرة والماء، وتقضيان وقتهما بتبادل الأحاديث والقصص والأخبار. وما شجّعهما على التوغّل بعيداً، ذلك الأمان الذي تنعم به الجزيرة، بهمّة جنود السلطنة الذين اختيروا بعناية فائقة، لأن السفن التي ترسو عادة هي سفن تقلّ علية القوم، وتحظى برعاية السلطان والصدر الأعظم. كان منظر الينبوع ودَغَل الرمّان والتين والزُّعْرُور المحيط به غاية في الجمال.

في يوم مشمس، ظهرت لفيروزة في وسط هذا الدَّغَل أكوام من الحجارة المصفوفة شمالاً وجنوباً، سرعان ما ميّزتها **قبوراً للمسلمين**. استغربت الأمر، لأن الرايس إبراهيم لم يخبرهم بوجود مسلمين على الجزيرة قبل فتح السلطان سليمان لها.

التقطت حجراً مكسوراً كان فيما مضى شاهدة كما يبدو، ففوجئت بخطّ البسملة الغريب، غير المنقّط. ولمّا أمعنت النظر حولها رأت عشرات القبور، وميَّزت بينها شواهد محطّمة، فراحت تتهجّى حروفها بصعوبة بالغة، وكان فيها أسماء صحابة، وأسماء بلاد للمسلمين، مثل دمشق والأردن وفلسطين. لم تعرف فيروزة يومها ما الذي جلب تلك القبور والشواهد إلى هنا، ولمّا أبدت لي حَيْرَتها من الأمر أخبرتُها بأنها عثرت على مقبرة للمسلمين من أيّام بني أميَّة. وسردتُ على مسامعها خبر فتح هذه الجزيرة على يد جند معاوية بن أبي سفيان، فاستغربت أشدّ الاستغراب.

قالت فيروزة إن رفيقتها سئمت من حديث الحجارة والأسماء العربية القديمة، فتركتها في تجوالها على الشواهد الغريبة وانسحبت نحو العمارة. وحين أتت على الشواهد جميعها وقفلت عائدة إلى العمارة، إذا بها تفاجأ برجل يقف أمامها شاهراً خنجراً. أيّ فزع جعلها تتذكّر أنه أحد بحّارة السفينة!

بحثت عن رفيقتها يمْنَة ويَسْرَة، فلم تجدها في الجوار. أدركت أن هذا **النوتي** الذي كان يراقبها منذ أيّام، وجد الفرصة للانفراد بها، وقد تأكّد من مغادرة رفيقتها، فأقبل أملاً بإشباع **شهوة نجسة** استحوذت على عقله منذ أن رآها في المَرسَى أوّل مرّة.

قال لها وهو يلهث مثل كلب مُتعَب:

- لن أؤذيكِ؛ شيء واحد، إن منحتِيني إيّاه تركتُكِ تعودين بسلام، وإن رفضتِ أجبرتُكِ عليه وقتلتُكِ ودفنتُكِ هنا بين هذه القبور.

أدركت فيروزة أنها النهاية، فحاولت أن تماطلَه، لعلّ والدها أو والدتها ينتبهان لغيبتها، فيحضران لإنقاذها.

قالت للبحّار:

- أترضاها لأختكَ؟

قال وهو يضحك ضحكة صفراء:

- لا أخوات لي.

- لأمّكَ؟

قال وهو يشخر كخِنْزِير مُتخَم:

- أمّي فعلتْها قبلكِ، ولا أعرف عدد الرجال الذين ضاجعوها، ولا مَنْ يكون والدي.

قالت برجاء:

- نحن حُجَّاج بيت الله، ألَا تخاف الله؟

قال وهو يضحك بفجور:

- أنا مملوك أُجبرتُ على اعتناق دِيْنكم الذي أكرهه.

ثمّ اقترب منها وأمسك بها من ياقتها، وراح يمرّر الخنجر على رقبتها:

- اخلعي ثيابكِ هذه التي تشبه أقمطة الطفل، هيّا، واستلقي هناك على العشب حتّى آتيكِ.

قالت بتحدٍّ:

- لن تتمكّن منّي حتّى تذبحني.

جالت بنظرها تنشد مهرباً، وهي تحاول أن تخفي رعبها من نظراته الشبقة الحادّة، وقد أخرج من عُبّه الفضفاض زَقّاً بحجم قبضة اليد، فيه خمر، عبّ منه عبّة كبيرة، وصاح بها:

- مهما فعلتِ، حَيَّة كنتِ أم ميتة لا يهمّني، سأنال منكِ وأُسعدكِ .. الأسلم لكِ أن تحفظي حياتكِ، وأن تساعديني على أن نُنهيَ هذا الأمر بسرعة .. صدّقيني ستسعدين بما لديّ.

في هذه اللحظات لمحت فيروزة والدها من بعيد يتقدّم بحذر حاملاً عصاة جوز، وقد أدرك ما يجري، فاطمأنّت، وتشجّعت على خداع النوتي ومسايرته.

- حسناً، كما تريد، سأخلع ثيابي أمامكَ، ولكنْ، لا تنظرْ إليّ.

عَلَت ابتسامة الشهوة محيّاه:

- بل سأنظر إليكِ، وأرى كلّ ثَنْيَة من ثَنَيَاتكِ.

وراح يعبّ الخمرة من الزّقّ عَبّاً، وهو يشخر مثل خِنْزِير.

كانت قمصان فيروزة الداخلية معقودة بسيور تبدأ من الرقبة وتنتهي عند أسفل بطنها، شرعت في حلّ السيور ببطء شديد، وعلى محيّاها ابتسامة مخادعة، كانت ترمي من ورائها لإشغاله وإغرائه بالتحديق. وقبل أن تنتهي كانت عصا حاجي رمضان قد ضربت أمّ رأسه، فسقط أرضاً مَغشِيّاً عليه. لَحْظَتَئِذٍ، أعادت فيروزة ربط سيور ثوبها بسرعة، وأرخت

خمارها على وجهها، وانكبَّت على صدر والدها وهي تجهش بالبكاء، غير مصدّقة أنها نجت. وما هي إلّا لحظات حتّى حضر جمع من جند العمارة، واقتادوا **النوتي الآثم** الثمل، وقد سال من رأسه دم غزير.

دبّ الخلاف في العمارة بين **الرايس إبراهيم** و**الصوباشي**، أيّهما صاحب الولاية على النوتي. كان الصوباشي يريد، كما قال، أن يرسله مخفوراً إلى **إسطَنبُل**، لينال جزاءه هناك بعد أن يعرضوه على القاضي الموكَّل بمثل هذه القضايا، بينما كان الرايس إبراهيم يريد أن يقيم عليه حَدّ القصاص بنفسه، كونه مملوكه، وهو وَلِيّ أمره. لم تُفلِح محاولات الرايس إبراهيم كلّها في ثَنْي الصوباشي عن قراره، فقد بدا مُصمِّماً على رأيه، فما كان من الرايس إبراهيم إلّا أن تحين الفرصة، بعد إقامة صلاة الفجر، واقتحم، على رأس نخبة من رجاله، سجن العمارة، واقتاد النوتي المجرم أمام أعين الجنود المذهولين، الذين ألجمتْهم المفاجأة. فطلب الرايس من مملوكه في ساحة العمارة أن يجثو على ركبتَيْه، وصاح بأعلى صوته مخاطِباً الصوباشي الذي كان ينظر إليه من نافذة حجرته في الطابق الثاني من العمارة:

- أيُّها الصوباشي، هذا الآثم مملوكي، وحسابه معي أنا، وأنا فقط.

ثمّ صوّب غَدَّارَته إلى رأس النوتي، وأطلق طلقة واحدة؛ فارق على إثرها الحياة. كان الرايس إبراهيم يعرف أن عار مملوكه سوف يبقى ملازِماً له طوال حياته، إن لم ينفّذ فيه حَدَّ القِصَاص، ولذلك هيّأ نفسه لمعركة طويلة، إن تشبَّث الصوباشي برأيه.

بعد القِصَاص حمل النوتية زميلهم المقتول، وألقوا به في عرض البحر طعمة للأسماك الجائعة، فالنوتيُّ المجرم لا يستحقّ شرف الدَّفْن تحت التراب، كما قال الرايس بعد أن هدأت ثائرته.

من حُسن طالعهم أن رياحاً مواتية هبّت مساء ذلك اليوم الصاخب، وعزم الرايس إبراهيم على اغتنامها، فأمر نوتيّته بتوجيه قلوعهم إلى جهة الجنوب، منحرفة درجة واحدة باتّجاه الشرق، لتنساب سفينة الغليون بصواريها الثلاث مبتعدة عن المَرسَى، تُشيّعها نظرات الصوباشي المتوعّدة بالانتقام.

وحين أوغلت السفينة في البحر، دعا الرايس إبراهيم حاجي رمضان إلى عشاء في مقصورته الخاصّة، وأبدى له عظيم الاعتذار، وهو يُقسم أمامه بأنه لن يوظّف مملوكاً على ظهر سفينة يقودها بعد اليوم. وحين سأله حاجي رمضان عن سبب قتله النوتي بيده، ولم يمكّن الصوباشي من إرساله إلى **دار السعادة**، قال:

- يا حاجي؛ إن وصل هذا المملوك الآثم إلى دار السعادة، فلن يُعرَض على قاضيها، بل سيُرسَل إلى نخَّاس بعينه، يتصيَّد هذا الصنف من سَفَلَة المماليك وأراذلهم، لكي يرسله إلى **مصر** .. فكلّما كان المملوك سيِّئ الطِّباع، كانت حظوظه في **مصر** أكبر، ولا تستغربنّ، يا حاجي، إن رأيتَهُ في **مصر** بعد سنوات قليلة قائد ألف، أو محتسباً، أو شيخ بلد!

قرصان البُنْدُقِيَّة

بحر الظلمات لا يشبه بحر الروم في شيء، هنا الماء يُوغِل في الزُّرْقة حتّى السواد، يُوغِل في البرودة .. يُوغِل في الخطر.

بعد مبارحتنا مَرسَى **قادش**؛ أسكتت أنواء الصباح فيروزة عن الكلام المباح، بدت الأمواج في ارتفاعها أشبه بجبال شاهقة تعدو نحونا، وسفينتنا تتأرجح عليها مثل ريشة في مهبّ. كان الموت قريباً؛ رأيناه بعيوننا وهو يعربد حول السفينة، ويرشق وجوهنا بمياه أجاج معربدة.

في تلك الأنواء الضاجَّة بأصوات الاستغاثات وطلب الرحمة والمغفرة من الله بألسن شتّى، التصقت بي فيروزة وأحاطتني بيدَيْها كلتَيْهما، وأمّها خلفها تتشبّث بها بيدَيْن راجفتَيْن، وأنا قابض بيدَي الاثنتَيْن على حبل الصاري، أحاول بما ملكت من قوّة أن أتلافى الوقوع على سطح السفينة المضطرب.

لا أدري حينها ما الذي اعتراني، شيء لم أستشعره من قبل، خوف ممتزج بحبّ جارف .. رهبة من جبروت السماء، يداخلها شبق غريب دفق معه مائي .. بعدها تقهقر النوء الغريب؛ وهدأت الأمواج وتراجعت إلى عمق المحيط؛ كأنها لم تكن. وظلّ ساعدا فيروزة يحيطان بي وعيناها تنظران إلى عينَيَّ كأنها تراهما للمرّة الأولى. لن أنسى طوال عمري ساعات الصمت الطويلة التي تلت ذلك النوء حتّى بلغنا مَرسَى **جبل طارق**.

ساعات صمتت فيها الألسن وقالت العيون كلّ شيء، ساعات أيقنت بعدها أن فيروزة قبضت بكفّها على قلبي وملكتْهُ، فبات لها.

لم نَبِتْ في مَرسَى جبل طارق سوى ليلة واحدة، أقلعنا بعدها، قبل مطلع الفجر، قاصدين بحر الروم. ومع إشراقة الصباح، عادت فيروزة إلى الكلام المباح، بعد صمت تواصل منذ غادرنا **مَرسَى البركة** على بحر الظلمات.

قالت فيروزة إن النوتية، وبعد مبارحتهم جزيرة رودس مساء، وجدوا أنفسهم، في صبيحة اليوم التالي منحرفين غرباً بسبب الرياح المتبدّلة. حاولوا قدر ما يستطيعون العودة إلى المسار الذي حدّده لهم الرايس إبراهيم، ولكنهم لم ينجحوا في مسعاهم إلّا مع حلول الظهيرة، حين ظهرت لهم من جهة الشرق، جزيرة متطاولة أخبرهم الرايس أن اسمها **جزيرة قرباطوس**. وما إن ابتعدوا قليلاً عن تلك الجزيرة حتّى ظهرت لهم ثلاث شلنديات مزوّدة بالمدفعية، لم يثرْ ظهورها المباغت في بداية الأمر أيّ مخاوف للرايس إبراهيم ولا لنوتيّته، فقال للركّاب المذعورين:

- ثمّة عهود خاصّة مع البنادقة والجِنْوِيِّيْن وغيرهم من **قرصان البحر**، تحمي السفن السلطانية من أيّ تعرُّض أو هجوم.

وأردف بثقة بالغة:

- لن يتعدّى غرض القرصان؛ التحقّق من وجهة السفينة السلطانية، بسبب انحرافها الطفيف عن مسارها.

ولكنْ، وبينما كان الرايس يُطمئِن الركّاب، فُوجِئ بسفينة من سفن **القرصان** الثلاث تلتحم مع سفينته، ليقفز إليها بضعة رجال بقبّعات كبيرة غريبة الشكل، وهم يصرخون شاهرين غَدَّارَاتهم وسيوفهم القصيرة، كأنهم شياطين!

شهر الرايس غَدَّارَته متوعّداً القرصان بالثبور وعظائم الأمور، وأحاط به نوتيّته الشجعان بسيوفهم وخناجرهم وغَدَّارَاتهم. سادت لحظات صمت، صاح **القرصان** بعدها بتركية ركيكة:

- أيُّها القبطان، لا نريد بكم شرّاً، وسفينتكم ليست هدفنا.

ردّ الرايس إبراهيم وهو يصوّب غَدَّارَته نحو القرصان:

- إذنْ، غادِرْ ورجالكَ حالاً قبل أن نجعلَكُم طعمة للأسماك.

تبسّم **القرصان** هازئاً، ثم أشار بيد زيّنت بعض أصابعها خواتم فضِّيَّة، ذات أحجار كريمة فظَّة، إلى السفينتَيْن المتأهّبتَيْن لإطلاق المدافع وهو يقول:

- نريد شخصاً بعينه على هذه السفينة.

صاح الرايس إبراهيم:

- وإذا رفضتُ؟

ردّ القرصان:

- لطالما كانت عاقبة الرفض في عُرفي وخيمة.

نظر **الرايس إبراهيم** إلى رجاله المتحفّزين وصاح بالقرصان:

- مَنْ يكون هذا الشخص الذي تريدونه؟ وما أدراكم أنه على متن سفينتنا.

قال القرصان:

- اسمه **حاجي رمضان**.

فوجئ الرايس إبراهيم بالاسم، فصرخ غاضباً:

- قلْ للصوباشي إن الحساب سيكون عسيراً.

لقد ظنّ الرايس إبراهيم أن **صوباشي جزيرة رودس** هو مَنْ أرسل القرصان لاختطاف عائلة حاجي رمضان، بقصد إذلاله، وردّ الصاع له صاعَيْن بعد تحدّيه له في عمارته، وبين رجاله. غير أن القرصان لم يفهم ما رمى إليه الرايس، فصاح قائلاً:

- لا أعرف ما تقصد، بكلامكَ، ولكن ما أعرفه هو أن تسلّمنا الرجل بسلام.

أيقن **الرايس إبراهيم** بأن مماطلته لن تجدي نفعاً، فقال للقرصان:

- أقسم بالله العظيم، وبشرفي أن أجعل **الصوباشي** طعمة لسمك البحر.

ثمّ أردف:

- لن تأخذ من سفينتي أحداً، وها أنذا عائد إلى سيّدكَ الصوباشي لأحاسبه بنفسي.

عندها لوّح القرصان بيده للسفينة الواقفة إلى الشمال، فأطلقت قذيفة سقطت قرب صدر سفينتنا، التي تمايلت من أثر القذيفة حتّى كادت أن تنقلب، فقعد الركّاب على سطح السفينة وعلا صراخهم مستغيثين بالريّان أن يعطيه ما يريد. وهنا نهض **حاجي رمضان** وقال:

- أيُّها الرايس، دعني أذهب معهم، وأرى ماذا يريدون منّي.

نظر الرايس إبراهيم إلى حاجي رمضان بأسف، وقال:

- لا تقلقْ، سأسبقكَ إلى رودس، وسوف ترى كيف يكون الحساب.

نهض **حاجي رمضان**، وهَمَّ بالمضي نحو القرصان بثبات وشجاعة، وهرعت **فيروزة** وأمّها تتشبّثان بثوبه، وهما ترجوان **الرايس** أن لا يسمح للقرصان بأخذه، أو فلتذهبا معه، لكن حاجي رمضان أخذ يهدّئ **إيبرو** و**فيروزة** مُبعِداً أيديهما عنه بلطف، طالباً منهما أن لا تقلقا. ولمّا علا البكاء، قال القرصان الذي فرغ صبره بتركية ركيكة:

- لستَ وحدكَ، زوجتكَ وابنتكَ مطلوبتان معكَ أيضاً.

التفت حاجي رمضان يَمْنَةً إلى **إيبرو**، ويَسْرَةً إلى **فيروزة**، فأشار القرصان بأصابعه ذات الخواتم نحو سفينته:

- امضوا إلى هناك؛ لا تنسوا حوائجكم.

تعثّرت العائلة المسكينة في أثناء انتقالها إلى سفينة القرصان، وكادت إيبرو أن تسقط في الماء لولا يد حاجي رمضان التي أسعفتْها في اللحظة الأخيرة، فقد كانت سفينة الصُّرَّة السلطانية أعلى من **شلندية** القرصان، بينما السُّلَّم المصنوع من حبال القُنَّب الخشنة، يتأرجح يَمْنَةً ويَسْرَةً.

بلمح البصر؛ وجّه نوتية **الشلندية** قلوعهم نحو الشمال، وشرع المجذّفون يضربون بمجاذيفهم على صفحة البحر، لينطلقوا مبتعدين عن **السفينة السلطانية** التي غيَّر نوتيّتها اتّجاه قلوعها شمالاً فشرقاً، بقصد العودة إلى **جزيرة رودس**، لمحاسبة الصوباشي المتآمر، كما أعلن **الرايس إبراهيم**.

ولكن **الشلندية**، خلافاً لظنّ الرايس، لم تنحرف يميناً باتّجاه رودس، بل تابعت مع الشلنديَّتَيْن الأُخرَيَيْن الإبحار غرباً نحو جزيرة كبيرة بدأت تلوح لهم في الأفق، عرفوا فيما بعد أن اسمها **مملكة كانديا**، وهي **جزيرة إقْرِيطِش**

كما نعرفها في قواميس الجغرافيِّيْن العرب المسلمين. ولذلك لم تعرف فيروزة ما جرى بين **الرايس إبراهيم وصوباشي الجزيرة** بعد ذلك.

قبيل الوصول إلى مَرسَى **كانديا**؛ اقترب قرصانان من فيروزة وأمّها واقتداهما برعونة إلى صدر السفينة، في حين قبض على **حاجي رمضان** قرصان ثالث ضخم الجثّة، قاسي الملامح، تزيّن وجهه ندبة متطاولة، راح ينظر نحو رئيسه. وهنا استجمع **حاجي رمضان** قوّته، ودفع بالقرصان، ليهرع نحو زوجته وابنته محاوِلاً تخليصهما:

- **إيبرو! فيروزة!**

وقبل أن يصل إليهما سقط مضرّجاً بدمائه، فقد أفرغ اثنان من القراصنة غَدّارَتَيْهما دفعة واحدة في جسد الحاجي، وقبل أن يصوّب القرصان الثالث غَدّارَته إلى رأسه، ردّد الشيخ الصريع كلمة واحدة:

- **سليم أفندي!!**

دوّت بعدها طلقة استقرّت في رأسه وأنهت حياته.

جمدت المرأتان لهول الصدمة، وهما تحدقان بذهول في جثّة **حاجي رمضان** غير مصدّقتَيْن هذا الذي جرى أمامهما. وحين رأتا القراصنة يجرّونه من مكانه لتظهر بقعة الدم الكبيرة، علا صراخهما حتّى شقّ عَنَان السماء. لم تفارق فيروزة صورة والدها وهو يلفظ أنفاسه، مستعيدة صوته وهو يردّد اسم **سليم أفندي**.. لم تدرك، لا هي ولا أمّها، المغزى من ذِكْر ذلك الاسم، غير أن السؤال ظلّ يتردّد في أحاديثهما، إلى أن جاء وقت وتكشّفت لهما الحقيقة كاملة.

بعد أن ألقى القراصنة، بجثّة حاجي رمضان في البحر على مَرأى من

الأمّ والابنة المفجوعتَيْن، أدركت **فيروزة** و**إييرو** أن قصد القراصنة ليس الحاجي، وإنما أمر آخر؛ كان عليهما الانتظار أيّاماً في بيت فخم من بيوت كانديا، حتّى تدركاه.

مختصر القصّة أن القرصان الكبير، وكان اسمه **بادوليو**، طلب **فيروزة** إلى حجرته ذات مساء، وكانت هي وأمّها قد اتّفقتا على خطّة معيّنة إن هو أبدى أيّ رغبة دنيئة حيالها. وحين دخلت إليه وجدته جالساً على أريكة وثيرة، وأمامه طبق من الفاكهة والجبن، وفي جواره كأس من الخمرة.

نظر القرصان نظرة شبقة، تجاهلتها فيروزة، وهي تسأل:

- ماذا تريد؟

- خاطبيني بـ **سيّدي**، فأنتِ الآن **عبدتي**، ويحقّ لي أن أفعل بكِ ما أشاء.

ثمّ أردف:

- تعالي اجلسي هنا إلى جانبي.

امتنعت فيروزة، فحدجها بنظرة متوعّدة:

- قلتُ تعالي، وإلّا!

عندها، أخرجت من عُبّها حُقّاً صغيراً من زجاج، وفتحت غطاءه، وقالت:

- قبل أن تقترب منّي، سوف أجرع هذا السُّمَّ الزعاف، وعندها افعلْ ما تشاء.

فوجئ القرصان، بفيروزة وبحُقِّ السُّمِّ الذي معها، ما أطار مفعول الخمرة من رأسه، فصاح غاضباً وهو يهمّ بالاقتراب منها:

- من أين لكِ هذا؟

أشارت له بيد ترتجف أن لا يقترب، ويدها الأخرى تُدني الحُقَّ من شفتَيْها، وهي تردّد:

- مكانكَ .. ولا تتحرّك. حملنا السُّمَّ معنا خوفاً من احتمال وقوعنا في أَسْر ظُلَّام بلا ضمائر، وها نحن في أَسْركم .. نقتل أنفسنا خير من أن يجلّلنا العار.

قال القرصان **بادوليو** وهو يحاول أن ينتزع من يدها **حُقَّ السُّمِّ**:

- أعطنيه قبل أن أقتلكِ.

قالت هازئة:

- اقتلني، لأنكَ لن تناله.

أُسقِط في يد القرصان، وصرخ بفيروزة حانقاً:

- اخرجي؛ ولا تُريني وجهكِ بعد الآن.

كيف لقرصان مروِّع مثله، أن يرضخ لتهديد فتاة بـ **حُقِّ عطر**، زعمت أنه حُقُّ سمٍّ ؟! لم تصدّق فيروزة ما سمعت؛ ففتحت الباب بحذر، ومضت مسرعة إلى أمّها التي كانت تبكي وتندب حظّها؛ وهي تنتظر عودة ابنتها جثّة هامدة.

في تلك الليلة أسرَّت فيروزة لأمّها أنها باتت تشكّ في أن وراء اختطافهما

سرّاً ما، فما معنى أن لا يردّد والدها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة سوى اسم **سليم أفندي**؟ وما الذي جعل القرصان **بادوليو** يخشى إلى هذا الحدّ من أن تقتل نفسها بالسُّمِّ؟

راحت الأمُّ تُعمِل فكرها محاولة ربط الأمور ببعضها، وأوّل ما فكّرت فيه اسم **سليم أفندي**، فقد لمحت في عينَي **حاجي رمضان** نظرة تفهمها جيّداً، نظرة فيها إحساس عظيم بالخيانة والتأسّف .. نظرة رأتها قبل ذلك حين كان الحاجي يحدّثها بأسف عن خيانة شريك له بالتجارة، كان يضع فيه كامل ثقته.

ولذلك قالت لفيروزة وهي تنظر في نقطة غير محدّدة:

- أنا على يقين بأن **سليم أفندي** خان والدكِ.

- كيف يخونه وهو بعيد هناك في **إسْطَنْبُل**؟!

- سأسر لكِ بأمر لم تكوني تعلميه .. والدكِ لم يكن يفكّر بالحجّ هذه السنة، بل في السنة القادمة، وسليم أفندي هو الذي شجّعه، وحجز له ولنا ثلاثتنا مكاناً على متن **سفينة الصُّرَّة السلطانية**.

- ما معنى هذا؟

- يعني الكثير، لماذا كان مصرَّاً على تسهيل سفرنا إلى الحجِّ؟ لماذا أصرَّ على أن تكوني أنتِ برفقتنا؟ هو مَن اقترح على أبيكِ أن ترافقينا في هذه الرحلة، بدعوى أننا طاعنان في السِّنِّ، ونحتاج لرعاية فتاة شابّة في مثل سنِّكِ.

في البداية؛ لم تثر شكوك الأمّ اهتمام **فيروزة**، ولعلّها رأت فيها هواجس قد تصدُق، وقد لا تصدُق، ولكنَّ قتل والدها بهذا الاستهتار،

وذعر **القرصان بادوليو** حين رأى **حُقَّ السُّمِّ** المزعوم، جعلاها تفكّر بأنها هي وحدها المقصودة في كلِّ ما جرى، ولذلك عظم هَمُّها، وباتت خشيتها على أمّها أكبر من ذي قبل، فإن كانت هي المقصودة، فحتماً سوف يتخلّصون من الأمّ العجوز، كما تخلّصوا من الأب من دون أدنى شفقة.

بعد تلك الليلة لم يعاود **القرصان بادوليو** الكرَّة مع فيروزة، بل صار يتحاشى النظر إليها كلّما عاد إلى المنزل، وفي أثناء ذلك بدأت امرأة من فرنجة إيطالية تُلقِّنها بعض الكلمات والعادات، بانتظار عودة السلام إلى المياه من جديد، والرحيل إلى **البُنْدُقِيَّة**.

طال الانتظار كثيراً، وهاجم قراصنة مسلمون توانسة، بثمانية من الأغربة، **مَرسَى مملكة كانديا**، ونجحوا في إحراق عدد من الشلنديات والقوادس، وكاد القرصان **بادوليو** نفسه أن يقضي في هذه المعركة التي أنعشت، لوقت قصير، آمال فيروزة وأمّها بقرب انتزاعهما الحرّيّة من جديد.

كان سبب هذه المعركة المباغتة، أن **قراصنة مالطة**، وبعد أن سطوا على سفينة للمسلمين، ونهبوا بضائعها، وأسروا كلّ مَنْ كان عليها من رجال ونساء، لجؤوا إلى مَرسَى كانديا هرباً من أسطول أغربة تونسية، لاحقهم لاستعادة المنهوبات وتحرير أسارى المسلمين. ومن سوء حظّ فيروزة وأمّها أن المعركة بقيت في الماء، ولم تنتقل إلى البرّ.

بعد أكثر من شهرَيْن، وفي يوم موعود، أتى مَنْ يخبرهما أن السلام في مياه بحر الروم عاد مجدّداً، وأن عليهما أن يتهيَّآ في ضحوة الغد للصعود إلى السفينة، وأن ترتديا ثياب امرأة وابنتها من كرام العائلات البُنْدُقِيَّة الساكنة في كانديا، وسوف يرافقهما رجل من خواصّ **القرصان بادوليو**،

حتّى إذا ما اعترضهم عارض؛ يدّعي أنه زوج فيروزة، وأنهم متوجّهون إلى البُنْدُقِيَّة لزيارة الأهل.

لم تكن رحلة سهلة، رغم الحديث عن السلام، فقد أنزلوا القلوع مراراً، وتوقّفوا في جزر ومراسي كثيرة خاملة الأسماء، وأجَّلوا الإقلاع أكثر من مرّة، تلافياً لغارات قراصنة تونس، والجزائر، الذين كانوا يخوضون حروباً طاحنة مع قراصنة مالطة. وقد رأتا رؤيا العِيَان معركة حامية الوطيس في **خليج البُنْدُقِيَّة** بين خمسة أغربة تعود لقرصان تونس وأسطول البُنْدُقِيَّة؛ كانت نتيجتها إحراق الأغربة التونسية، وفِرَار نوتيّتها إلى سواحل بلاد البُشْنَاق.

في مَرسَى البُنْدُقِيَّة وجدوا في انتظارهم عربة باذخة بأربعة أحصنة، ودّعهم عندها رجل القرصان المتأنّق ومضى في سبيله، ومن المَرسَى توجّهت العربة بهم إلى مبنى **قنصلية فَرَانْصَة**.

وَلَهُ الملكة

وهي تحدّثني عن حفاوة قنصل **مملكة فَرَانْصَة** في البُنْدُقِيَّة بها وبأمّها، حين اختصّهما بعربتَيْن باذختَيْن، وثلَّة من الجند لحمايتهما في الطريق إلى **بَرِيش**، سألتُ فيروزة مباغِتاً:

- هل تذكرين قافلة الخيول التي كانت تتبعكم طوال الطريق؟

فاجأها سؤالي، وراحت تنظر إليَّ بقلق؛ لعلّها تنتظر أن أُكمل كلامي، وحين رأتني صامتاً مبتسماً أنظر في عينَيْها، قالت:

- أجل، أولئك كانوا من جماعة الحرس، لكننا لم نعرف مَنْ هم .. كيف عرفتَ بأمرهم؟

- الأقدار، يا فيروزة .. أقدارنا التي جمعتْنا ذات يوم في **إسْطَنْبُل**، ها هي تجمعنا الآن في هذا البحر.

- كيف؟ لم أفهم.

- هل تصدّقين بأنني كنتُ واحداً من أولئك الرجال الذين ساروا خلف عربتكِ خمسة عشر يوماً!

اكتسى وجهها بدهشة مباغتة، ولم تعلّق ولو بكلمة واحدة، بل صارت تنقل نظراتها وهي ساهمة بين البحر وبيني، وكأنها تستذكر تلك الأيّام التي بدت بعيدة.

قلتُ:

- ما بكِ؟

- لا أملك تعبيراً يصف ما أشعر به.

أحسستُ برغبة عارمة في أن أحضنَها، وأريح رأسها على صدري .. ملتُ إليها قليلاً، فصدَّتْني بحاجبَيْها المرفوعَيْن وعينَيْها اللتَيْن كانتا تشيران إلى أمّها الجالسة قربنا، والمشغولة بحياكة الصوف. ولكنها قبضت بيدها على يدي وضغطت بقوّة وهي تقول:

- هلَّا حدَّثتني عمّا جرى لكَ في **بَرِيش** بعد أن افترقت خيولنا؟

في تلك اللحظة، كانت قبضة يدها الخاطفة تعادل عندي عناقاً أبدياً. رويتُ لها، وأنا مأخوذ بملمس يدها الناعم كحرير غَرْنَاطِيّ، قصَّتي في **دَيْر بَرِيش**، منذ لحظة أسري، وحتّى تسريحي منه. وكنّا قبل ذلك قد بارحنا مَرسَى **جِنْوَة**، درّة بلاد **إيطالية**، مُبحِرين في محاذاة سواحلها، تحمينا راية بلاد **فلانضس**، فكان يتجنّبنا قراصنة المسلمين والنصارى في آنٍ معاً.

طلبتُ من فيروزة أن تُكمل قصّتها، فقالت: إن الملكة ماريا التُّوسْكَانِيَّة طارت فرحاً حين رأتها وأمّها حاضرتَيْن أمامها في القصر، وللوقت؛ أمرت بحضور ترجمان أندلسي يجيد العربية والتركية والفارسية وفَرَانْصَاوِيَّة بَرِيْش، راح يترجم الحديث الأوّل بينها وبين الملكة.

أخبرها الترجمان أن لدى الملكة طلباً لا يحتمل التأجيل، فبعد نحو شهر ستُقام احتفالات تتويجها، رسمياً، ملكة على **مملكة فَرَانْصَة ونَبَرَّة**، وتريد لثوب التتويج أن يكون مرقوماً بخيوط الذهب، لائقاً بهذا الحَدَث العظيم.

فكّرت فيروزة مليّاً، وقالت للترجمان:

- قلْ لجلالتها؛ هل ستُحضرون لنا ما نريد لإنجاز المهمّة المطلوبة؟

قال الترجمان بعد أن سأل الملكة:

- كلّ ما تطلبين سيحضر لكِ.

- اسألْ جلالتها أيّ الألوان تريد لثوبها؟

- تقول لكِ الملكة إن الأزرق لون مملكتنا.

قالت فيروزة وهي تبتسم:

- اسمي مأخوذ من لون الفيروز، هل تقبل جلالتها أن نصبغ لها ثوبها بلون الفيروز؟

أطرقت الملكة مليّاً، وقالت للمترجم:

- حسناً؛ إنه أزرق أيضاً، ولكنْ، قل لها أن تجعله أكثر عمقاً، بلون المحيط.

وأعطتها ورقة كَاغِد رُسم عليها شكل زنبقة، هو رَنْك **مملكة فَرَانْصَة ونَبَرَّة**، وطلبت منها أن ترقمه لها على كامل حرير الثوب.

أحبّت فيروزة الملكة ماريا منذ اللحظة الأولى التي رأتْها فيها. فمع سُمُوِّ مركزها، كانت أيضاً غاية في سُمُوِّ الأخلاق والتواضع، وبالإضافة إلى ذلك كلّه، لم تر فيروزة امرأة أجمل منها، طول فارع، وقوام متناسق ممشوق، وخصر نحيل، ووجه، سبحان مَنْ خلق، لا أجمل ولا أكمل في صفاته: شفتان كرزيّتان مرسومتان بعناية إلهية، وأنف معتدل، واستدارة وجه كاملة لا عيب فيها. أمّا العينان، فلا شيء يشبه صفاء قزحيَّتَيْهما

سوى عسل **جبل بورصة**، وفوق ذلك شَعْر بنيّ مموّج، ينحدر بلطف من تحت تاجها، مثل أمواج نهر رقراق.

في قاعة من قاعات القصر الملكي، خصّتهما الملكة بها، كي تُنجزا المهمّة تحت أنظارها، شرعت فيروزة وأمّها إيبرو تُركّبان صباغ اللون الفيروزي الذي صار الفرنسيون يسمّونه **تركواز**.. كثير من الفيروز المسحوق، وأقلّ منه من النِّيْلَة الزرقاء، وشيء قليل من المَغَرَة الحمراء، وفوق ذلك كلّه مقدار مناسب من الصمغ العربي المذاب بالماء، وقطرات من زيت زهرة البَبَاطْيَة، التي يسمّيها الفرنجة كاموميلا.

حين أضحى اللون جاهزاً، طلبتا قِدْراً كبيرة فيها ماء نقي، أنقى ما يكون، وبعد أن قدّرتا كمّيّة الماء، أهَالَتَا الخليط به، وشرعتا تحرّكان ماء القِدْر بهدوء حتّى امتزج اللون وأصبح بقوام مناسب. في البداية أخذت فيروزة قطرة منه وألقتْها على قطعة حرير كانت بيدها، فانتشر اللون بالحرير، متدرّجاً من دون تغيّر أو خلل، وعندها نظرت إلى أمّها التي وافقتْها الرأي، فألقتا شقق الحرير الأبيض المقصور، المجلوب من جبل لبنان، في القِدْر، وانتظرتا عليه ليلة كاملة، وفي الصباح انتشلتاه ونشرتاه على منشر خشبي في القاعة نفسها. وبانتظار أن يجفّ؛ راحتا تحضّران خيوط الحرير الموشّاة بالذهب. في ذلك الوقت لم يكن أحد في بَرِيْش يعرف سرّ التَّوْشِيَة.

كان الأمر بسيطاً بقدر ما كان مفاجِئاً: مِغْزَل يدويّ صغير وخيوط حرير، وخيوط ذهب ليس إلّا. وشرعت إيبرو بغَزْل خيوط الحرير الموشّى الذي سيُذهل الملكة حين تراه على ثوبها. في هذا الوقت تفرّغت فيروزة لقَصِّ قِطَع صغيرة من لَبَد الصوف على شكل الزنبقة التي أوصت **الملكة** برَقْمها.

ما إن جفّت شقق الحرير حتّى قامت فيروزة بإضافة طبقة من النشاء

الحلبي إليها، وتركتها نحو ساعة لتجفّ تماماً حتّى غدت ذات قوام يشبه الكَاغِد الصقيل، ثمّ بدأت مع أمّها بلصق قِطَع اللّبَد على كامل قماش الثوب، بشكل متناوب عجيب، وبعد ذلك عملت الإبر عملها، وكست قِطَع اللّبَد المقصوصة بطبقة من الذهب الوهّاج.

لم تصدّق الملكة ما رأت حين زارتْهما بعد يومَيْن .. ولكن عدد الزنابق المرقومة على قماش الثوب لم يكن يتجاوز العشرين زنبقة، وهي تريد أكثر من خمسمئة زنبقة.

ابتسمت فيروزة وقالت للترجمان:

- قلْ لجلالتها إن هذا العدد من الزنابق شغل ساعتَيْن فقط، لأن الوقت الذي مضى كان لأعمال الصِّباغ والتنشية والتلبيد وغزل الخيوط.

حين سمعت الملكة ترجمة ما قالت فيروزة؛ اقتربت منها بحركة رشيقة مفاجِئة فعانقتْها، ثمّ قبّلتْها على جبينها، ومضت مسرِعة لمتابعة استعدادها لحفل التتويج المنتظَر.

فعلت قبلة **الملكة** فعلها في فيروزة وأمّها اللتَيْن كانتا تأملان بأن تُطلق **الملكة** سراحهما، وتسمح لهما بالعودة إلى **إسْطَنْبُل** فور انتهاء المهمّة المطلوبة منهما، فوصلتا الليل بالنهار حتّى أتمَّتا قماش الثوب.

اقترحت فيروزة على **الخائطة التُّوسْكَانِيَّة** أن تزيّن صدر الثوب باللؤلؤ العربي البحريني، لأنه يضفي عليه جمالاً أخّاذاً، فمِن مزايا اللؤلؤ أنه يعكس اللون الفيروزي بشكل عميق، فتبدو حَبّاته وكأنها فيروزية.

أُعجبت الخائطة بالفكرة، وطلبت من الملكة صندوقاً من **اللؤلؤ العربي**، فلبَّتْها من فورها، فكان الثوب أعجوبة من عجائب الزمان، خطف ألباب الحاضرين، بلونه العجيب، وزنابقه النافرة، ولؤلؤه المُزرقِّ.

وممّا يُؤسَف له، كما قالت فيروزة، أن جمال الثوب كان يمكن أن يكون حديث نساء **بَرِيْش** لشهور طويلة، لولا مصرع **الملك الطيّب هنري** على يد الكاثوليكي المجنون، كما هو معلوم.

ورغم فداحة المصيبة، كانت **الملكة ماريا** ممتنّة لذلك الثوب الذي كان فأل خير عليها، إذ أصبحت بعد ذلك الحفل وصيّة على عرش ابنها القاصر.

بعد الانتهاء من مراسم الحِدَاد، بدأت **فيروزة** تتعلّم لسان فَرَانْصَاوِيَّة بَرِيْش، على يد الترجمان الأندلسي ذاته، وكانت تسأله في كلّ درس عن وسيلة للهرب، والعودة إلى **إسطَنبُل**، بعد أن أيقنت أن الملكة لم تكن تفكّر بإخلاء سبيلها وأمّها.

في أحد الأيّام قال لها الترجمان الأندلسي:

- إيّاكِ، يا فيروزة أن تفكّري بهذا الأمر، الموت سيكون أمامكِ كيفما توجّهتِ .. هذه بلاد غريبة، يا فيروزة، أسهل ما فيها القتل والاستعباد .. اهدئي، واصبري، لعلّ الله يُيسّر لكِ من أمركِ مخرجاً.

لم تمضِ سنة حتّى كانت فيروزة تجيد القراءة والكتابة والتحدّث بلسان بَرِيْش الصعب، وكان لسرعتها في التعلّم أثر كبير في حيازتها ثقة **الملكة ماريا**، حتّى باتت مقرّبة منها أشدّ القُرب، وخصوصاً حين كانت تختار الأقمشة والجواهر لخياطة أثوابها.

ذات يوم، دعتْها الملكة إلى مخدعها الملكي الخاصّ، في الطابق الثاني من القصر، وقالت لها:

- اسمعي، يا **فيروزة**، تعرفين كم أحبّكِ .. ما رأيكِ أن تتعمّدي في الكنيسة أنتِ وأمّكِ لكي تتجنّبا تعرّض نساء بَرِيْش لكما بما يُزعج.

رفضت فيروزة وأمّها الفكرة من أساسها، وقالت للملكة بعد يومَيْن من التفكير:

- نفضّل أنا وأمّي الموت على أن نغيِّر دِيْننا.

قالت الملكة باستغراب:

- أنا لا أريد لكما أن تغيّرا دِيْنَكما ولكنْ، ألَا يمكن أن تتظاهرا بالأمر؟ زوجي الملك المرحوم هنري كان يؤمن بالقَلْبنِيَّة، ولكنه كان يتظاهر بالكاثوليكية!

وكان هذا التلميح رسالة من الملكة بأنها غير مَعنيّة بالدِّيْن من أصله، ولكنها كانت مَعنيَّة بالزبائن، فقد تبيّن لها أن نسبة لا بأس بها من نساء بَرِيْش امتنعنَ عن شراء الحرير المرقوم من مخزن فيروزة، بسبب كونها مسلمة.

لم تكن فيروزة ولا أمّها تعرفان الحُكْم الشرعي لهذا الأمر، فطلبت أن تتحدّث إلى معلّمها في اللسان الفَرَانْصَاوِيّ، الترجمان الأندلسي ذاته، فقال لها بعد أن استشار مَنْ هو أعلم منه:

- إن كان الأمر تَقِيَّة، فهو جائز.

وعندها قبلتْ ظاهراً هي وأمّها الكاثوليكية تَقِيَّة، وتعمَّدتا في الكنيسة، هي اختارت اسم المعمودية **شارلوت**، وأمّها اختارت اسم **ماريا**، على اسم الملكة، وصارتا تحضران القدّاس كلّ أحد، وفي سريرتَيْهما كانتا تقضيان الوقت بطلب الاستغفار من الله تعالى.

في تلك الأيّام؛ عرفت فيروزة قصّة الملكة كاملة مع **الحرير التركي المرقوم**. أخبرتها بهذا **الوَلَه** في جلسات عديدة جمعتْهما، إذ أسرَّت لها أنها، ومنذ نعومة أظفارها، كانت هائمة بالحرير المرقوم الآتي من **إسْطَنْبُل**

وبورصة، وأنها جمعت في خزائنها طوال سنوات عديدة، وحتّى قبل أن تتزوّج بالملك، أندر القِطَع وأغلاها. وبالإضافة إلى الحرير المرقوم، كانت تفتنها شالات **الإيبرو**، بدواماتها الزاهية، وورودها التي لا يفوق جمالها إلّا جمال الطبيعة ذاتها.

شيئاً فشيئاً بدأت أخبار **وَلَه الملكة** بالحرير التركي تنتشر بين تجار **البُنْدُقِيَّة وجِنْوَة**، فصاروا يطلبون منها أثماناً باهظة. وكي تتخلّص من جشعهم؛ بدأت تستقصي عن اسم ذلك الفنّ الذي يبدع هذا الجمال كلّه، فعرفت أن اسمه بالتركية فنّ **الإيبرو**. وبدأت تفكّر بالخلاص من استبداد التجّار البنادقة بها، فحزمت أمرها وقرّرت أن تفتح **فابريقةً** لهذا الفنّ في بَرِيْش، تُشرف عليه بشخصها، وتصمّم له الرسوم كما تريد هي، ووَفْقاً لذوقها .. إذ خطرت لها الكثير من الأفكار حول الألوان والرسوم، وكانت تبحث عمّنْ ينفّذها لها.

راحت تسأل عن طرائق الرَّسْمِ والرَّقْمِ، وكيف يمكن للمرء أن يقوم بها، فلم تحصل على إجابة شافية، فالتُّرك كانوا يتكتّمون على أسرار هذا الفنّ كما يتكتّم قائد عسكري على خططه الحربية.

لم تعدم **ماريا** وسيلة إلّا ولجأت إليها في سبيل الوصول إلى أسرار هذه الصنعة .. استدعت تجّاراً من البُنْدُقِيَّة وجِنْوَة، وسألتهم، فلم تجد لديهم إلّا جواباً واحداً وهو:

- «للتُّرك أسرارهم في الرَّقْم، وجعل الألوان زاهية لا تحول، حتّى لو مضى عليها سلطان الزمن، ولا أحد يعلم تلك الأسرار غيرهم».

ألحّت على زوجها **الملك هنري**؛ بأن يتدبّر لها الأمر بمعرفته وسلطته، فوعدها خيراً، وأخبرها بأنه سيكلّف أحد رجاله المقرّبين بأن يسعى لإنجاز

المهمّة مهما كانت كلفها .. طال انتظار الملكة، ولم يلبِّ الملك طلبها، وبعدما زاد إلحاحها عليه؛ أرسل يستفسر من رجله الذي توجّه إلى **إسطَنبُل** قبل مدّة، فأخبره آسفاً بأنه ظنّ الأمر سهلاً في البداية، ولكنْ، حين وصل إلى عاصمة بني عثمان؛ تكشّف له أن فنون الرَّقْم **والإيبرو** مقصورة على نساء التُّرك، وأنه لم يجد سبيلاً إلى امرأة منهنّ، ناهيكَ، وهذه الحال، عن استحالة تدبير أمر سَفَرها إلى بلاد **فَرَانْصَة** وحدها؟! وهنا أمره الملك أمراً ملحاحاً بأن يفعل المستحيل لكي يلبّي طلب **الملكة** زوجته!

طفرت من عين فيروزة دمعة وهي تعلّق قائلة على هذا الأمر الملكي:

- لقد تيقّنّا أنا وأمّي بعد أن سمعنا تفاصيل الحكاية من الملكة، أن الرجل الذي كلّفه الملك بالمهمّة هو **سليم أفندي** الأندلسي الذي خدع والدي بالقصّة التي تعرفها.

لم يفاجِئني خبر **سليم أفندي** هذا، فكلّ ما كان يدور حوله، منذ أن سمعتُ باسمه أوّل مرّة، كان يثير ريبتي، غير أني كنتُ عاجزاً حتّى ذلك الوقت عن تأكيد، أو نفي إن كان هو نفسه الأندلسي الغريب **محمّد بن أبي العاص**، أم هو شخص آخر!

حين علمت **الملكة** بقصّتهما مع القرصان، ومقتل حاجي رمضان بتلك الطريقة المروّعة، حزنت أشدّ الحزن، وقالت:

- لا عليكِ، يا فيروزة، سوف أعوّضكِ خيراً.

وعلى الفور، أمرت بتخصيص **قصر صغير**، بخَدَمه وحَشَمه، لفيروزة وأمّها، ولم يمضِ وقت حتّى افتتحت لهما **فابريقةً** لفنون **الرَّقْم** و**الإيبرو**، في مكان لا يبعد عن القصر الملكي أكثر من زقاقَيْن، وكلّفت تجّاراً مخصوصين بجلب ما تطلبانه من أصباغ وزيوت وحرير، بعد أن لاقى إتقان

فيروزة وأمّها هوى في نَفْس الملكة، فصارت تقترح عليهما الرسوم، وهما تنفّذان بكلّ يُسر وسهولة، حتّى صارتا **مشهورتَيْن** عند نساء أمراء وأكناد بَرِيْش وما حولها.

شيئاً فشيئاً أخذت الملكة توسّع عملهما الذي أعاد لها شيئاً من ثروتها المبدّدة، فافتتحت **فابريقةً** لحرير الأغطية والستائر كلَّفت بها الأمّ إيبرو؛ ووضعت في إمرتها عشر عاملات فَرَانْصَاوِيَّات، وفصلته عن **فابريقة** الأثواب التي باتت بيد فيروزة، ووضعت تحت إمرتها خمس عاملات.

كانت **فيروزة** و**إيبرو** تتقاضيان ريالاً كبيراً من الذهب عن كلّ يوم عمل، وهذا الأجر؛ لم يكن شيئاً يسيراً قياساً بأجور كبار العاملين في القصر، لكنه لم يكن ليساوي شيئاً أمام ما جنتْهُ الملكة من عوائد عملهما.

ولم يمضِ وقت حتّى افتتحت بعض خواتين بَرِيْش مخازن للخياطة والأقمشة قُرب **فابريقة فيروزة** التي أطلقت عليها اسم **تركواز**، فقد رأت فيه الترجمة المقبولة لاسمها باللسان الفَرَانْصَاوِيّ. وسرعان ما باتت هذه المخازن تشغل زقاقاً بكامله، حتّى غدا ذلك الزقاق قبلة نساء علية القوم؛ ليس في **بَرِيْش** وحدها، بل في بلاد **فَرَانْصَة ونَبَرَّة** بأسرها.

الهروب من بَرِيْش

مكتبة
t.me/soramnqraa

فضلاً عن ولهها بـ **الحرير الموشّى** بالذهب والفضّة، والمصبوغ بالألوان العجيبة، كانت **الملكة ماريا** مُولَعة أيضاً بالتصاوير المسمّاة عندهم **بنتورة**، والمعازف المسمّاة **موسيقى الشمبر**، والرقص المسمّى **فاليت**. وكان بلاطها يَعِجُّ بأرباب هذه الأفانين من كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ. وقد رأى أعيان بَرِيْش في هذا الوَلَه ضرباً من ضروب التلهّي بالزخرف، وتوافه الأمور، ممّا لا يليق بأرباب الحكم والسياسية، وهو ما جعلها عرضة لقدحهم في مجالسهم الخاصّة والعامّة.

ذات مرّة؛ دعت الملكة فيروزة إلى حفل رقص **الفاليت** في إحدى قاعات القصر المختصّة بهذا النوع من الاحتفالات. يومها ارتدت فيروزة ثوباً خمرياً، جمعت فيه بين البذخ في **الوشي التركي المُورَّق**، والخياطة المنفوشة الدارجة في **بَرِيْش** آنذاك.

لم تتوقّع فيروزة أن ترى هذا العدد من الأعيان في مكان واحد، رجال بقبّعات غريبة ونساء بأثواب منفوشة مطعّمة بالجواهر واللآلىء، والياقات المخرّمة التي يسمّونها في بَرِيْش **دنتيل**. ما إن دخلت إلى القاعة، وظهرت في شرفة الطابق الثاني المشرفة على حلبة الرقص، حتّى توجّهت أنظار الجميع نحوها، رجالاً ونساء. كانت عيونهم المملوءة إعجاباً ودهشة تسأل:

- مَنْ تكون هذه الفتاة الغريبة التي أتت إلى الحفل منفردة من دون شريك؟

وما إن وقعت عين **الملكة** عليها، حتّى أشارت لها بأن تقترب منها وهي تناديها باسمها:

- **شارلوت!** هنا.

انضمّت **فيروزة** إلى الملكة، المشغولة بالاستماع إلى جوق **موسيقى الشمبر** المكوّن من عازفي الأعواد والمزامير والرباب. كانت الأنغام ذات توقيع هادئ، يرقص عليه في الحلبة بضعة رجال ونساء رقصة جميلة.

رقص الجميع إلّا فيروزة التي كانت تتنقّل في ردهة الشرفة مثل فراشة تخلب الأنظار، معتذرة من الرجال جميعهم ممّنْ دعوها لمشاركتهم الرقص .. أحد هؤلاء كان ابن كُند من كبار الأكناد، قدّم نفسه باسمه الشريف وهو يقبّل يدها:

- **شارل لافاييت.**

ابتسمت فيروة ابتسامة مجاملة، وقالت:

- **شارلوت** ..

انتظر شارل أن تُكمل اسمها، ولكنها انصرفت معتذِرة، وعلى وجهها الابتسامة ذاتها. فوجِئ بانصرافها، فهو لم يعتد مثل هذا التجاهل من امرأة قبلها، فراح يتتبّعها بأنظاره أينما ذهبت. لم يترك سانحة إلّا وحاول النفاذ منها للانفراد بها، أو فتح حديث معها. وهي تتحاشاه قدر ما تستطيع. وزاد اضطرامه، بسبب نظرات تشفّي النساء به أينما ولّى وجهه!

لدى انصراف الجميع إلى عرباتهم المصطفّة أمام بَوّابة القصر، تقدّم **شارل** من **فيروزة**، مصافِحاً:

- سيّدتي، تشرّفتُ جدّاً برؤياكِ، وأتمنّى أن تسنح لنا فرص أخرى لِلّقاء.

ثمّ أحنى رأسه قليلاً وراح ينظر إليها مترقّباً ما ستقول، لكنها اكتفت بابتسامة فاترة، وهي تسحب يدها من يده بلطف، وتتوجّه إلى عربتها الباذخة التي كان حوذيها ينتظر إشارة منها.

لم يألف شارل أن تتجاهله امرأة، فقد بلغ الحلم وهم يرى نفسه حُلْم فتيات بَرِيْش بأسرها، ليس بسبب ثروة والده ومكانته الرفيعة وحسْب، بل أيضاً بسبب وسامته وأدبه الجَمّ. والظاهر أن تَمَنُّع فيروزة قد حفر في وجدانه جرحاً عميقاً، تسبّب بألم لم يختبره من قبل، لذلك أَقدَمَ على أمر لم يكن مألوفاً، وهو زيارة رجل لمخزن مختصّ بثياب النساء!

يومها؛ فوجئت فيروزة به يدخل عليها المخزن، حاملاً باقة من الورد الأحمر، وسط نظرات استهجان النساء داخل المخزن وخارجه. لم يفعل شارل يومها شيئاً سوى تقديم الباقة والانصراف. وقد واظب على هذا الأمر أيّاماً عدّة، حتّى شاع خبره وانتشر الهمس بين **نساء بَرِيش** ووصل إلى **الملكة**.

وذات مساء؛ استدعت الملكة فيروزة إلى مخدعها، وسألتها عن **شارل لافاييت** وهي تبتسم:

- يقولون إنه يحمل الزهور إليكِ كلّ يوم، وأنتِ تتجاهلينه.

قالت فيروزة:

- وماذا أفعل له، يا صاحبة الجلالة؟

قالت الملكة:

- نصيحتي أن لا تكوني قاسية معه إلى هذه الدرجة، فهو شابّ لطيف.

وقعت فيروزة في حَيْرة من أمرها، فهي لم تكن تعرف ماذا يريد منها بالضبط، وفي الآن ذاته؛ طلب الملكة عزيز عليها، ولا يمكن ردّه. وبسبب إلحاحه وبذل مشاعره أمامها بالمجان، صباحاً، ومساء، وتشجيع زبوناتها من خواتين بَرِيْش، عزمت على أن تستلين له قليلاً، إن هو عاود زيارتها في المخزن.

رأى **شارل** ابتسامة فيروزة وقد انقلبت من الفتور إلى الترحيب، فانتهزها فرصة لأن يدعوها إلى نزهة في عربته ذات الأحصنة الأربعة. فوجِئ بقبولها الدعوة، ومن فرط حماسته دعا الحوذي لأن يطير بهما إلى الطريق الجديد الذي أمرت الملكة برصفه قبل عام.

انطلق الحوذي يسابق عشرات العربات التي يستقلّها العشّاق من شبّان بَرِيْش وشابّاتها، بأزيائهم الفاتحة، وابتساماتهم المشرقة.. وقرب انعطافة النهر الأولى، طلب **شارل** من الحوذي أن يتوقّف بعيداً عن العربات الأخرى.

هبط الشابّ العاشق من العربة، ودعا فيروزة لأن ترافقه إلى ضفّة النهر، وهناك راح يزجي لها عبارات الغزل الحارقة، وهو يتقرّب منها محاوِلاً تقبيلها. مع كلّ اقترابة، كانت فيروزة تبتعد وتشيح بوجهها عنه، وهو ما كان يثير حَيْرته، فقال بأسى:

- ما قصّتكِ، شارلوت؟ لماذا تمتنعين عنّي؟ ألَا أُعجبكِ؟ أيعقل منكِ تجاهلكَ مشاعري؟! ماذا تريدين؟! هل يرضيكِ أن أُلقي بنفسي راكعاً أمامكِ حتّى تستجيبي؟!

لم يتمّ جملته الأخيرة، حتّى جثا على ركبته راكعاً، وهو يمدّ يده لها، فقبضت على يده وأنهضتْه بلطف، قائلة:

- فاجأتني، لم أتوقّع أن تبلغ جرأتكَ هذا الحدّ.

بكى الشابّ أمامها، وقفل عائداً إلى العربة من دون أن يقول شيئاً. وفي طريق العودة كان شارداً بأشجار الطريق، فيما راحت فيروزة تنظر إليه بحذر وتبكيت ضمير. شعرت حياله بعاطفة حاولت قدر ما تستطيع أن تكتمها، إنما من دون فائدة. وحين رأت **إيبرو** ابنتها تكاد تنساق وراء هذا الحبّ الذي لا تعرف إلى أين سيقودها، راحت تبكي، وترجوها أن لا تنسى مَنْ تكون، فهما، في النهاية، مسلمتان تركيّتان، من **العشيرة العثمانية**، طال الزمان أم قصر، مصيرهما أن تعودا إلى **إسطَنبُل**.

في إحدى النزهات، دعاها لأن ترافقه إلى قصره الصغير القريب من **بَرِيش**، فقالت له:

- بأيّ صفة تريدني أن أرافقكَ إلى قصركَ، يا سيّدي؟

- حبيبتي، أنتِ حبيبتي، ألديكِ شكٌّ فيما أقول؟

- هل ستتزوّجني؟

تبسّم باستغراب:

- ما بالكِ وبال الزواج؟ وما علاقة الحبّ بالزواج؟

فاجأها جوابه، فأردف موضحاً:

- نحن، في عائلتنا، لا نتزوّج من أجل الحبّ.

- من أجل ماذا تتزوّجون إذن؟

- الزواج من أجل المال والجاه فقط.

- **والحبّ؟**

قال بشيء من الزهو:

- الحبّ شيء آخر؛ لا صلة بينه وبين المال أو الجاه.

ثمّ وضع يده على صدره وأضاف:

- الحبّ هنا، في القلب، وأنتِ مَن اختاركِ قلبي.

قالت بذعر:

- تريدني **عشيقة**؟

قال ضاحكاً:

- لماذا تقولين عشيقة، قولي **حبيبة**.

أشاحت بنظرها بعيداً، وقد خُيِّل لبصرها، بغتة أن أشجار الطريق قد تهاوت. أمسك بخَدِّها برفق وأماله نحوه، نظر في عينَيْها، فوجدها ذاهلة:

- ما بكِ؟ لم أنتِ مستغربة؟ الرجال جميعهم هم هكذا، والدي، وأصدقائي، وحتّى **الملك هنري**؛ هل تظنّين بأنه تزوّج ملكتكِ لأنه أحبّها؟ لا، يا شارلوت، لقد تزوّجها من أجل مالها، أمّا حبيبته الحقّة، فهي **شارلوت مارغريت دي مونتمورنسي** التي ظلّت مقيمة معه في القصر، تحت سمع الملكة وبصرها، حتّى يوم مقتله .. هل سمعتِ باسمها؟ إنها من أشراف القوم ونبلائهم، وليست من العوامّ، فلا تخشي هذا الأمر.

عادت فيروزة إلى قصرها مشتّتة الذهن، ربّما هي المرّة الأولى التي استشعرت في قرارة نفسها أنها ليست أكثر من أسيرة مملوكة، كسيرة الجناح، ولن تكون أكثر من ذلك، مهما كانت الملكة لطيفة معها.

في مساء ذلك اليوم احتلّت الحُمّى جسدها، وكما أخبرتها أمّها في اليوم التالي، كانت تهذي طوال الليل بكلام لا ناظم يجمعه، حتّى إنها عجزت عن الذهاب في صباح اليوم التالي إلى المخزن، وبقيت عاجرة عن ذلك أيّاماً عدّة.

حين تماثلت للشفاء؛ توجّهت إلى القصر لتخبر الملكة بمرضها الذي أخّر بعض الطلبات المُلِحّة .. ولكن الملكة، ويا للمفاجأة، لم تسألها عن أيّ شيء يخصّ العمل، بل حول أمر واحد:

- لماذا تمتنعين عن **شارل لافاييت**؟

انسحبت فيروزة بهدوء وهي تقول:

- سأرى، يا صاحبة الجلالة، سأرى.

وفي أثناء خروجها من قاعة العرش، لمحت رجلَيْن في بهو الانتظار، وسمعتْهما يتخاطبان بـ **العربية** وهما يستعجلان الدخول إلى الملكة، فتشجّعت واقتربت منهما، وطلبت بالعربية أن يشرّفاها بزيارة إلى قصرها غداً وقت الغداء لأمر مهمّ، ووصفت لهما مكان القصر واسمه.

حين عادت **إيبرو** إلى القصر مساء؛ رأت **فيروزة** ساهمة النظرات، عيناها محمرّتان من البكاء:

- ماذا جرى في لقائكِ مع **الملكة**؟

- تريدني أن أكون عشيقة لشارل!

جفّ ريق **إيبرو**، ووضعت يدها على صدرها مردّدة:

- الرحمة، يا ربّ، أنقِذْنا ممّا نحن فيه بجاه شفاعة نبيّكَ محمّد.

قالت **فيروزة** من دون أن تنظر إلى أمّها:

- دعوتُ رجلَيْن للغداء غداً، يبدو لي أنهما من **الأندلس**، **أحدهما** يبدو فقيهاً، أرجو من الله أن يكونا صالحَيْن، فيجدا لنا مخرجاً ممّا نحن فيه.

في ظهيرة اليوم التالي، وكان يوم أحد، وبعد العودة من الكنيسة، أخبرها الخادم بحضور ضيف في عربة، يصحبه غلام وحوذي. كان الضيف أحد الرجلَيْن اللذَيْن استقبلتهما الملكة يوم أمس، وقدّم نفسه لفيروزة باسم **أحمد بن قاسم الحجري**. استقبلتْهُ السيّدتان استقبالاً حافلاً، وهيّأتا له غداء عجيباً في تنوّعه وزكاوة لحمه. أمّا وقد وجدت في **أحمد بن قاسم** نبلاً لم تعهده منذ سنين، تشجّعت، وروت له قصّتها، وطلبت نصيحته.

خلال حديث فيروزة، كان الضيف يهزّ رأسه، كما وكأنه يعرف هذه الحكاية. ولمّا فرغت، تنهّد **الحجري** كمَنْ يريد أن يزيح عن نفسه كمداً، وقال بلهجة حازمة:

- لا تنتظري في هذه الديار لحظة واحدة، فـ **لن ينجو أحد إلّا مَن كان على دِين الإسلام**.

- من أجل هذا أطلب منكَ، بل أتوسّل إليكَ أن تتدبّر لنا وسيلة نعود فيها إلى **إسطَنبُل**.

- هل تقبل **الملكة** بذلك؟

لاحت من **فيروزة** ابتسامة يائسة، وقالت:

- لعلّها تفضّل أن نذهب إلى القبر على أن نذهب إلى **إسطَنبُل**.

هنا أطرق **أحمد بن قاسم** مليّاً، وبدأ يمسّد لحيته، ثمّ نظر إلى **فيروزة** وقد التمعت عيناه الذكيّتان وهو يقول:

- دعي الأمر لي، سأعيدكِ والسيّدة الوالدة إلى **إسطنبُل** في أقرب وقت.

انكبّت **إيبرو** على يده تريد تقبيلها، فسحبها بلطف:

- أستغفر الله، أيّتها الأخت، هذا سداد لجزء يسير من دَيْن في أعناقنا نحن الأندلسيِّيْن حيال التُّرك.

رفعت **إيبرو** يدَيْها بالدعاء له، وتمتمت فيروزة:

- متى ..؟ متى على وجه التحديد؟

- حين تتيسّر الأمور سيخبركما رجل أندلسي من طرفي بما ينبغي عليكما فعله.

كان **ابن حمدان**، صاحب النُّزُل والقائم بأمر الأندلسيِّيْن في **بَرِيْش**، هو المقصود بكلام الحجري، وقد شدّد عليه أن يرتّب الأمر مع فيروزة وأمّها برَوِيَّة، وأن يلتزم أقصى حدود الكتمان.

سافر **أحمد بن قاسم** إلى **مَرسَى البركة**، ومنه إلى **مِستِرْضَام**، ومن هناك توجّه إلى مدينة **لَيذَا**، وأمضى فيها بعض الوقت يجادل رجلاً هناك يُتقن العربية كأحد أبنائها، حول عقيدة التثليث، وكان من أتباع **نِحلَة لُوطِري وقَلْبِن**، المُنقلبَيْن على **بابا روما** وديانة الكاثوليك، وقد كتب الحجري رسالة مسهبة حول ذلك الجدال، وكيف شرح لهم حول **البارقليط** الوارد ذِكْره في الإنجيل، وأنه هو نفسه نبيّنا محمّد صلوات الله وسلامه عليه، لا مجال لعرضها هنا.

من **لَيذَا** توجّه الحجري إلى **ألَهايَه**، وهناك التقى بصديق قديم له يُدعى **بدرو مرْتِيْن**، هو في الحقيقة رسول أمير بلاد **الفلانضس**، تعرّف إليه في **مُرَاكُش** سجيناً في أثناء الفوضى التي اجتاحتها وقت ذاك،

فتوسّط له عند كبراء المدينة، وأطلق سراحه. وهذا الرسول أخبر أمير البلاد **مُورِسِي** بوجود **أحمد بن قاسم**، فلقيه في أربع جلسات، وكان يحدّثه عن وضع أسطول من السفن الفلامنكية في خدمة المسلمين لاستعادة الأندلس، فقال له **أحمد بن قاسم** إن هذا الأمر يحتاج إلى اتّفاق سلاطين المسلمين، **سلطان مُراكُش**، و**الرجل الكبير** في **إِسْطَنْبُل**، وأنه سيتولّى بنفسه نقل هذا الأمر لهما.

في نهاية اللقاء قال **الأمير مُورِسِي** لأحمد بن قاسم:

- اطلبْ ما تشاء نُلبِّه لكَ.

وخلافاً للشائع في مثل هذه المواقف، لم يطلب أحمد بن قاسم شيئاً يخصّه، كالذهب أو الفضّة، ولا أيّ غرض لذاته، بل طلب المعونة في تهريب فيروزة وأمّها من **بَرِيش**، وأوضح له إنهما من **العشيرة العثمانية المباركة**، لأن هذا العون سيكون له أثر محمود عند المسلمين وسلاطينهم، وخصوصاً **سلاطين إِسْطَنْبُل**. فكان له ما أراد، إذ أوصى **الأمير مُورِسِي** أحد ربابنة سفنه بأن يتولّى الأمر برمّته، وأن يوصل المرأتَيْن إلى حيث تريدان. وهذه الأخبار نقلتُها من مخطوط رحلة الحجري **ناصر الدِّين على القوم الكافرين** الذي امتلكتُ نسخة منه بعد سنوات. وحين عثر عليَّ **ابن حمدان** في الدَّيْر ذاهلاً عن كلّ شيء، كانت خطّته لتهريب **فيروزة** وأمّها **إيبرو** قد اكتملت، فألحقني بهما من دون أن يخبرني عنهما شيئاً.

بعد أربعة شهور من السفر في **بحر الظلمات** وأنوائه المرعبة، و**بحر الروم** وجزره المتناثرة كحطام سفينة، وصلنا إلى مضيق **جنق قلعة بوغاز**، وكان ذلك في غُرَّة الشهر الأخير من سنة 1615 مسيحية. ولم يمضِ يومان حتّى أطلّ علينا **برج گَلَطَه** الشامخ بقَلَنْسُوَتِه، من وراء السحب الرمادية المُجزَّعة بالحُمْرة النارية، وكانت الساعات الأخيرة من هذا السَّفَر الطويل،

هي الأشدّ وطأة على روحي، إذ رحتُ أتأمّل في أيّامي القادمة، وقد زالت عن **فيروزة** تلك الغلالة الملائكية التي نسجتْها مخيِّلتي خلال سنوات الفراق الطويلة!

لا أعرف متى استشعرت إعراضي عنها، وزهدي بالحديث معها، ولكنني؛ ومنذ أن عبرنا مضيق **جنق قلعة بوغاز**، بدأتُ أتنبّه إلى أنها لم تعد تُفوِّت فرصة لاختلاق أيّ حديث معي إن كان إلى ذلك من سبيل، أو الوقوف إلى جانبي صامتة إن رأتني ساهماً في البحر. وحين أشرفنا على مَرسَى **ميِّت أسكله سي**، ذلك المساء البارد، وجدتُها، ومن دون سبب واضح، تحدّثني عن المنديل، وكيف رَقَمَتْهُ في دقائق قليلة، ونقعتْهُ بعطر النَّارَدِيْن.

لا أُنكر بأن تلك الذكرى هيّجت خاطري، وأعادت لي صورة فيروزة حين رأيتُها للمرّة الأولى في ذلك اليوم الغريب، ولكن تلك الصورة المشرقة؛ سرعان ما تبدّدت فور تذكّري قصّتها مع الفَرَانْصَاوِيّ العابث. وحين دخلنا المَرسَى، انشغلتُ بالحديث مع القبطان الذي سلّمني كتاباً قال إن مرسله هو السيّد **أفوقاي**، وهو الاسم الفرنجي **لأحمد بن قاسم الحجري**، الذي أوصاه بأن يُوصِله إلى كبير الأندلسيِّيْن في **إسطَنبُل**.

وبسبب انشغالي بالحديث مع **القبطان الفلامنكي** تأخّر هبوطي من السفينة، فبحثتُ عن فيروزة وأمّها ولم أجدهما، وحين هبطتُ السُّلَّم وجدتُهما تنتظراني رغم البرد الشديد. اعتذرتُ منها وودَّعتُهما عند عند قارب الـ **بريمي**، على أمل أن أزورهما في الأيّام القادمة.

كانت نظرات استغراب في عينَي **فيروزة**، وشيء من أسى في عينَي أمّها **إيبرو** التي طفرت منها دمعة وهي تنظر إليّ محاوِلة فهم تغيّري نحوهما!

عودة الروح

فور وصولي إلى كَلَطَه؛ توجّهتُ إلى بيت **الشريف الأندلسي**، لكي آخذ منه مفتاح بيتي. لم أجد الشيخ، ووجدتُ ابنه الأصغر وقد أصبح شاباً .. رحّب بي بحرارة، حين أعلمتُهُ باسمي، ودعاني للدخول ريثما يصل والده. اعتذرتُ بسبب وَعْثَاء السَّفَر، وكان الشيخ قد أعلم أبناءه بأنني قد أحضر في أيّ وقت، فقد أخبره ابن حمدان عن طريق ابن الحكم أنني غادرت **بَرِيش** متوجهاً إلى **إِسْطَنْبُل**، ونبّههم بأن يسلّموني مفتاح بيتي فور وصولي.

لاحظتُ أن المفتاح جديد، فقال ابن الشيخ:

- طلب منّا الوالد أن نخبركَ بأنه غيّر المفتاح.

أجل كان المفتاح جديداً ومختلفاً، ولم أعبأ بالأمر، ولكنني فوجئتُ بنظافة البيت وترتيبه، كأنني غادرتُهُ صباحاً ورجعتُ إليه مساء.

حين رأيتُ **الشريف الأندلسي** بعد صلاة فجر اليوم التالي في **جامع العرب**، احتضنني بقوّة، وأخذ يحمد الله على سلامتي. شكرتُهُ على الاهتمام بتنظيف بيتي، لكنه تجاهل الأمر وراح يعاتبني على عدم انتظاري له في بيته الليلة الماضية، وأعاد عليّ قصّة تغيير المفتاح بسبب تقادُم القفل القديم.

قلتُ له ونحن نصعد الجادّة المفضية إلى البرج:

- اعذرني، يا شيخي، وصلتُ متعَباً، واحتجتُ للراحة، ولا يسعني إلّا أن أشكركَ جزيل الشكر على تنظيف بيتي في غيابي، وجدتُهُ أفضل ممّا كان عليه ساعة سَفَري.

نظر الشيخ إليّ بدهشة، وقال:

- أوّلاً: أنا مَنْ يودّ أن يشكركَ، لأنني أسكنتُ في بيتكَ، في أثناء غيبتكَ الطويلة، بعض القادمين من الأندلس، ريثما تدبّرنا لهم بيوتاً، وآخر مرّة أسكنتُ فيها أندلسياً في بيتكَ كان قبل عام، ومنذ ذلك الوقت لم أدخل البيت، وكنتُ أمرّ ببابه كلّ يوم، وأتفقّده من خارجه فقط!

أثار جواب الشيخ حَيْرتي؛ لأن البيت نظيف للغاية، وربّما لم يمضِ على تنظيفه أكثر من يومَيْن أو ثلاثة على الأكثر.

في تلك اللحظة كنّا قد عبرنا من جانب بيت الطبيب **ابن أبي العاص**، فسألتُهُ:

- كيف حال الطبيب؟

قال متبرّماً:

- هذا الرجل يحيّرني، بالكاد أراه، صدّقني، يا عيسى، لا أعلم إن كان في **گلَطَه** أم في **إسطَنبُل** أم خارجهما.

وأردف وهو ينظر إليّ متسائلاً:

- هو أيضاً، كلّما التقينا يسألني عنكَ .. وها أنتَ تسأل عنه قبل أن تسأل عن أيّ شخص آخر، ترى ما قصّتكما؟

قلتُ وأنا أتخيّله بزِيّ المدّعي العامّ يأمر بتعذيب أمّي:

- سألتُ عنه لأنه عالجني قبل أن أسافر، وحين وصلتُ البارحة مساء

لم أرَ ضوءاً في بيته.

ومن دون أن أدري كيف ارتفع صوتي:

- **ثمّ؛ لِمَ يسأل هو عنّي**؟!

تبسّم الشيخ، وقال محاوِلاً التخفيف من غُلْوَائِي:

- أظنّ أن غيبتكَ الطويلة أثارت قلقه! ولا أخفيكَ، فقد سألتُهُ عن سبب اهتمامه بكَ إلى هذا الحدّ؟ فقال إنه اهتمام الطبيب بمرضاه.

لم أشأ أن أخوض أكثر في الحديث عن الطبيب، فنقلتُ الحديث إلى مكان آخر:

- **وسليم أفندي**؟

قال ببرود:

- سمعتُ عنه بعض أطراف من حديث، ولكني لم أره البتّة مذ سألتَني عنه أوّل مرّة.

ثمّ توقّف وراح ينظر إلى عينَيَّ محاولاً سَبْر غوري:

- مَنْ **سليم أفندي** هذا؟ وما بكَ تسألني عنه أيضاً قبل أن تخبرني شيئاً عن غيبتكَ؟

- على رسلكَ، يا شيخي! فحديث غيبتي طويل وذو شجون، وقد يحتاج منّا أن نجلس أكثر من مرّة.

قرَّ رأي الشيخ على أن نتوجّه إلى بيته، نتناول الإفطار، وأروي له ما وقع لي في السَّفَر. وبسرعة عرَّجتُ على بيتي، وأحضرتُ كتاب **أحمد بن قاسم الحجري**، وسلّمتُهُ له، فقال ضاحكاً:

- وصلني كتاب من الحجري قبل مدّة يسألني عن هذا الكتاب.

في بيت الشيخ وجدنا الإفطار بانتظارنا، ويا لشوقي لهذا الذي افتقدتُهُ لسنوات خلت، وها هو عند ركبتي على السِّمَاط: حبَّات الزيتون، والجبنة البيضاء اللذيذة، واللبن، ودبس العنب، والقشدة الطازجة، ورائحة الخبز الساخن، إلهي، لكَ الحمد.

بعد أن قرأ كتاب **الحجري** سريعاً، هزّ الشيخ رأسه وراح يسألني عن أدقّ التفاصيل، وبدوري كنتُ أجيب باقتضاب شديد، ففكري كان مشغولاً بـ **فيروزة**، و**الطبيب ابن أبي العاص**، و**سليم أفندي**، و**دُون خيرونيمو**، وبيتي النظيف المرتّب.

ضاق الشيخ ذرعاً بشرودي وحديثي الغامض الذي لا يشفي غليلاً؛ وأعاد عليّ بعض الأسئلة أكثر من مرّة، من دون نتيجة تُذكَر. كان يريد أن يعرف كلّ شيء، من لحظة مغادرتي **إسْطَنْبُل** قبل نحو خمس سنوات، وحتّى عودتي. صحيح أن رسائل كثيرة وصلتْهُ من **ابن حمدان**، و**أحمد بن قاسم الحجري** حول ما جرى مع **ملكة فَرَانْصَة** وابنها، وأحوال أمّتنا في غير مكان، وحتّى خبر العثور عليّ بعد سنوات الاختفاء في **دَيْر القدِّيس جِرمِن**، إلّا أنه كان يريد أن يسمع منّي، وأن يفهم ما جرى بالضبط، وكيف؟ ولماذا؟

نهض الشيخ واقفاً، معلِناً انتهاء جلستنا، متذرّعاً بالذهاب لأداء صلاة الظهر في الجامع .. واضح أنه يئس منّي وانزعج، وهنا انتبهتُ لخطئي؛ وحاولتُ أن أعزو الأمر لوَعْثَاء السفر، لكن ذلك لم يُقنعه، ولم يخفّف من انزعاجه، حتّى إنه تجاهل وجودي تماماً حين رافقتُهُ إلى الجامع.

يومها اكتفيتُ بركعات الفرض، وقفلتُ عائداً إلى بيتي لأخلوَ إلى نفسي، وأفكّر بما أنا صانع في مقبل الأيّام، وما إذا كنتُ قد ظلمتُ **فيروزة** حين ظننتُ بها الظنون؟ رحتُ أستعيد قصّتها مع الفَرَانْصَاوِيّ

شارل لافاييت جملة جملة، وكانت التساؤلات تتوالد في رأسي مثل كابوس مزعج:

- ما الذي حدث حتّى تقبل دعوته وترضخ لكلامه المعسول؟ هي حاولت أن تبرّر الأمر بأنه طلب من الملكة، ولكنني أشكّ كثيراً في أن تطلب الملكة منها شيئاً كهذا!

- كيف استطاع ذلك **الغِرُّ اللاهي** أن يستميل قلبها، حتّى كاد أن يُقنعَها بارتكاب الفاحشة معه؟ صحيح أنها أتت على ذِكْر فكرة الزواج، ولكنْ، كيف لها أن تتزوّج بنصراني، إن لم تكن تحبّه ذلك الحبّ الذي ينسيها أهلها ودِيْنها وبلدها؟!

- ما أدراني إن كان قد قبلها قرب النهر في تلك النزهة المشؤومة؟ ألم تقل إنه كاد أن يركع عند قدمَيْها؟ كيف يركع مَنْ كان في وضعه إن لم يرَ قبولاً منها؟

- ما الذي يجعلني أصدّق بأنها لم ترافقه إلى قصره؟ وأن تلك الأيّام التي غابتها عن المخزن لم تكن معه؛ وأن قصّة المرض باطلة من أساسها؟

- ما هو المبرّر بأن **الملكة** لم تحدّثها بأيّ أمر آخر سوى **شارل لافاييت**؟ إذن ربّما علمت بقضائها أوقاتاً معه.

ألغاز كثيرة، وثغرات عَصِيَّة على الفهم في هذه القصّة التي روتها **فيروزة** بكثير من الاختصار، على عكس القصص الأخرى التي كانت تستفيض برواية أدقّ تفاصيلها حتّى الملل.

بعد عشرة أيّام من التفكّر، لم أكن أفعل شيئاً سوى الصلاة في المسجد، وتجاذب أطراف الحديث مع **الشريف الأندلسي**، وفي أثناء عودتي إلى بيتي بعد صلاة الظهر، تنبّهتُ لامرأتَيْن مخمّرَتَيْن كانتا تتبعانني

منذ أن خرجتُ من الجامع، لم أعبأ بهما إلى أن دلفتُ في زقاق بيتي. التفتُّ إليهما، فأشارت إحداهما لي بيدها. عدتُ لأرى ما تريدان، فهتفت بي النحيفة الطويلة:

- **عيسى** ..

عرفتُ صوتها، فخفق قلبي بقوّة، وتعرّق جبيني رغم البرد الشديد، وبشوق حاولتُ أن أكتمه من دون طائل قلتُ:

- **فيروزة**! أهلاً بكِ، كيف حالكِ؟

تقدّمت فيروزة نحوي قليلاً بينما بقيت المرأة الأخرى واقفة مكانها.

- هذه أمّي؛ ننتظركَ اليوم في بيتنا إن رغبتَ في زيارتنا، عندي كلام لا بدّ أن أقوله لكَ.

أجبتُها وأنا أمسح بنظري بيوت الزقاق:

- سآتي بعد صلاة العصر.

- إلى اللقاء إذن.

واستدارت عائدة من حيث أتت هي وأمّها **إيبرو**، مشيَّعتَيْن بعيون جيراني الأندلسيِّيْن الذين كانوا يراقبوننا من خلف زجاج نوافذهم.

صعدتُ إلى بيتي لأعدّ الغداء. كنتُ أخطّط لطهي وصفة **سمك راهبي**، كما تعلّمتُها من **خالتي إيزابيلا**، إذ اشتريتُ بعد صلاة الفجر **سمكة موسى** من صيّاد كان يعرض صيده قرب الجامع، سمكة طرية سهلة التنظيف والطهي، فقرّرتُ أن أختصر الوصفة إلى أدنى حَدٍّ ممكن، وأن أتجاوز عن المُطيّبات النافلة، كالأَفَاوِيَة، والنقع بالخلّ والثوم المدقوق، وغير ذلك، والدخول فوراً إلى القلي بعد التمليح.

لا أذكر كيف تناولتُ طعامي، ولا كيف ارتشفتُ الحساء الذي صنعتْهُ من الهليون، والكركم، وقليل من السميد، والزبدة القصطمونية، كنتُ أهجس بزيارة فيروزة المفاجئة .. مستغرقاً في التفكير بحالي، وكيف خفق لها قلبي كأن شيئاً لم يكن؟

بقي السؤال معلّقاً عمّا أتى بها في هذا الجوّ البارد؛ إن لم يكن أمراً يستحقّ العناء، وقد أجهدتْ مخيِّلتي محاولتي ابتكار صورة لوجه العاشق الفَرَانْصَاوِيّ الشابّ!

نظّفتُ الأطباق والطاجن بالأشنان التي تعلّمتُ طريقة تحضيرها من خالتي إيزابيلا، ثمّ تسوّكتُ، وتوضّأتُ ومضيتُ إلى المسجد. وبعد الصلاة التي لاحظتُ أن الشريف الأندلسي لم يحضرها، توجّهتُ إلى بيت **حاجي رمضان**، رحمه الله، لزيارة **فيروزة**.

لم أجد صعوبة في العثور عليه، كان أكبر بيوت تلك الناحية، ولم يتغيّر فيه شيء. طرقتُ الباب طَرَقَات خفيفة، ثمّ قوية، ففتح لي رجل أربعيني يرتدي ذلك الغطاء الجِلْدي الداكن الذي يميّز العاملين بصباغة القماش. سألتُهُ بالتركية عن فيروزة وأمّها، فزال استنكاره، وغاب قليلاً لتحضر فيروزة، وتدعوني لمرافقتها إلى الطابق الثاني.

لفت نظري أن الطابق الأرضي يَعِجُّ برجال ونساء يعملون على صباغة جزز كبيرة من الصوف، وفي الحجرات أنوال لم أرها من قبل. وكانت فيروزة أخبرتْني أن أخاها **علي رضا أفندي** حول المنزل، في أثناء غيابهم، إلى **فابريقة** للزرابي التركمانية، بعد أن زاد الإقبال عليها في السنوات الماضية. وأنه الآن في الشام، لكي يتّفق مبكّراً مع تجّار الصوف، قبل موسم الجَزِّ في الربيع القادم.

لم تنزع فيروزة الخمار عن وجهها حين جلسنا في الحجرة العلوية

المختصّة بالضيوف، ولاحظتُ أنها تركت الباب مفتوحاً. وبعد حديث المجاملات، أتت **إيبرو** حاملة طبقاً عليه أصناف من الحلوى، فسلّمتْ وانصرفتْ سريعاً وهي تكرّر عبارات الترحيب التركية:

- أهلاً بقدومكَ.

وما إن خرجت أمّها؛ حتّى بدأت فيروزة تخاطبني بالفَرَانْصَاوِيَّة:

- أنتَ تعلم، يا **عيسى**، كم أحببناكَ، أنا، وأمّي، والمرحوم أبي، حين رأيناكَ أوّل وثاني مرّة هنا في هذا البيت، وأيضاً حين التقينا في **مِسْتِرْضَام**، وطوال الرحلة؛ وقد شعرتُ منكَ بميل نحوي، وحين بدأنا نقترب من إِسْطَنْبُل، فجأة شعرنا أمّي وأنا بتغيّركَ نحونا، ولا أخفيكَ أننا منذ وصولنا ونحن نتذاكر، كلّ يوم، عن سبب تغيّركَ. وهذا الأمر نغّص علينا فرحة عودتنا إلى ديارنا سالمتَيْن، فإن كان هناك ما تقوله؛ فأرجو أن يكون الآن، وبشكل واضح وصريح.

قلتُ وأنا أحدّق في عينَيْها المختبئ نصفهما وراء الخمار:

- حسناً سأكون صريحاً، ولكِ أن تصدّقي أنني لم أتنبّه لما تغيّر بي إلّا متأخّراً، حين دخلنا مضيق **جنق قلعة بوغاز** انتابني شعور قوي بأنكِ لم تخبريني بكلّ شيء يخصّ **شارل لافاييت**.

حين سمعت فيروزة اسم **لافاييت**، شهقت، وكأن حملاً ثقيلاً انزاح عن كاهلها، أرخت بعدها الخمار عن وجهها، وهي تردّد:

- يا إلهي، أحمد الله أن **شارل لافييت** هو سبب ما بدر منكَ.

قلتُ مستغرباً:

- لماذا؟

- لأنه سبب أدنى من أن يستحقّ هذا القلق كلّه. كنّا نظنّ أن ثمّة مصيبة كبيرة صدّتكَ عنّا.

ثمّ ابتسمت وهي تقول:

- تخيّل أنني شعرتُ في دواخلي بهذا الأمر، وصارحتُ أمّي به، ولكنها زجرتني وقالت إنكَ أكثر رصانة من ذلك.

ربّما كانت **إيبرو** محقّة، فلم يكن لائقاً بي أن تأخذني شكوكي إلى حدّ التهوّر الأحمق، وأدركتُ بأنني في تغيّري الطائش، كنتُ غِرّاً يستحقّ التقريع، وأنا الذي كنتُ أصف **شارل لافاييت** بالطيش!

شعرتُ للحظات بأنني بتّ مفضوحاً أمام ابتسامات فيروزة، التي راحت تتأمّلني، وفي عينَيْها نظرات حبّ وسخرية وعتاب.

قالت وهي تحاول أن تكتم ضحكة حفيفة:

- إذنْ **شارل** أثار غَيْرتكَ! ولكنْ، بحسب رأيكَ: ما الذي منعني من أن أرتبط به؟ وبمَ تفسّر أنني رفضتُ الارتباط به خارج بيت الزوجية؟

لم تخطر لي مثل هذه الفكرة وأنا أُعيد وأمحِّص قصّتها: حقّاً ما الذي كان يمنعها من أن تعيش معه عشيقة، إن لم تكن أسبابها في أخلاقها ودِيْنها؟

وحين لاحظتْ تغيّراً في نظراتي قالت:

- لا أعرف إن كنتَ تعلم أن الخليلة، أو العشيقة، أو الحبيبة، أيّاً كانت التسمية، لا تقلّ شرفاً عند أعيان **فَرَانْصَة** عن الزوجة المرسومة بعقد كنسي .. بل هي المفضّلة عند رجالهم. ولا أظنّكَ غافلاً عن أن الكثير من

الأعيان هم أبناء أولئك الخليلات، وعلى رأسهم **الملك هنري**، زوج **الملكة ماري**ا، الذي كانت تدور حوله الكثير من الشائعات، إن كان ابن خليلة؛ أم ابن زوجة شرعية؟

لا أُنكر بأنها أقنعتْني، ولكنني؛ وبسبب عِزَّة النَّفْس، اكتفيتُ بالصمت ولم أعترف بخطئي، ويبدو أنها انتبهت لذلك، فقالت منهية الحديث حول ذلك الأمر:

- في الحقيقة ليس هذا هو الأمر الذي أردتُ رؤيتكَ من أجله، بل هو أمر آخر يتعلّق بـ **سليم أفندي الأندلسي**.

لا أعرف ما جرى لي حين سمعتُ اسم **سليم أفندي**، كأنني كنتُ نائماً وصحوتُ.. أجل، في الأيّام الأخيرة نسيتُ **سليم أفندي**، وذهلتُ عن **محمّد بن أبي العاص**، ولم أعد أفكّر **بدُون خيرونيمو راميريز**:

- ما به **سليم أفندي**؟

- رأيتُهُ البارحة.

- أين؟

- في اليوم التالي لعودتنا توجّهتُ إلى قصر **طوب قابي**، ورحتُ أنتظر قرب بَوَّابته، وفعلتُ الشيء نفسه غير مرّة، إلى أن رأيتُهُ صباح اليوم يخرج مسرعاً، ويستقلّ عربة بحصان واحد، ويتوجّه إلى **إسْكِلَة بهجة قابي**، ومن هناك رأيتُهُ يعبر بقارب **بريمي** إلى **إسْكِلَة گَلَطَه** .. إنه يسكن عندكم في **گَلَطَه**، يا عيسى.

فاجأني الخبر، كيف يسكن عندنا و**الشريف الأندلسي** لا يعرفه؟

- هلا وصفتَهُ لي؟

- بمثل طولكَ، لحيته شقراء، ويرتدي جُبَّة باذخة، وعِمامة صفراء كعِمامات الأندلسيِّيْن.

يا للهول! هذه أوصاف الطبيب ابن أبي العاص، لقد صدقت ظنوني حين رأيتُهُ للمرّة الأولى عند **إسْكِلَة گَلَطَه**، حتّى وإن أنكر، وكان وقت ذهابه في ذلك الصباح مسرعاً هو موعد بدء العمل في ديوان قصر **طوب قابي**. كيف لم أتنبّه لذلك. لقد أخفى نفسه هذه السنوات كلّها تحت مسمّى **محمّد بن أبي العاص**، حتّى إن **الشريف الأندلسي** لم يره بشخصية **سليم أفندي** حتّى اليوم!

سألتني فيروزة باهتمام، حين رأتني شارداً أتفكّر في كلامها، من دون أن أنطق بكلمة:

- ما بكَ؟ هل ثمّة شيء؟

قلتُ وأنا أنهض استعداداً للذهاب:

- اقتربتُ من حلّ لغز هذا المأفون، يا فيروزة، وفي القريب سآتيكِ بخبره اليقين، إن شاء الله.

شعَّ الفرح من عينَي **فيروزة** التي قبضت على يدي وهي تردّد:

- وفقّكَ الله.

شكرتُها على إخباري بهذا الأمر، وقفلتُ مسرعاً إلى بيتي وأنا منشغل بالطريقة التي عليّ أن أسلكها حتّى أقبض على **ابن أبي العاص**، وأواجهه بحقيقة كونه **سليم أفندي**.

سِفر الكتب والأسرار
في خمسة فصول

وهي: 'محبس الأسرار'، و'الكتاب الأول'، و'الكتاب الثاني'، و'الكتاب الثالث'، و'الكتاب الرابع'

مِحْبَس الأسرار

حين حدّثني **البدر بن الحَكَم** عن قصّة **الرايس الموريسكي ابن عطاء الله** الذي قتل زوجته النصرانية **ديسدمونا**، وضجَّ بها أهل البُنْدُقِيَّة لسنوات طويلة، لم أكن أصدّق أن رجلاً عاقلاً رزيناً يمكن أن يعبث بعقله واشٍ حقود، فيُقدِم على قتل مَنْ يحبّ، إلّا إذا كان أحمقَ بحقّ .. أمّا الآن، فقد بدأتُ أفهم تماماً معنى أن تشبّ نار الغَيْرة في الصدر، فتصنع غِلَالَة تغطّي العقل، وتحجب عنه نعمة المنطق.

غادرتُ بيت **حاجي رمضان** قبل حلول صلاة المغرب. طوال الطريق؛ لم تفارق مخيِّلتي ابتسامة فيروزة الساخرة منّي؛ وأنا أعيد وأكرّر أمامها اسم **شارل لافاييت**، فرحتُ أتمثّل أبيات **أبي نوّاس**: **تَضحَكينَ لاهِيَةً وَالمُحِبُّ يَنتَحِبُ.**

وصلتُ إلى الجامع مع الأذان، فصلّيتُ وخرجتُ مسرعاً لأتحقّق من بيت مَنْ يزعم أن اسمه الطبيب **ابن أبي العاص** (!) كان البيت مظلماً، والنوافذ مغلَقة بالستائر الكتيمة، لعلّه في البرج.

فتحتُ باب بيتي، وصعدتُ إلى الحجرة العليا. أوقدتُ سراج الزيت، وجلستُ أتفكّر في ما أنا فاعل: هل أُواجهه بالحقيقة؛ أم أتتبّعه إلى البرج؟ فلربّما وجدتُ شيئاً يمكن أن يدينه. تذكّرتُ الصندوق الذي أودعتُ فيه أشيائي الثمينة قبل سَفَري الأوّل إلى البُنْدُقِيَّة، ومنها مفتاح بَوَّابة البرج،

كشفتُ عن مكان الحفرة في زاوية الحجرة، ووجدتُ صندوق خشب الساج في مكانه تحت الأرض، محاطاً ببلاطات المَرمَر. كانت الرطوبة قد نخرت فيه، وكادت أن تثقبه؛ لا بأس، فالأشياء داخله لا تزال سليمة كما تركتُها **صَكّ اعتناق الإسلام**، و**حُجّة ملكية البيت** أيضاً، و**النقود الذهبية** ... و ... من أين جاءت قُصَاصَة الورق هذه؟! .. لا أذكر أنني تركتُ في صندوقي شيئاً كهذا؟.. و**المفتاح** .. كيف اختفى المفتاح؟!

سرت قُشَعْرِيْرَة في جسدي .. لا أحد يعرف بمكان صندوقي، ولا يمكن لشيء كهذا أن يحدث. أمسكت القُصَاصَة الغريبة، كانت في طيَّتَيْن .. فتحتُها، وقرأتُ فيها بخطٍّ أندلسي أنيق، وبحبر أحمر: **مفتاح بيتكَ هو مفتاح بيتي**. ما هذا اللغز، يا الله ..؟ ومَنْ يكون هذا الذي عرف بمكان صندوقي ووصل إليه، ليأخذ مفتاحي ويترك لي هذه الأُحجيَّة في سطر أندلسي .. نعم، **الخطّ أندلسي!**

حملتُ الصندوق وصعدتُ إلى الحجرة العليا، ورحتُ أتأمّل في العبارة، ترى مَنْ هو كاتبها؟ وكيف استدلّ على وجود الصندوق؟ لا أذكر أنني تركتُ أثراً للحفرة يوم ردمتُها.

أيّ إلهام حمل شكوكي لتحوم حول مَنْ يسمّي نفسه الطبيب **ابن أبي العاص**؟ ألأنه رأى المفتاح معي في ذلك اليوم، وسألني عنه؟ أم تفكّري بأنه هو صاحب المصلحة الوحيد في الوصول إلى المفتاح؟ وحسماً لشكوكي حملتُ سراج الطريق، وتوجّهتُ إلى بيته، أولجتُ مفتاح بيتي في قفل الباب، وللغرابة؛ انفتح بيُسر .. لم يبقَ عندي لحظتها سوى أن أخال أنه صاحب القُصَاصَة، ولكنْ، ما الذي يريده منّي؟

دلفتُ إلى الحجرة السفلى، فوجدتُها كما هي بصناديقها، وأرديته،

وقبّعاته الفرنجية العديدة، معلَّقة على الجدران. الحجرة العليا كانت خاوية الوفاض إلّا من أوراق متناثرة هنا وهناك، وبقايا أعشاب ونقيع أدوية.

على المنضدة التي تتوسّط الحجرة وجدتُ ورقة محبرة بحروف كبيرة، ولمحتُ اسمي مخطوطاً فيها، وفوق الورقة مفتاحان. تناولتُ الورقة، كانت كتاباً مقتضباً بالعربية موجّهاً لي بالاسم:

إلى عيسى بن محمّد

اضطررتُ للعودة إلى غَرْنَاطَة قبل عودتكَ إلى إِسْطَنْبُل. أخبرتُ قاضي گَلَطَه علي أفندي بأنكَ وريثي الوحيد، وأن المِحْبَس الخامس في برج گَلَطَه صار في عهدتكَ وأمانتكَ.

تجد مفتاح البَوَّابة والمِحْبَس مع هذه القُصَاصَة، وإذا لم تجدهما، فعليكَ أن تُسرِع في التوجّه إلى القاضي، لتُخبرَهُ عن الأمر، وهو سوف يُزوّدكَ بمفاتيح جديدة.

محمّد بن أحمد

من لغز إلى لغز ومن أُحجيَّة إلى أُحجيَّة، لم أفهم شيئاً، لماذا يصفني بأنني وريثه؟! وكيف يعرف عني هذا كلّه: مكان صندوقي، وموعد قدومي، ويعلم الله ماذا فوق ذلك أيضاً. حملتُ المفتاحَيْن وهرعتُ نحو البرج.

على غير عادتها؛ كانت سماء گَلَطَه صافية تلك الليلة، بينما بدا هلال ذي الحِجَّة مستلقياً على رأس قَلَنْسُوَة البرج المخروطية، مطمئنّاً لا يخشى السقوط .. ومن بعيد؛ من جهة أحياء الجِنْوِيِّيْن وسائر الفرنجة، كانت أجراس الكنائس تقرع معلِنة بدء القدَّاس.. إنها ليلة ميلاد المسيح عند الكاثوليك، أمّا هنا في أزقّة الأندلسيِّيْن المعتمة، لا شيء يتحرّك سوى

الكلاب الثاوية على حجارة الطريق الباردة، وقد أثار ضوء سراجي هريرها المكتوم.

وصلتُ إلى البرج، من دون أن أُثير نباح الكلاب. كان ضوء المِحْبَس الخامس مطفأً، ما عنى لي أن الطبيب ابن أبي العاص ليس هنا. لم يبقَ أمامي إلّا أن أُعمل المفتاح في قفل الباب. دعوتُ الله في سرّي، وأنا أديره بحذر وتأنٍّ أن يفتح. استجاب الله لدعائي، وانفرج الباب بيُسر. وبنَفَسٍ واحد صعدتُ الدرج الملتفّ إلى طبقته الخامسة. انفتح باب المِحْبَس بيُسر وسهولة، وفاحت رائحة بَخُور قوية. فاجأتني الرائحة، وضعتُ السراج على منضدة خشب كبيرة في جوار الباب، وتناولتُ شمعة أشعلتُ بها ثلاثة أسرجة أضاءت المكان. مكتبة سُر مَن قرأ

ما هذا كلّه؟ ستائر حريرية مرقومة برسوم غريبة وجميلة تغطّي النوافذ وتمنع الضوء من النفاذ إلى الخارج. رفوف من خشب الساج، تصطفّ فوق بعضها البعض، في مختلف جنبات القاعة، تتكدّس عليها **مخطوطات** ذات أغلفة من الجِلْد السميك.

في الجانب الأيمن المشرف على **خليج القرن الذهبي**؛ وفي أقصى استدارة القاعة خلف الباب؛ هنالك حمّام صغير وجرّة ماء كبيرة، وبالقرب منه سرير وثير بأغطيته ومخدّاته، تنسدل عليه من الأعلى كِلَّة بيضاء شفيفة تمنع الهوامّ عن النائم، وإلى يساره موقد يمتلئ حطباً، مهيَّأ للإشعال، وإلى جانبه إبريق زيت. وليس بعيداً عنه منضدة كبيرة من خشب الأرز، عليها أوراق، ورقوق، ولفائف، وعُدَّة أدوية للحبر الأسود والأحمر، والأزرق، وريش نعام، وقصب للكتابة بأحجام مختلفة.

في عمق المِحْبَس، مقابل الباب تماماً، مِبْخَرَة كبيرة من النحاس

الأصفر، مزخرفة بشكل عجيب، عليها كتابات عربية بالخطّ الديواني، لم أتبيّن كلماتها جيّداً. وإلى جانبها صندوق مفتوح خشبه من السنديان، يمتلئ بَخُوراً عربياً من مختلف الألوان، تشبه زخارفه تلك الموجودة في قصر الحمراء.

بين النوافذ عُلِّقت أُطُر مزخرفة، فيها رسومات وتخطيطات غريبة، تشبه أيقونات المسيح والعذراء، ولكنها منقوشة بطريقة المُنَمْنَمَات التركية، أكبرها إطار بطول قامة إنسان مرقوم على حريره صورة **برج گَلَطَه** بتفاصيله الدقيقة، يستقبل **المسيح** الهابط إليه من السماء!

في منتصف السقف يتدلّى قنديل كبير بثلاث طبقات من الشمع العريض، يمكنه أن يحيل ليل المِحْبَس إلى نهار، إن أُشعلت شمعاته كلّها.

رحتُ أطوف على المخطوطات مستطلِعاً ومقلِّباً صفحاتها .. الكثير منها رسائل لـ **الشيخ الأكبر ابن عربي**، إحداها موجّهة لـ **أبي بكر الرازي**. وثمّة نسخة من **كتاب فُصُوص الحِكَم** بخطٍّ مشرقيٍّ، وأجزاء من **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار** لـ **ابن فضل الله العمري**. وهناك نسخ من مخطوطات مسيحية عربية، إحداها **رسالة في الثالوث المقدَّس** لـ **أبي رائطة التكريتي اليعقوبي**. ومخطوطات أخرى من دون صفحة العنوان، بعضها مكتوب بحروف غريبة تشبه العربية القديمة، لعلّها سريانية، فيها رسومات أيقونات ملوّنة جميلة للسيّد المسيح ووالدته.

أخذني جمال الرسومات، كانت تروي قصّة العذراء وابنها، من لحظة البشارة وحتّى القيامة. ولوهلة عادت لي ذكرى قديمة كنتُ موقناً فيها بأن العذراء هي أمّي، والطفل الذي في حَجْرها هو أنا. وهنا بدأت تتناهى إلى سمعي **تراتيل أجواق كنسية** ردّتني إلى طفولتي في **طُلَيْطِلَة**، حين كنّا

نسهر ليلة عيد الميلاد في ساحة الكاتدرائية؛ طائفين بالشموع، منشدين لفرح العذراء بولادة المسيح ملكنا المخلِّص.

ما هذا الحنين المفاجئ لتلك الأيّام؟! كيف لمَنْ هو مثلي أن يشعر بالحنين إلى صوت التراتيل، وصور الأيقونات، ومواكب الشموع، وقد رأيتُ ما رأيتُ من محاكمة لأمّي، وقبو التعذيب الذي انتزع روحها من جسدها انتزاعاً؟ ما الذي تغيّر فيَّ، يا ربّي؟!

لفتني مخطوط سميك الصفحات، مجلّد بجِلْد حديث الصنعة، من ذاك الذي تشتهر به محترفات أزقّة **حيّ بيازيد**، قرب **آيه صوفيا**، مكتوب على جِلْده الأوّل بخطٍّ مذهَّب بالإيطالية: **فنجيل دي برنابا**. تصفّحتُهُ سريعاً، يبدو أن ناسخة بذل عناية في تنسيق حروفه، وتقسيم آياته بطريقة تشبه آيات القرآن الكريم.

تناولتُ المخطوط وجلستُ أقلّب صفحاته. كنتُ أعرف اللسان الإيطالياني كونه يشبه لسان اللاطين شبهاً كبيراً. أوّل شيء لفتني أن صفحاته تزيد على خمسمائة صفحة، مؤطّرة بأُطُر حمراء مزوّقة، تشبه تلك الأُطُر التي يرسمها ناسخو القرآن الكريم. ثمّة أكثر من أربعين صفحة في البداية فارغة، لا أعرف ما الغاية من وراء تركها فارغة؟ ربّما أراد ناسخ هذا المخطوط أن يكتب شيئاً عن هذا الإنجيل، وتبيان أهمِّيَّته، لكن الوقت لم يسعفه!

لفت نظري وجود عناوين مضافة للفصول، وحواشي عديدة مكتوبة بعربية ركيكة مشوبة بكلمات تركية، ولكنْ، مع تقليبي للصفحات تبيّن لي أن العناوين غير مكتملة أيضاً .. ولكنْ، ما هذا؟ أهو اسم **محمّد**؟ نعم، إنه اسم **محمّد**، أيعقل هذا؟ لم نقرأ من قبل أن الإنجيل ذكر بالاسم سيِّدنا

محمّد صلوات الله وسلامه عليه، كانت هنالك إشارات يمكن تأويلها بأنها ترمز إليه، وأعني هنا لقب **البارقليط**. ولكنْ، كما أرى ثمّة في هذا المخطوط آية عجيبة تقول ترجمتها إلى العربية: {**قالَ الكاهنُ عندئذٍ: ماذا يُسمَّى المسيحُ؟ وما هي علامةُ مجيئِهِ؟ أجابَ عيسى: إنَّ محمَّداً هو اسمُهُ المُباركُ .. والحقُّ أنّي لستُ أنا المسيح**}.

أعدتُ المخطوط إلى مكانه مستعيداً كلمات **الشيخ الأشقر**، حين قال لي عن جماعة **الشيخ الأُكَيْحِل**: **إنهم يقولون إن المسيح الحقّ هو سيّدنا محمّد، وليس عيسى بن مريم**.. يحتاج هذا المخطوط منّي إلى وقت أطول، ومن المحتّم أن أعود إليه في القريب العاجل.

انتبهتُ لقُصَاصَة ورق مَطوِيّة في مكان الإنجيل، لم أنتبه لها حين أخذتُهُ. فتحتُها وقرأتُ:

إلى عيسى بن محمّد

سيصل في وقت قريب، إن شاء الله، إلى إِسْطَنْبُل أخ لنا يُدعى مصطفى دي أراندا، سلِّمْهُ مفتاح بيتي، لأنه سيسكن فيه ريثما أعود، وأرجو أن تعطيه هذا الإنجيل للضرورة، ولكنْ، إيّاكَ ثمّ إيّاكَ أن تخبره بأيّ شيء عن المِحْبَس الخامس، فهذا شأن يخصّنا أنا وأنتَ وحدنا.

محمّد بن أحمد

مصطفى دي أراندا؟! بدا لي من اسمه بأنه من مملكة أراغون .. قلتُ لنفسي سأنتظر حتّى يأتي، وأرى ماذا سأفعل.

استرقتُ نظرة من إحدى النوافذ الشرقية المُطلّة على محالّ الفرنجة

وأحيائهم. كان المحتفلون يملؤون ساحة **كنيسة القِدِّيس بنديكتو**، مردّدين مع الجوق تراتيل العيد. وليس بعيداً؛ احتفال أكثر هدوءاً في **كنيسة القِدِّيس فرنسيسكو** الشامخة بمنارتها المربَّعة وجَرَسها الضخم. وفي الأزقّة تُسمع أصوات سكارى يحتفلون على طريقتهم، متحلّقين حول نيران أوقدوها بكسر الحطب، يَعُبُّونَ النبيذ من جِرَار فخّارية صغيرة، ويردّدون أغاني غير مفهومة المعاني.

حلقات المحتفلين حول النار نبّهتْني إلى شدّة البرد التي كانت تقرص رؤوس أصابعي وأرنبة أنفي. أشعلتُ الموقد وأخذتُ بعض الجمرات وألقيتُها في المِبْخَرَة. لم يطل الوقت حتّى عبق المكان بالبَخُور العربي الذي حلّق بي إلى الخدور العليا، محمولاً على أجنحة ملائكة ترفرف على الوقع المتصاعد لتراتيل الكنيسة وهي تمجّد **ميلاد المسيح**.

في تلك اللحظات؛ كان كلّ ما في المكان يُشعرني بالكمال .. لقد غدت نفسي هيولى لصور المعتقدات كلّها، كما قال شيخي الأكبر ابن عربي، وبتّ أدرك كلّ حرف من قوله: **إن الله، تبارك وتعالى، أوسع وأعظم من أن تحصره عقيدة دون غيرها، فهو يقول:** {**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**}. وهنا فاضت دموعي، ولم أعد أستطيع حبسها.

مع انقطاع التراتيل هدأ روعي؛ بتّ أقرب إلى اليقين الذي قرأتُ عنه في مخطوطات **الشيخ الأكبر** ورسائله. بدا لي اليقين نقيضاً لفكرة الطريق القويم، لفكرة الفرقة الناجية، لفكرة أهل الحقّ وأهل الباطل، لفكرة أهل الجنّة وأهل النار. **اليقين** سرٌّ تُدركه القلوب لا العقول .. **اليقين** هو أن يصبح قلبكَ **قابلاً كلّ صورة** كما يقول شيخي الأكبر .. **أن يكون مرعىً لغزلانٍ، ودَير لرهبانٍ، وبيتٌ لأوثانٍ، وكعبة طائفٍ، وألواح توراةٍ، ومصحف قرآنٍ!**

قلّبتُ الأوراق والرقاع المنبثة أمامي. لفتت نظري ورقة من الكَاغِد الرفيع، تعلو كومة الأوراق، مكتوبة بخطٍّ أندلسي جميل وحبر أحمر أيضاً. حملتُها ورحتُ أقرأ:

مكتبة
t.me/soramnqraa

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى عيسى بن محمّد

كونكَ تقرأ الكتاب الآن فهذا يعني أنكَ نجحتَ في الدخول إلى المِحْبَس الخامس، وهذا فأل حسن. كنتُ أنتظر عودتكَ على أحرّ من الجمر، لكي أخبركَ بكلّ شيء. ولكن أمراً جللاً اضطرّني لمغادرة إِسْطَنْبُل على وجه السرعة، والتوجّه إلى غَرْنَاطَة، من دون أن أُعلِم أحداً بهذا الأمر، وخصوصاً الشريف الأندلسي.

أعلم أنكَ تتساءل الآن كيف وصلتُ إلى صندوقكَ؟ وما قصّة المفتاح الواحد لبيتَيْنا؟ والجواب أنني، حين كنتُ أنتظر عودتكَ أو أيّ خبر يخصّكَ، بعد ضياع أثركَ في بَرِيْش، صرتُ أراقب بيتكَ وساكنيه من الأندلسيِّين الذين كان الشريف الأندلسي يُنزِلهم فيه، ريثما يتدبّر لهم بيتاً من البيوت المهجورة. وذات مرّة سكن بيتكَ غَرْنَاطِيٌّ كنتُ أعرف والده، وحين غادر إلى بيت جديد، ترك المفتاح عندي لأسلّمه للشيخ، ووجدتُها فرصة ملائمة، لكي أهتمّ ببيتكَ ما دمتَ أنتَ غائباً عنه، ولذلك قمتُ بعمل نسخة من المفتاح لي، وسلّمتُ النسخة الأصلية للشيخ الشريف الأندلسي.

وكنتُ بين الحين والآخر أنظّف بيتكَ وأتفقّده، خصوصاً حين علمتُ من الشيخ أنهم عثروا عليكَ في بَرِيْش وأنكَ عائد إلى إِسْطَنْبُل. وفي أثناء انتظار عودتكَ أتاني خبر وفاة والدي، وكان لزاماً عليّ أن أسافر بالسرعة الممكنة، لأسباب ستعرفها، وخطر لي أن أترك لكَ

مفاتيح البرج في مكان آمن، ولم يكن هناك أكثر أماناً من المكان الذي أخفيتَ فيه ذلك المفتاح، عثرتُ، بعد بحث، على مكان الحفرة في الحجرة السفلى، لا يحتاج الأمر إلى ذكاء، فمكان الحَفْر ظاهر للعِيَان. والبقية صرتَ تعرفها، قُصَاصَتي في الصندوق سترشدكَ إلى المفاتيح، لسبيلكَ إلى البرج. وحين عزمتُ على السفر خطر لي أن أبدّل قفل بيتي بقفل جديد مماثل لقفل بيتكَ، ليصلح مفتاحكَ لفتحه، وهو ما كان. وها أنتَ عثرتَ على القُصَاصَة، وحللتَ الأُحجيَّة . لم يكن عندي شكّ في نباهتكَ.

أمّا الكُتُب التي تراها الآن تحت هذا الكتاب، ففيها كلّ شيء يهمّكَ .. هي كُتُب كتبتُها بالقَشْتَالِيَّة أوّلاً، ثمّ نقلتُها إلى أعجميّتنا الخيميادو، لدواعي الحيطة والحذر، لكي أرسلها إلى والدي في غَرْنَاطَة.

ستجد هذه الكُتُب المطوّلة، مرتّبة من الأقدم في الأعلى إلى الأحدث في الأسفل. وسترى أن فيها حذفاً وشطباً يشيان بأنها مُسوّدات لكُتُب مرسَلة إلى الأندلس. وهذا صحيح، ولكنها عموماً مطابقة للكُتُب المرسَلة.

كنتُ أودّ أن أخبركَ بنفسي أشياء كثيرة، ولكنْ، لا وقت عندي لتحبير المزيد، فهذا يكفي راهناً، ريثما نلتقي في وقت عسى أن يكون قريباً.

محمّد بن أحمد

بذلتُ جهداً كبيراً في ترتيب الأوراق وجمعها إلى بعضها؛ حتّى حصلتُ على أربع كُتُب طويلة، وخامس غير مكتمِل. وظهر لي أن ابن أبي العاص كان حريصاً أشدّ الحرص على تجميع الكثير من الأحداث والأخبار لإرسالها إلى والده في غَرْنَاطَة مرّة كلّ عام.

أمضيتُ ليلة الميلاد كلّها، حتّى مطلع الفجر، قارئاً لهذه الكُتُب

العجيبة .. رجعتُ إلى بعضها مرّة واثنتَيْن وثلاثاً، وكانت لديّ شكوك في مقاصدها وإلماحاتها، وظننتُ لبعض الوقت أنني أقرأ أشياء غير مكتوبة فيها، تُصوِّرها لي أوهامي، لانطباقها على تفاصيل لا تعني أحداً سواي. انتابتْني شكوك بسلامة عقلي، وصارت نفسي تحدّثني: **لربّما كان في البَخُور الذي أحرقتُهُ شيء من الحشيش المخدّر!**

الكتاب الأوّل

بسم الله الرحمن الرحيم

إسْطَنْبُل 3 ماي 1610 مسيحية

سيّدي الوالد الشيخ أحمد الحبيس - ميغيل دي لونا حفظه الله

أكتب لكَ أوّل كُتُبي من إسْطَنْبُل التي وصلتُها قبل عَشَرَة شهور، قادماً من رومة بعد أن تكلّلت مهمّتي بالنجاح. وقبل أن أخبركَ بما جرى من أحداث خلال هذه المدّة، أريد أن أزفّ إليكَ خبراً سعيداً وهو عثوري على ابني خيسوس في إسْطَنْبُل. ويبدو أنني التقيتُهُ أوّلاً في البُنْدُقِيَّة عند دُون بيدرو دي غرانادا، وسألني عَرَضاً عن دُون خيرونيمو راميريز، ولم أنتبه له جيّداً، فقد كنتُ شديد الحذر من دُون بيدرو، فهو، كما تعلم، من أشدّ أعداء جماعتنا المختارة نكالاً. أضيف إلى ذلك أنني كنتُ منشغلاً بتأمين سفينة تقلّني إلى إسْطَنْبُل. ولذلك لم أعره أيّ اهتمام، واكتفيتُ بإخباره أن دُون خيرونيمو توجّه إلى إسْطَنْبُل منذ مدّة. وهو خبر عرفتُهُ من أحد الشمامسة في الفاتيكان.

لكن؛ حين رأيتُهُ في إسْطَنْبُل عن كثب، وذكّرني بنفسه، شعرتُ للوهلة الأولى وكأنني أعرفه، وكنتُ أودّ أن أسترسل في الحديث معه لولا موعدي المضروب مع شيخ الإسلام، والذي لا يحتمل التأجيل.

في ظهيرة اليوم ذاته، رأيتُهُ من نافذة بيتي يدخل الزقاق الذي

أسكن فيه، ويفتح باب بيت قريب من بيتي. ويا لها من مصادفة سعيدة! قلتُ لنفسي إن هذا الجوار سيمكّنني من كسب ثقته. ولكن المصادفة الأسعد والأغرب التي وقعت في الليلة ذاتها؛ أنني بينما كنتُ، على عادتي، في قاعة البرج ليلاً أصنّف المخطوطات التي جمعتُها، وأترجم بعض صفحاتها. شعرتُ بوجود أحدهم يتلصّص عليّ. تظاهرتُ بأنني لم أشعر به، وتركتُهُ حتّى يطمئنّ، ثمّ تسلّلتُ إليه في الأعلى حيث كان ينام، وإذ به خيسوس، الذي لم أكن قد تحقّقتُ من شخصيّته، فتركتُهُ لأرى إلى أين يريد أن يصل.

في صبيحة اليوم التالي؛ هبطتُ درج البرج وأنا أشعر بأنه كان يتبعني، متوهّماً أنني لا أنتبه لوجوده، فأقفلتُ البَوَّابة كالعادة. وحين عدتُ إلى بيتي؛ جلستُ قرب النافذة أترقّب عودته وأنا أتلهّى بمنظر المطر الغزير. بعد أكثر من ساعة؛ ظهر منحدراً باتّجاه زقاق البيت، ولفت نظري أنه كان يبحث عن شيء في جدار منزلي، وفجأة سحب مفتاحاً كان يعضّ عليه جِرْذ ضخم، ويبدو أن الجِرْذ خمش قدمه من حيث لا يدري. فخفتُ عليه من الطاعون الذي كان يتبدّى في الأناضول، ولذلك أصرّيتُ عليه أن يصعد، لكي أُعالجه في بيتي بالكَيِّ.

جلستُ أتأمّله ريثما تتجمَّر حديدة الكَيِّ، كنتُ في غاية الدهشة من الشبه الكبير بيننا، كأنني كنتُ أحدّث نفسي حين كنتُ بمثل عمره، الملامح ذاتها، والعيون، والأنف، والنظرات، واللفتات، ربّما أخذ من أمّه مشيتها وشكل يدَيْها المكتنزتَيْن .. لقد حُسم الأمر عندي حين علمتُ أن اسمه عيسى، خيسوس غونثالث، وهو اسمه الذي عرفناه به بعد أن أخذ كُنية زوج خالته.

وددتُ لو أنني أنهض لأُقبّله، وأضمّه إلى صدري، ولكنني تريّثتُ،

فهو كما بدا لي يظنّني دُون خيرونيمو. تخيَّل، يا أبي، كان يحسبني خيرنيمو راميريز! لا أعرف ما الذي دعاه إلى ذلك الاعتقاد الغريب، ولم أسع إلى نفي الأمر طمعاً بمعرفة ماذا كان يريد من صديقنا القديم.

وما حسم تردّدي في تقديم نفسي بصفتي والده؛ خشيتي من أن يخبر الشريف الأندلسي بشخصيّتي الحقيقية، فكما تعرف، فإن جماعة الشريف الأندلسي والشيخ الأشقر لا يتوانون عن اقتراف أيّ شيء يمكن أن يؤذيَنا.

مع مغادرته اعتراني ندم كبير أنني لم أفاتحه بالأمر، ولكن الحذر عاد ليقوِّم عقلي، لأن الحذر وحده ما يُبقينا أحياء في هذا الزمن العصيب الذي اتّفق فيه الأعداء علينا.

لا أعرف لماذا تركتُ باب بيتي موارباً حين توجّهتُ إلى قاعة البرج، ربّما رغبت نفسي بأن يدخل إلى البيت في غيابي وسوف أعثر عليه متلبساً، وحتماً سيخبرني بكلّ شيء، وعندها أُصارحه من جهتي بحقيقة كوني والده، بعد أن أشرح له حراجة موقفي أمام الشريف الأندلسي.

ولكن؛ يا للأسف، فجأة اختفى ولم أعد أراه. انتظرتُ يوماً ويومَيْن قبل أن أسأل الشريف الأندلسي عنه، فأخبرني بأنه أرسله في مهمّة إلى البُنْدُقِيَّة وأنه لن يتأخّر في الرجوع. شعرتُ بالأسى لحاله، ها هو الشريف الأندلسي يرسله في مهمّات يقطع لأجلها البِحَار، ويقامر بحياته، من أجل ماذا؟ حتماً من أجل إجلاء أبناء أمّتنا عن ديارهم وزيادة المآسي.

حين عاد بعد أقلّ من شهرَيْن رأيتُهُ في ديوان شيخ الإسلام، ولم يكن الوقت مناسباً لأن أتكلّم معه بأيّ شيء، ولذلك قرّرتُ أن أنتظر أيّاماً قليلة ريثما أعدّ للأمر جيّداً، ولكنْ، للأسف الشديد لم أعد أراه

من جديد، فقد عاد الشيخ ليرسله في مهمّة، لا أعرف ما هي، وكم ستستغرق من وقت.

أخشى ما أخشاه، يا أبي، أن نفقد أخباره كما حصل في السابق، بعد أن عُرض المختار الغسّاني على ديوان الإيمان. تذكر كم شعرنا يومها بالأسى، ليس على المختار فحسب، بل بسبب فقداننا التواصل مع خيسوس، وعودته إلى الجماعة الضالّة جماعة الشيخ الأشقر التي اتّفقت مصالحها مع مصالح الملك فيليب بن فيليب وزبانيته بإخراج أبناء أمّتنا من أرضهم.

أنا الآن أعيش على جمر الانتظار، وأتمنّى أن لا تطول غيبته، وفي حمأة هذا الانتظار، ألهّي نفسي بمتابعة كتابة رسالة في تحقيق الوباء.

والآن سأُخبركَ بما جرى لي في رومة .. غادرتُ طولون منتحِلاً اسم الأخ مارينو كما أمرتَني، و توجّهتُ إلى رومة لقراءة كُتُب الرصاص الجديدة التي عثر عليها الكنَّازة النصارى في وادي خندق الجنّة. أخبروني أن شخصاً يُدعى البادري خوسيه النقي من رهبنة الجِزْوِيْت في طُلَيْطِلَة سبقني إلى قراءتها، وشكّك بها، وأخبرهم أنها مزوّرة، وأتى بعده دُون خيرونيمو راميريز، ولم أعرف بتاتاً رأيه في الأمر. وحتّى حين سألتُ عنه أخبروني، بعد أخذ وردٍّ كثيرَيْن، بأنه غادر إلى إِسْطَنْبُل في مهمّة كنسية، وربّما لن يعود في فترة قريبة.

لا أخفيكَ، يا أبي، بأنني وجدتُها فرصة أن يتاح لي أمر الدخول إلى مكتبات باباوات الفاتيكان، ولذلك حرصتُ بقدر ما أستطيع على التلكُّؤ في مهمّتي واختلاق الأعذار كي أبقى أطول مدّة ممكنة في هذه المكتبة.

هناك أمر آخر أريد أن أحدّثكَ به، يا أبي، وهو عثوري على كتاب للبابا غريغوري الثاني يذكر فيه أنه سيساعد الملك الغسّاني

المنذر بن الحارث على الخلاص من محنته. أثارت الرسالة حَيْرتي وفضولي، وبدأتُ أبحث عن ذلك الملك الغسّاني إلى أن عثرتُ على مخطوط لاطيني بخطٍّ راهب ماروني، تلميذ في مدرسة الموارنة في رومة، هو، في حقيقة الأمر، ملخّص لحياة الملك المنذر بن الحارث الغسّاني ترجمه بتصرّف، عن مصنف تاريخ كنسي للمطران السرياني اليعقوبي يوحنّا الآسيوي.

يذكر الراهب الماروني أن المنذر الغسّاني وقع في مكيدة من مكائد قائد رومي يُدعى موريقي، نجح في إقناع القيصر طيباريوس بخيانة مزعومة للمنذر، فكلّف أحد رجاله ويُدعى مجنا الذي دبّر المكيدة وقبض على المنذر في حصن حوارين من نواحي الشام، واقتاده إلى القسطنطينية، فبقي مدّة من الزمن في السجن الملكي، ثمّ نُفي بعد ذلك إلى حصن بُني خصّيصاً له في جزيرة صِقِلِّيَة، والسبب أن المنذر كان موحّداً من جماعة يعقوب البرادعي.

أثار هذا الخبر اهتمامي، فعزمتُ على السفر إلى جزيرة صِقِلِّيَة، ونجحتُ في إقناع البابا بأن جبل أبلطان المذكور في الأسفار الرصاصية والرَّقّ اللاتيني، هو، في حقيقة الأمر، جبل إتنا في صِقِلِّيَة، لسببَيْن وجيهَيْن، الأوّل أن كلمة أبلطان، لا يمكن تفسيرها سوى بمعنى عربي، وهو جبل أطان، جبل أصبحت أبل، واتنا أصبحت أطان، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الرسول يعقوب كلّف مرافقه العربي ابن الرضي، بالتبشير في صِقِلِّيَة، ولذلك أطلق عليه اسم سيسيليو أي الصِّقِلِّيّ، ومن أجل هذا سوف أبحث في المكان الذي كان يبشّر فيه، وحتماً سأجد هناك كُتُب القِدِّيْس سيسيليوس التي ستُجلي حقيقة هذا الأمر.

سافرتُ بدعم من البابا إلى صِقِلِّيَة، وسرعان ما عثرتُ على الحصن

الذي كان المنذر أسيراً فيه، ويُدعى حصن العاصي، أو أتشي كاستيلو كما يلفظها الإيطاليانيون. والعاصي المقصود هو الملك المنذر. كان الحصن خاوياً مهدّماً، كدراً، كئيباً بحجارته النارية السوداء، بُني على صخرة صلدة ترتفع عن ماء البحر أكثر من خمسين ذراعاً. ولا يمكن الوصول إليه إلّا عبر ممرٍّ ضيّق لا يتّسع لرجلَيْن اثنَيْن معاً.

صعدتُ إلى الحصن بمشقّة بالغة، وكدتُ أن أسقط غير مرّة، ولكن الله سلّم. وبعد بحث وتقصٍّ عثرتُ على بيت شِعْر بالعربية غير المنقّطة، ربّما خطّه المنذر أو أحد أتباعه على أحد الجدران، فهمتُ منه بعض الكلمات منها مجنا، ودفعنا، ورغم أنوفنا، وإلى قَطَلُونِيَة!

عدتُ إلى رومة بعد أن يئستُ من العثور على شيء ذي بال، وأخبرتُ البابا بأن البحث عن آثار القِدِّيْس سيسيليو يلزمه جماعة من الناس وليس رجلاً بمفرده، وزوّدتُهُ بالمكان الذي توقّعتُهُ على جبل إتنا، ووعد بأنه سينخل الجبل بكامله بحثاً عن آثار وذخائر القِدِّيْس سيسيليو.

بقي عليّ أن أعثر على علاقة قَطَلُونِيَة بالمنذر. ومن حسن الاتّفاقات أنني قرأتُ خبراً يشير إلى أن البابا غريغوري الثاني نجح في إقناع قيصر القسطنطينية في الإفراج عن الملك المنذر، شريطة أن لا يعود إلى بلاد العرب. واختار البابا له قَطَلُونِيَة، ومن يومها بدأ الغساسنة بالقدوم إلى ملكهم حتّى عمّروا البلاد. وحين أتى الفاتحون المسلمون إلى قَطَلُونِيَة وجدوا فيها الغساسنة مستوطنين منذ عقود. وقد نسيتُ أن أخبركَ بأنني وفي أثناء سكني في بلاد بَرْبَنصَة على ساحل بحر الروم، وجدتُ هناك حصناً يسمّونه حصن السراسنة، وهي التسمية التي كان يطلقها الروم على العرب.. لقد كان الحصن نصرانياً ولا علاقة للمسلمين به. وهذا في ظنّي يدعم قصّة إرسال الغساسنة إلى هذه النواحي.

إن مثل هذا الخبر إن استطعنا إثباته بشكل قاطع سوف يقطع الطريق على طردنا خارج بلدنا، وسوف يُثبت لهؤلاء الذي أطلقوا علينا اسماً ليس هو اسمنا، وأعني بذلك اسم المورو، أن أجدادنا من العرب النصارى من أهل البلاد، ووجودنا قديم قِدَم النصرانية، ومُثبّت بعهود باباوات الكنيسة، ولسنا غزاة من المور كما يزعمون.

طالعتُ قبل مدّة ملخّصاً يذكر أن أحد أمراء جِنْوَة يُدعى دومانوكينو دوريا وقع أسيراً بيد المصريّين أيام السلطان الناصر ابن قلاوون، واتّخذ اسم بلبان الجِنْوِيّ بعد اعتناقه الإسلام. هذا النبيل الجِنْوِيُّ كان يحتفظ بمخطوط عن تاريخ قَطَلُونِيَة يقول فيه إن غالبية أهلها من نصارى العرب الغساسنة. وأن هذا السِّفر نقله الكاتب ابن فضل الله العمري في أحد أجزاء موسوعته «مسالك الأبصار»، ومن حسن حظّنا أن النسخة الوحيدة المتبقّية من هذا المخطوط موجودة الآن في حوزة السلطان أحمد حفظه الله.

سأسعى بكلّ ما أستطيع من حيلة للوصول إلى هذا المخطوط ونسخ سِفر دومانوكينو درويا، وسأخبركَ بأيّ جديد أصل إليه على هذه الطريق الطويلة، فكما علّمتَنا، يا أبي: خير لنا أن نبقى في أرضنا عرباً نصارى، من أن نتحوّل إلى لاجئين مسلمين في بلدان لم تشفع لنا، ولم تراعِ عهود الأخوة. وقد صدقتَ في قولكَ هذا، إذ علمتُ أخيراً بأن بعض المسلمين ذَبَحُوا أبناء أمّتنا في الوداية بِسَلَا وغيرها بدعاوى الضلال والكفر والتجسّس لصالح القَشْتَالِيِّين .. أيّ مصيبة أعظم من هذه المصيبة؟!

في أثناء مكوثي في رومة رأيتُ رؤيا صادقة أرويها لكَ: رأيتُ الملائكة تنقلني إلى السماء السابعة، وهناك طالعني وجه الله عزّ وجلّ، وسمعتُ صوته يدعوني إلى الجهر بالدعوة إلى الإيمان الصحيح،

وأن يوم الدينونة قريب، وأن للعربية مكانة هي الأسمى في الآخرة، أَليست لغة أهل الجنّة، كما تقول كُتُبنا؟ أَوليست هي اللغة التي بها تُسبّح الملائكة لله عزّ وجلّ؟

استيقظتُ بعد هذه الرؤيا مطمئنّ القلب، عازماً على الامتثال لأمر الله، فدبَّجتُ كتابَيْن محكمَيْن، واحداً للبابا، والثاني للملك، وقد شرحتُ فيهما أهمِّيَّة الرَّقِّ المكتشَف في منارة جامع غَرْنَاطَة وكُتُب الرصاص التي تشرح حقيقة الإنجيل كاملة، فهذه الأسفار أملاها رئيس الملائكة جبريل عليه السلام على السيّدة مريم البتول. وهي بمثابة إنجيل للسيّدة. وقد أخبرتُ البابا والملك أن الأسفار الرصاصية تنطوي على نبوءة حقّة حول اقتراب الساعة. ودعوتهما إلى الإيمان بحقيقة الانجيل قبل فوات الأوان، لأن حقيقة الإنجيل كما ثبت لنا من هذه الكتب الرصاصية هي نفسها حقيقة القرآن الكريم، حقيقة رسالة الإسلام، لأن القرآن الكريم هو وحي من الله تعالى.

أودعتُ الكتابَيْن على منضدة الشمّاس المختصّ بالداخلين إلى ديوان البابا من دون أن يعرف أنني أنا مَنْ أودعتُهما، فقد مهرتُهما باسمي الحقيقي، ألونسو دي لونا .. ولا أعرف إن سألوكَ عن الأمر، يا أبي، ولكنني لا أشكّ بفطنتكَ، فأنتَ قادر على التملّص من مثل هذا الموقف الذي أُرغمتُ عليه بقوّة الرؤيا الحقّة التي حدّثْتُكَ عنها.

لا أُنكر أن الشريف الأندلسي كان نبيلاً وشهماً معي، فقد سهَّل حصولي على بيت من بيوت النصارى الجِنْوِيِّين الخالية في گَلَطَه، وربّما لو علم بحقيقتي لكان له تصرّف آخر، والله أعلم. قدّمتُ له نفسي باسم محمّد بن أبي العاص، لأنه لو علم أنني ابن الشيخ الحبيس - ميغيل دي لونا، وحفيد الأُكَيْحِل الأندلسي - ألونسو

دي كاستيللو لكان طردني لا شكّ. ولذلك كنتُ أتحاشاه، وأتجنّب الحديث معه، وإذا تحدّثنا، فذلك الحديث بالعموميات.

قدّمني الشريف الأندلسي حين علم بأنني طبيب إلى شيخ الإسلام خوجة سعد الدِّيْن محمّد جلبي أفندي، وكانت ابنته مريضة؛ شفاها الله على يدي، وأراد مكافأتي مكافأة مجزية، ووجدتُها فرصة لكي أطلب منه أن يمنحَني حقّ الانتفاع بالمِحْبَس المهجور من برج گَلَطَه، وهو، كما تعلم يا سيّدي الوالد - البرج الذي سينزل عليه المسيح في نهاية الملحمة الكبرى. لم أخبره بذلك، بل قلت له إنني أحتاجه لكي أجمع فيه مخطوطات عربية سوف تصلني من أصقاع شتّى. ولم يخيّبني، فقد طلب من قاضي گَلَطَه أن يمنحني القاعة، وأن لا يعترضني بأيّ اعتراض. وهذا ما كان. إذ بدأتُ أجمع فيها كلّ ما يصل إلى يدَيّ من مخطوطات.

هذا ما جرى لي خلال العام الماضي، ولن أتأخّر في الكتابة لكَ حال سنحت لي الفرصة. أنتظر منكَ كتاباً يؤكّد وصول كتابي هذا ورأيكَ فيما كتبتُ لكَ، وبماذا تنصحني لأيّامي القادمة.

ابنكَ ومريدكَ المخلص

ألونسو دي لونا - أبو عيسى محمّد بن أحمد الحبيس البَيَاسِيّ

الكتاب الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

إِسْطَنْبُل 8 نونبر 1612 مسيحية

سيّدي الوالد حفظه الله

جاءتني كُتُبكَ وأنا في حالة يُرثى لها، فمنذ أن علمتُ بضياع أثر ابني خيسوس، بعد خروجه من بَرِيْش، وأنا أشبه برجل يسير في نومه. الأخبار القادمة من هناك تقول إن فارسَيْن مجهولَيْن أوقفا القافلة التي كان يرافقها واقتاداه إلى مكان مجهول. ومن يومها لا خبر منه ولا أحد يعلم عنه شيئاً.

أسأل عنه بين الفينة والأخرى الشريف الأندلسي، وهو أيضاً قلق عليه ويحاول تتبّع أخباره بشكل حثيث، ويشعر بتبكيت ضمير كونه هو الذي أرسله في السفارة إلى ملك فَرَانْصَة. وقد بدأ في الآونة الأخيرة يستغرب كثرة أسئلتي، فهو يجهل أن خيسوس هو ابني.

أُعزّيكَ في جَدِّي الشيخ الأُكَيْحِل، ألونسو دي كاستيللو، ولو أنها تعزية متأخّرة! ويؤسفني أنه فارق الحياة وأنتما على خلاف. وحقّاً لم أستطع أن أجد مبرّراً لما قاله عنكَ لأسقف غَرْنَاطَة. شيء غريب يدعو للعجب، إلّا إذا كان يسعى من وراء ذلك إلى تضليلهم والإيحاء لهم أنكما لستُما على وفاق. وهذا ما أتمنّاه من أعماق قلبي.

تبدّى الطاعون في هذه البلاد بدءاً من صيف العام قبل الماضي،

ولم نبرأ منه إلّا في نهاية العام الماضي، وقد مات بسببه الألوف في إِسْطَنْبُل وگَلَطَه، والله سلّم. وقد حمدتُ الله أن خيسوس ليس في المدينة، فلربّما كان سفره من ترتيب الله القدير.

كنتُ قد توقّفتُ بعد غياب خيسوس عن كتابة رسالة في تحقيق الوباء التي طلبها منّي القاضي إسعاد أفندي، وبعد أن سألني عنها أكثر من مرّة عدتُ لإكمالها، وقد فرغتُ من تأليفها، ولله الحمد، وسلّمتُها له، وساعدتُ أناساً كثيرين على اتّقاء هذا الوباء اللعين. وقد كافأني القاضي المذكور على ذلك بجَعَالَة كبيرة، من شأنها أن تساعدني على تيسير أحوالي في تسيير أيّامي هنا، ولا أخفيكَ أن معظم النقود التي كانت في حوزتي ذهبت ثمناً للمخطوطات، ومع ذلك؛ آمل أن ترسل لي مزيداً من المال مع التاجر الغَرْنَاطِيّ رامون كارلوس، لأن مخطوطات كثيرة لم أصدِّق أنني سأعثر عليها، وخصوصاً الفُتُوحات المَكِّيَّة كاملة، وكتاب فُصُوص الحِكَم، وكِتاب اليَقِين، ومَجمُوع الرَّسائِل، وكلّها لشيخنا محيي الدِّيْن بن عربي قدّس الله سرّه. لقد ساومتُ عليها كثيراً، وأصحابها ينتظرون النقود. لا تزال هذه المخطوطات حسرة في قلبي منذ أن استولى الرهبان الجِزْوِيْت على خزانتي في طُلَيْطِلَة، يوم ساقوا زوجتي الطاهرة الشهيدة مريانا إلى ديوان الإيمان. نطلب لها من الله واسع رحمته.

وأودّ أن أحيطكَ علماً بأنني تمكّنتُ أخيراً من اقتناء نسخة كاملة من مصنف ابن فضل الله العمري مسالك الأبصار، وكان مخيّباً لي، لأن حديث الأمير بلبان الجِنْوِيّ - دومانوكينو دوريا عن قَطَلُونِيَة جاء مختزَلاً ولم يذكر شيئاً عن تاريخ وصول الغساسنة إليها وزمنه، رغم تأكيده أن معظم أهلها من الغساسنة النصارى. وسبب الاختزال هو أن دومانوكينو كان مسجوناً مع العمري في سجن القلعة في مصر،

وهناك أملى عليه ما كان العمري يريده من أخبار عن ممالك الفرنجة، ولم يكن مهتمّاً بأمر الغساسنة ولا بملكهم المنذر.

سأُواصل البحث عن مخطوط تاريخ قَطَلُونِيَة حتّى أعثر عليه، وعندها سوف أرسل لكَ ترجمته، لكي تُوصِلها إلى أُولي الأمر، لعلّهم يَرعَوُون ويعودون عن غَيِّهم، ويكفّون عن اتّهامنا بأننا غزاة من المور.

والآن سأخبركَ بهذا الخبر العجيب الذي سيُدهشكَ. أخيراً؛ بعد أعوام في هذه البلاد التقيتُ بصديقنا القديم دُون خيرونيمو راميريز. رأيتُهُ بمحض المصادفة في مبنى بعثة فَرَانْصَة حين زرتُهُ بصحبة مبعوث بلاد فلانضس كورنيلوس هاجا للمشاركة في حفل تنصيب السفير الفَرَانْصَاوِيّ الجديد دي سانسي.

كنتُ يومها أُترجم للمبعوث بنود اتّفاقية إمارة فلانضس والسلطنة، ودعاني لمرافقته إلى مقرّ البعثة الفَرَانْصَاوِيَّة، فارتديتُ أزياء الفرنجة ورافقتُهُ إلى هناك، وكم كانت المفاجأة كبيرة حين رأيتُ دُون خيرونيمو ضمن المحتفلين.

عرفتُهُ ما إن وقعت عيني عليه، أمّا هو، فبذل جهداً كبيراً في التعرّف بي، نظراً لأن لحيتي غيّرت ملامحي كثيراً. انتهزتُ فرصة انفرادي به، فتقدّمتُ نحوه وحيَّيتُهُ باسمه، اندهش عظيم الاندهاش بداية، ثمّ، حين تحقّق منّي عانقني، وبدأ يسألني عن سبب وجودي هنا، فشرحتُ له بأنني أترجم لمبعوث بلاد فلانضس، وأنني أقيم مؤقّتاً في إِسْطَنْبُل.

أمّا هو، فأخبرني بأنه وقع أسيراً بيد قرصان بوني، وأن مبعوث فَرَانْصَة افتكَّه، وسوف يرحل قريباً إلى بَرِيْش، لأن الملكة تحتاجه إلى جانبها.

لقد تهرّب من الإجابة عن أسئلتي حول وجوده في الفاتيكان، ولم يُفصِح بأيّ شيء عن الأمر، وأنا من جهتي لم أُخبره شيئاً، لا أعرف ماذا أقول لكَ بشأنه، ما زال هذا الرجل غامضاً بالنسبة إليّ، لا أفهمه، ولا أعرف بماذا يفكّر، لكنني لم أرتح له البتّة في هذا اللقاء، بدا لي شخصاً آخر، في نظراته الكثير من الخبث.

أُحيطكَ علماً بأنني حصلتُ أخيراً، وبتزكية من صديقي القاضي إسعاد أفندي، على براءة شرعية بحقّ الانتفاع بالمِحْبَس الخامس من برج گَلَطَه، بعد أن أثّثتُهُ وهيّأتُهُ بكلّ ما يلزم لكي يكون مكان لائقاً بمسيح آخر الزمان .. ولكن الأمر هنا من سيِّئ إلى أسوأ، خصوصاً بعد أن تحوّلت گَلَطَه إلى ساحة قتال مفتوحة بين أبناء أمّتنا الأندلسية، من أتباع الشيخَيْن الأشقر والشريف الأندلسي، وبين اليهود والنصارى الجِنْوِيِّيْن وباقي طوائف الفرنجة. لقد وصل أكثر من خمسة آلاف أندلسي إلى گَلَطَه في الشهور الثلاثة الأخيرة، ولم يعد ثمّة بيوت تستقبلهم، حتّى إن الشريف الأندلسي أسكن أكثر من شخص في بيت خيسوس.

وممّا زاد في الطين بَلَّة، تعيين قاض جديد لگَلَطَه يُدعى ملّا علي الحبشي. كان هذا القاضي صديقاً حميماً للشريف الأندلسي، وقد عملا معاً على إجلاء يهود گَلَطَه إلى حيِّ بَلَاطْيَة بدعاوى شتّى. وهؤلاء اليهود ليسوا من يهودنا، بل هم من القدماء في هذه البلاد من أيّام حكم الجِنْوِيِّيْن.

بعد أن تخلّص ملّا علي والشريف الأندلسي من اليهود، وضعا العين على حيِّ الفرنجة وكنائسهم، وأطلقا الشباب المتحمّس لاستفزازهم، فكانوا يخاطبونهم بالفرنجية، بأنهم سيطردونهم من أرض الإسلام كما طُردوا هم من ديارهم في الأندلس، وأن الدوائر ستدور

عليهم. ولم تتوقّف هذه الاستفزازات عند ذلك، بل وصلت إلى احتجاز الفرنجة في أزقّة الأندلسيّين وضربهم وإهانتهم قبل إطلاق سراحهم، خصوصاً وأن محلّة اليهود السابقة كانت تقع وسط حيِّ الجِنْوِيِّين، وهي المحلّة التي سكنها أكثر الأندلسيّين حقداً على الفرنجة، من القادمين الجدد الذين ذاقوا ويلات العذاب على طريق هجرتهم.

أنا مؤمن أشدّ الإيمان بأن السلطان أحمد كان يبارك بصمت ما يفعله أبناء أمّتنا بالفرنجة في گَلَطَه، لأن التُّرك، ومنذ أن دخلوا هذه المدينة بعد استسلام الجِنْوِيِّين، لم يستوطنوها لأسباب عديدة، وهاقد سنحت الفرصة على أيدي الأندلسيّين لتحقيق ذلك. صحيح أن الصدر الأعظم نصوح باشا استجاب لشكاوى القنصل الفرنصاوي دي سانسي، وأصدر تعليمات بإنزال عقوبة مشدّدة على المستفزّين، ولكنها تعليمات صورية، لم يكن الملّا علي الحبشي يوليها أدنى اعتبار.

من القصص العجيبة التي كنتُ شاهداً عليها: أن جمعاً من تجّار مرسية، من جماعة الشيخ الأشقر، جمعوا اثنَتَي عَشْرَة ألف دوقية وقدّموها للصدر الأعظم ليأخذوا كنائس الكاثوليك ويحوّلوها إلى مساجد. وافق الصدر الأعظم وكتب لهم بذلك، ولكَ أن تتخيّل ما حصل. لقد توحّد سفراء وقناصل الفرنجة جميعاً وعدّوا هذا القرار بمثابة إعلان حرب، وخرق للسلام مع ممالكهم، فما كان منه إلّا أن تراجع عن قراره، ولكنْ، إلى حين كما يبدو.

لم أر في حياتي رجلاً بدأب الملّا علي الحبشي هذا. كلّ يوم لديه قرار جديد ضدّ تجّار الفرنجة، مرّة بإحياء ضريبة الخِرَاج عليهم وعلى عرباتهم، ومرّة بفرض ضريبة الجِزْيَة المستحقّة على النصارى

اللائذين بحِمَى السلطان. ومرّة أخرى هبَّ السفراء للاحتجاج عند شيخ الإسلام مهدّدين بإيقاف تجاراتهم، وكنتُ عنده يومها، فقال لهم:

- نحن نطبّق شريعة نبيّنا ودِيْننا. ومَنْ أراد من النصارى أن يعيش على أرض الإسلام، فعليه أن يدفع الخِرَاج والجِزْيَة.

قالوا له: إن الاتّفاقات بيننا وبينكم لا تتضمّن مثل هذه الضرائب، فقال:

- لدينا شريعة لا نستطيع تجاوُزها، حتّى وإن وقّع معكم الصدر الأعظم.

وحين أُسقِط في أيديهم، قال لهم بكلّ صَلَف:

- إذا غادر تجّاركم گلَطَه، فلدينا تجّار من إخوتنا الأندلسيّيْن يحلّون محلّكم.

ممّا يؤسف له، يا أبي، أن مثل هذه الأخبار، في حال وصلت إلى مَنْ تبقّى من أبناء أمّتنا في الأندلس، ستشجّعهم على الرحيل، وبذلك تحقّق جماعة الشيخ الأشقر كلّ ما سعت له.

ابنكَ المخلص

ألونسو دي لونا أبو عيسى محمّد بن أحمد الحبيس البَيَاسِيّ

الكتاب الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

إسْطَنْبُل 20 نونبر 1613 مسيحية

سيّدي الوالد حفظه الله

لا أخبار جديدة عن خيسوس، وقلقي عليه يزداد يوماً إثر يوم، وأدعو الله كلّ لحظة أن يكون سالماً أينما كان، خطر لي أنه، لربّما عاد إلى البلاد، ولكنكَ أكّدتَ لي بأنكَ سألتَ بطُرُقكَ الخاصّة عنه، ولم تعثر له على أثر، فوضعتُ احتمالاً آخر وهو أنه لربّما هاجر إلى بلد مِخِيْكُو، وأرجو من قلبي كلّه أن يكون الأمر كذلك.

سوف أكتب لكَ رأيي، كما طلبتَ، بمؤلَّفك المطبوع فيرداديرا- التاريخ الحقيقي للملك رودريغو. كنتُ قد قرأتُ الجزء الأوّل منه في أثناء وجودي في طُلَيْطِلَة، ولم أتمكّن من الكتابة لكَ حوله، وها قد حصلتُ أخيراً على الجزء الثاني، وأراه أفضل وأوضح رؤية من الجزء الأوّل، رغم أن الجزئَيْن يُكمِّلان بعضهما البعض.

ملاحظتي الأولى التي كنتُ أودّ لو أنني أخبرتُكَ بها قبل الطباعة تتعلّق بالعنوان، فلو أنكَ غيّرت كلمة تاريخ إلى كلمة قصّة، لاختلف الأمر، صحيح أن قصتك لاقت انتشاراً كبيراً بين قرّاء القَشْتَالِيَّة، وعلمتُ أن هناك مَنْ يودّ أن يترجمها إلى ألسنة أخرى، إلّا أن كلمة تاريخ توحي بأنكَ تكتب تاريخاً على غِرَار كُتُب التاريخ المعروفة عند الرومان والإغريقو والعرب.

أمّا مُؤلَّفك في رأيي، فهو قصّة مشبعة بالخيال، فيها أصل تاريخي، وهي تؤسّس في رأيي لنوع جديد غير مألوف من الكتابة بالقَشْتَالِيَّة، رغم أنه شائع ومعروف بالعربية منذ قرون طويلة، وليس أدلّ على ذلك من قصص الخليفة هارون الرشيد في الكتاب الشهير أسمار الليالي للعرب ممّا يتضمّن الفكاهة ويُورِث الطرب. مع الفارق الكبير بين هدفكَ وهدف قصص الأسمار.

وفي ظنّي أن مُؤلَّفك هو الذي أوحى لدون ميغيل دي ثيربانتس كتابة قصّته حول دون كيخوطة، مع فارق أنه لم يسمّ مُؤلَّفه تاريخ دون كيخوطة. وبخلاف حديثكَ الخيالي عن عثوركَ على مخطوط قديم بالعربية لتاريخ الملك رودريغو، قمتَ بترجمته إلى القَشْتَالِيَّة، فإن الدُّون ثيربانتس جعل صاحب الرواية واحداً من أبناء أمّتنا الأندلسية يُدعى هاميت بننجيلي، وهو يقصد أحمد الإنجيلي، قد شعرتُ بأنه يتحدّث عنكَ أنتَ، يا أبي.

لا يخفى على القارئ الحصيف أن سبب تأليفكَ لهذا السِّفر هو سبب راهن، تريد أن تعلّم من خلاله حكّام إشبانية الجديدة كيف عليهم أن يتعلّموا ممّنْ سبقهم بأن ما هم مُقدِمون عليه، تمّ تجريبه سابقاً، وانعكس وبالاً على مقترفيه.

لقد أحسنتَ باختيار الملك رودريغو، فهو عندهم في مأثوراتهم ملك صالح، ولكنْ، إن كان صالحاً لمَ هُزم وفرّ وانهار مُلكه؟! وفي مقابل ذلك، قدّمتَ الحاكم المسلم بأبهى صورة من العدل، الأمر الذي أسهم في ديمومة حكمه.

انا أعرف، كما غيري من قرّاء العربية أنه ليس ثمّة مخطوط تاريخ للملك لذريق بالعربية، لا لابن طارق، ولا لطريف بن نصير، فهؤلاء رجال من خيال، وهذا الخيال يهدف إلى إقناع القارى بأنه ما

سترويه له هو قصّة حقيقية، ولكن هذا الأمر لم يُفهَم بشكل جيّد عند الكثيرين، وظنّوك مجرّد مزوّر ومنتحِل لتاريخ غير موجود.

هذا من حيث القالب الذي سكبتَ فيه قصّتكَ، أمّا من حيث المضمون، فإن مصنفك يُعدّ درساً بليغاً لأيّ حاكم يريد أن يدوم حكمه، فلا حكم يدوم إلّا بالعدل، كما أنه يبيّن مخاطر القَسْر في الدِّيْن، وإجبار الناس على اعتناق دِيْن بالإكراه، لأن أساس التديّن هو الاقتناع، وقد أوضحتَ فكرتكَ هذه بمعزل عن دِيْن الإسلام أو النصرانية، فثمّة في السِّفر مسلمون تحوّلوا إلى النصرانية، وظلّوا على نصرانيّتهم وماتوا من أجلها، ونصارى تحوّلوا إلى الإسلام وأخلصوا له، وحسناً فعلتَ حين استحضرتَ نصوص المعاهدات بين المسلمين المتغلّبين على الأندلس أيّام فتوح موسى بن نصير وبين الفرنجة القدماء.

هذا بعض ما أردتُ أن أكتبه لكَ حول الفيردراديرا، وأودّ أن أنوّه بالسوية الرفيعة للقَشْتَالِيَّة فيه، وهي سوية لم أعهدها من قبل، تبيّن مدى تضلّعكَ ونحتكَ للمصطلح غير المعروف فيها قبلكَ، ورفعكَ لها لتصبح واحدة من لغات التأليف الناشئة، وما زلتُ أظنّ أن الدُّون ثيربانتس تأثّر بهذا السِّفر تأثّراً كبيراً.

حين ألقاكَ سأحدّثكَ حديثاً أطول من هذا حول مؤلَّفك العظيم، وسوف أسألكَ أسئلة أتمنّى أن تجيبَني عنها، لأنها بدأت تشغلني الآن كثيراً.

ابنكَ المخلص

ألونسو دي لونا أبو عيسى محمّد بن أحمد الحبيس البَيَاسِيّ

الكتاب الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

إِسْطَنْبُل 10 دجنبر 1615 مسيحية

سيّدي الوالد حفظه الله

بشراكَ، يا أبي، لقد ظهر خيسوس أخيراً، وسيعود إلى إِسْطَنْبُل خلال مدّة أتمنّى أن لا تطول. زفّ لي الخبر السعيد الشيخ الشريف الأندلسي. ولكنه لم يخبرني شيئاً عن سبب غياب ابني الحبيب ولا أين كان. كلّ الذي قاله لي إنه في طريقه إلى إِسْطَنْبُل قادماً من بلاد فلانضس. لماذا بلاد فلانضس؟! لا أعلم!

سوف أخبره بكلّ شيء يجب أن يعلم به حال رؤيتي له، لن أُضيّع الفرصة كما ضيّعتُها من قبل. وبما إنكَ تؤكّد لي أنكَ تستطيع أن تضمن سلامتي في حال عودتي إلى البلاد، فهذا أقصى ما أتمنّاه. أنتَ تعرف بأنني غادرتُ مرغماً بسبب دسيسة لدى ديوان الإيمان، وأؤكّد لكَ بأنني سأسعى لأن نعود أنا وخيسوس سوية إلى البلاد للقيام معكَ بأمر الجماعة المختارة، علّنا نُنقذ ما يمكن إنقاذه بعد أن اتّفقت مصالح الملك مع مصالح الشيخ الأشقر.

لم أعثر حتّى الآن على مخطوط تاريخ قَطَلُونِيَة، إنما عثرتُ على طرف خيط سيقودني إليه. أحدهم قال لي إنه قرأ هذا العنوان ضمن محتويات خزانة كُتُب المدرسة العمرية في دمشق. كلّفتُ أحدهم بالبحث عنه ونَسْخه إن أمكن له ذلك، وما زلتُ أنتظر.

توفّي قبل مدّة شيخ الإسلام سعد الدِّيْن خوجة، وتولّى المنصب خلفاً له شقيقه إسعاد أفندي، وهو صديق حميم لي، وكثيراً ما يُشرِكُني بالأخبار المتعلّقة بالفرنجة في گَلَطَه، ويطلب مشورتي. والظاهر أن الأمور تسير هنا نحو المجهول، لم تعد شوارع گَلَطَه آمنة، في كلّ يوم نسمع عن قتيل جديد قذفت به الأمواج إلى الشاطئ. والرهبان الجِزْوِيْت باتوا في عين المصيبة.

وقد أسرَّ لي شيخ الإسلام قبل أيّام بأن عيون السلطنة جمعت أدلّة كثيرة عن تورّط الرهبان الجِزْوِيْت باتّصالات مع القوزاق، وإمبراطور هابسبورغ، وكذلك التجسّس لصالح القَشْتَالِيِّيْن، وتهريب الأسرى النصارى، وحتّى تعميد المسلمين. وأظنّ أن الانتقام منهم قادم لا محالة.

طلب منّي إسعاد أفندي ...

[الرسالة ناقصة]

سِفر الختام
وفيه الخواتيم كلها
في خمسة فصول

وهي: 'مهمة سرية'، و'وجهاً لوجه مع دون خيرونيمو'، و'العرس'، و'وجهان لرجل واحد'، وفصل 'الختام'

مهمّة سرِّيَّة

احتجتُ ثلاثة أيّام من الصمت والتفكّر، في أعلى البرج، لأبلغ شيئاً من الطمأنينة والرضا، وأعيد بناء صور الأشياء كما هي، فقد قلبت الحقائق المستجدّة حياتي رأساً على عقب. كان لا بدّ من إعادة التفكّر بكلّ ما مرّ بي .. من هناك؛ من **حيّ الكازار** في **طُلَيْطِلَة**، إلى هذا الحيّ المشرف على مآذن **إِشْطَنْبُل** وقبابها.

يا لمكر الأقدار! **محمّد بن أبي العاص** الذي ما فتئتُ أُسيء به الظنون، هو والدي؟! يا الله؛ كيف لم أنتبه لنظراته المتفحّصة؟! لابتساماته المكبوتة ..! كيف ..؟! كيف؟! والدي الذي لم أعرفه قطّ، يحلّ بعضاً من عقد حياتي في أربعة كُتُب ..! أربعة كُتُب فقط! ترى؛ لو لم تهيِّئ الأقدار لي ذلك اللقاء العابر عند **إِسْكِلَة گَلَطَه**، كم كان عليّ أن أعيش لكي أكتشف هذه الحقائق المذهلة؟!

كنتُ كمَنْ وجد نفسه في غابة كثيفة، تحجب أشجارها الملتفّة قبّة السماء، كلّ فرجة بين شجرتَيْن تقود إلى درب لا أعلم إلى أين يفضي؟ ولا كيف ستكون نهايته؟ .. هل أنتظر عودة أبي؟ هذا إن عاد أصلاً؟ هل أتزوّج فيروزة؟ هل أعود إلى طُلَيْطِلَة وأعيش في تَقِيَّة طوال حياتي؟ هل أركب المحيط وأذهب إلى **بلاد مِخِيكُو** أم أهبط إلى الشام على خُطى شيخي الأكبر؟ ولكنْ، قبل ذلك كلّه؛ هل سأترك **دُون خيرونيمو** ينجو بأفعاله هكذا، من دون حساب وقد قبضتُ على طرف خيط يمكن أن يقودَني إليه؟

في صبيحة اليوم الرابع؛ أيقظتْني الشمس الساطعة، وأنا أهجس باسم **لازارو**، أنهضَني وهج الشمس من سريري، وصورة **لازارو** الذي حلمت به تملأ مخيِّلتي . لم يأتِني في المنام قبل هذا اليوم، رأيتُهُ يقرأ في سِفْر مجلّد، اقتربتُ منه فنظرَ إليّ باسماً، ثمّ غاب هو والسِّفْر، ليظهر لي **البادري راميرو**، وهو يسلّمني ورقة مَطْوِيَّة، استيقظتُ قبل أن أقرأ ما كُتب فيها.

وقعت عيناي على مجلد فنجيل برنابا، أظنّه السِّفْر نفسه الذي رأيتُ **لازارو** يقرؤه. فتحتُ صفحة من دون تعيين، فكانت بيضاء إلّا من عنوان: (**الفصل الثامن التسعون بعد المائة**). ومن غريب الاتّفاقات أنني لمّا قلبتُ الصفحة، إذا بها مختصّة بكلام القِدِّيْس **لعازر**: {**عندها قال لازارو: يا معلّم، أقول لكَ حقّاً إنني لا أستطيع إدراك عقوبة مَنْ يرى الكرَّة تلو الكرَّة الأموات وهم يُشيَّعون إلى القبر ولا يخشى اللّٰه**..} إلى أن قال عيسى بن مريم: {**وحقّ اللّٰه، إنه حاز شرف النُّبُوَّة، فأَنصِتُوا لكلامه الحقّ**}.

حيّرني المنام، والآية، والاتّفاقات الغريبة، وعزمتُ على العودة إلى بيتي، فلربّما فتح الله عليّ، وكشف الغِمَامَة عن باصرتي، وحين فتحتُ بَوَّابة البرج فُوجئ بي حارس جديد، ولكنه لم يقل شيئاً. سلّمتُ عليه وأخبرتُهُ بالعربية الأندلسية أنني بتّ الموكَّل بالمِحْبَس الخامس، فهزّ رأسه وقال بالعربية أيضاً:

- أهلاً وسهلاً.

وقبل أن أستدير لأهبط باتّجاه بيتي، سألتُهُ:

- أين الحارس الآخر؟

قال من دون أن ينظر نحوي:

- مات البارحة وأمامكَ جنازته في طريقها إلى الجامع.

حَوقَلْتُ وتأسّفتُ على شبابه، وسألتُ:

- كيف مات؟

- قبل يومَيْن أمسك جاسوساً جِنْوِيَّاً كان يحوم حول البرج، وحين قبض عليه لكي يقتاده إلى القاضي، طعنه وفرّ هارباً، وفجر اليوم لفظ أنفاسه الأخيرة، بعدما نزف يوماً وليلة كاملَيْن.

سرتُ خلف الجنازة إلى الجامع، ورأيتُ **الشريف الأندلسي** يتقدّم المشيّعين، وبعد صلاة الجنازة انسحبتُ مسرعاً إلى بيتي، وحين فتحتُ الباب وجدتُ في الدهليز **قُصَاصَة مَطوِيَّة**، تشبه القُصَاصَة التي أعطانيها **البادري راميرو** في المنام، فتحتُها، وإذ هي رسالة من **فيروزة** تسألني عن سبب هذا الغياب كلّه، وتدعوني لزيارة بيتهم.

أقفلتُ الباب، وهرعتُ نحو الإِسْكِلَة، فركبتُ قارب الـ **بريمي**، وتوجّهتُ نحو بَلَاطْيَة، وفي الطريق تذكّرتُ **آية لعازر** التي قرأتُها، وكيف فُسِّرت بموت الحارس الأندلسي، و**قصاصة راميرو** وكيف فُسِّرت بـ **قصاصة فيروزة**. وراح يتردّد داخل رأسي سؤال عن مغزى تجوّل الجاسوس الجِنْوِيِّ حول البرج؟ وخطر لي خاطر عجيب؛ لمَ لا يكون هدف الجاسوس هو كتاب **فنجيل برنابا**؟ فهو الشيء الوحيد في البرج الذي يمكن أن يسعى فرنجة گَلَطَه للاستحواذ عليه.

كانت فيروزة متوجّسة من غيابي أربعة أيّام، فطمأنتُها بأنني على وشك حلِّ لغز **دُون خيرونيمو**، وسألتُها إن كان في وسعها مراقبة **سليم أفندي**، لأن الرجل الذي كنتُ أشكّ فيه لم يعد في دائرة شكوكي. ولم أخبرها شيئاً عن أبي وكُتُبه حتّى أُنجز ما عزمت عليه.

عدتُ إلى كَلَطَه، متحاشياً رؤية **الشريف الأندلسي**، وهو خارج من الجامع بعد صلاة الظهر، فما زلتُ لا أعرف إن كان القاضي قد أخبره شيئاً بشأن المِحْبَس الخامس، ولا ما قال له بالضبط لو كان فعل، وهل عرف بنُوّتي للطبيب **محمّد ابن أبي العاص** أم لا؟ لذلك توجّهتُ إلى ديوان القاضي علي أفندي، وطلبتُ رؤيته على انفراد. وحين أفصحتُ له عن اسمي، تبسّم وقال:

- لا تخشَ شيئاً، والدكَ شدّد عليّ بأن لا أُخبر أحداً بالأمر، خصوصاً **الشريف الأندلسي**، وقد وعدتُهُ بذلك.

قفلتُ راجعاً إلى بيتي، ومررتُ بالبازار لشراء طيرَي حجل، لعمل طاجن محمّر.

وبينما كانت الأفكار تطرق داخل رأسي، والخواطر تتمايل به، شرعتُ بالطبيخ. عادة ما يمنحني تحضير الطبيخ فسحة لراحة النَّفْس، وطرد الأفكارالمتعَبة. ذبحتُ الحَجَلَتَيْن، وسلختُهما، وغسلتُهما، وجعلتُهما في القدر، وسكبتُ عليهما ماء، وذررتُ ملحاً، وفُلفُلاً، وكُزْبَرَة يابسة، وقليلاً من بصل مقطوع، ولوزاً مقشوراً. ثمّ أرقتُ زيتاً، ومِغْرَفَة مِن مُرِّيٍّ نقيع، وقليلاً من خلّ، وحملتُ القدر على النار ليُطبَخ. هذا كلّه فعلتُهُ بمهارة شخص مُسرنَم!

أخرجتُ الحَجَلَتَيْن من القدر ووضعتُهما في الطاجن مع المَرَقَة، ووضعتُ الطاجن في الفرن حتّى احمرّتا، وفي اللحظة التي هيّأتُ فيها المائدة للطعام، كانت قد نضجت في رأسي خطّة الوصول إلى دُون **خيرونيمو راميريز**.

للطبّاخين المَهَرَة قدرة على طبخ أشياء غير الطعام. ضحكتُ في سرّي، كانت الخطّة أن أتوجّه إلى **دَيْر الرهبان البندكتيّين** بعد أن أحلق وجهي،

وأزعم أنني **الراهب لازارو** من **دَيـر القِدِّيـس جِرمِن** في **بَرِيـش**، وأنني مكلّف بمهمّة من **بابا الفاتيكان**. وإذا ما نلتُ ثقة رئيس الدَّيْر سأبدأ بالبحث عن **دُون خيرونيمو** عند الرهبان الجِزْوِيْت بدعوى حملي رسالة من شقيقه **البادري راميرو**.

اكتملت الخطّة، وقرّت في رأسي، وقد تصوّرتُها محكمة. فتّشتُ أوراقي وعثرتُ على رسالتي **البادري راميرو**. تأمّلتُ الخطّ والتوقيع جيّداً. كان خطّي قريباً من خطّه، ولكنني أحتاج إلى تمرين حتّى أنجح في تقليده تماماً. بعد محاولات لم أُحصها عدداً نجحتُ، في تقليد الخطّ، وبقي عليّ أن أتدرّب على تقليد إمضائه. الإمضاء بحدّ ذاته بسيط، ولكن انسياب الحروف وانحنائها يكاد أن يكون متطابقاً بين الإمضاءين على الرسالتَيْن. أوّل الأمر؛ وجدتُ صعوبة بالغة في تقليده، وبعد يومَيْن من المحاولات الحثيثة نجحتُ، فخططتُ جملة واحدة:

أخي العزيز دُون خيرونيمو راميريز حفظه الله

ثِقْ بحاملها؛ فقط ثِقْ.

الخاطئ راميرو

(توقيع)

حلقتُ لحيتي وشاربي واستطلعتُ هيئتي في المرآة مراراً .. **يا إلهي**!! **وجه مَنْ هذا الذي في المرآة؛ وجهي أم وجه لازارو؟!**

أشحت بوجهي عن المرآة فزعاً، ورشقت ماءً بارداً على رأسي، وعدت لأرى وجهي من جديد.. أجل؛ لم أكن أهذي هو **وجه لازارو**. وحتى ذراعاي ويداي أكاد لا أعرفهما!

ارتديتُ ثيابي الفرنجية وتأنّقتُ، ودسستُ الرسالة في عُبِّي، ثمّ خرجتُ من بيتي بعد صلاة الفجر، محاذِراً الخطأ في عبور الأزقّة، فالحرب بين الأندلسيِّيْن والفرنجة الجِنْوِيِّيْن كانت على أشدّها.

سرتُ في جادّة الحيِّ الفرنجي، وكانت حانات الشراب تودِّع آخر مرتاديها، ومحالّ الطعام تتهيّأ بروائحها النفّاذة لاستقبال الزبائن الجائعين لتناول وجبات مَرَق رؤوس الأنعام، والأمعاء المَشوِيَّة المَحشُوَّة بالشحم.

ارتدتُ مطعماً مقابل **كنيسة القِدِّيس بنديكتو**. كنتُ أوّل الواصلين إليه، وطلبتُ بالقَشْتَالِيَّة، وهي قريبة من فرنجية الجِنْوِيِّيْن الإيطالية، طبقاً من البيض المقلي بالسجق الحارّ، فنظر النادل إليّ نظرة غريبة، وقال:

- أبناء قومكَ يطلبون مَرَقَ رأس الخِنْزِير عادة.

قلت، وأنا أنظر إليه بتحدٍّ:

- اجلبْ ما طلبتُ منكَ، ولا تتدخّلْ فيما لا يعنيكَ.

بعد قليل عاد ليقول لي إن السجق يحتاج إلى ساعة لكي يصل.

- أنتظر! لا عليكَ.

غاب النادل قليلاً ثمّ عاد ليقول:

- لا يوجد عندنا سوى مَرَق الرؤوس. إن أردتَ أُحضر لكَ وجبة؛ وإن لم ترد ابحثْ عن مطعم آخر.

قلتُ له بصوت مرتفع:

- ما بكَ، أيُّها النادل؟ لماذا تتعامل معي بهذه الفظاظة؟

عند هذه اللحظة دخل راهب من رهبان الكنيسة حاملاً قدراً متوسّطاً. وحين رآني أتحدّث بغضب قال للنادل:

- ما به السيّد؟

قال النادل:

- لا شيء، يريد بيضاً ولا يوجد عندنا.

ثمّ انحنى على أُذُنه وهمس بكلمتَيْن، نظر الراهب بعدها إليّ، وخاطب النادل:

- املأ لي ما يكفي ثلاثين تلميذاً، زاد العدد خمسة عن أمس، وسأتحدّث مع السيّد.

قال الراهب:

- مَنْ أنتَ؟ وما مقصدكَ في هذه الناحية؟

قلتُ هامساً:

- أنا **الراهب البندكتي لازارو من دَيْر القِدّيس جِرمِن في بَرِيْش**، أحمل رسالة لقُدس **الأب فرانسوا**.

نظر الراهب إليّ باهتمام، ثمّ قال للنادل:

- أوصلِ القدرَ إلى الكنيسة وسأتبعكَ.

حمل النادل القِدْر ومضى به نحو باب الكنيسة، وقال لي الراهب:

- يظنّكَ **موروسكياً** متنكّراً، لأنكَ رفضتَ أكل مَرَق رأس الخِنْزير.

- وما شأنه بي؟

- يبدو أنكَ لا تعرف الأوضاع الطارئة في هذا الحيّ. سأمضي معكَ إلى الكنيسة الآن، ريثما نخبر سيّدنا رئيس الدَّيْر بأمركَ.

في الكنيسة؛ استنطقَني راهب فَرَانْصَاوِيّ بدين وله عرجة في قدمه، علمتُ أنه من **بَرِيش**، وكان راهباً في **دَيْر القِدِّيس جِرمِن**، قبل وصولي إليه بسنوات قليلة.

بعد أن ذكرتُ له أن اسمي هو **الراهب لازارو** من دَيْر القِدِّيْس جِرمِن، سألني عن الدَّيْر وأقسامه ورئيسه، وأسماء رهبان مُعيَّنين؟ فأجبتُ بحسب معرفتي، وكانت معرفة جيّدة، وخصوصاً ما يتعلّق بأدقّ تفاصيل حياة لازارو، فقال مباغِتاً وهو يبتسم:

- ألم تتذكّرني أيها **الأخ لازارو**، أنا الراهب جان لوك؟

نظرتُ إليه مليَّاً، ثمّ قلتُ بتأكيد:

- اعذرني، أيُّها الأخ، لستُ متيقّناً من أنني رأيتُكَ سابقاً.

قال وهو يهزّ رأسه موافقاً:

- أجل، لن تتذكّرني، فقد غادرتُ الدَّيْر بعد رسمكَ راهباً بشهور قليلة، ولكنني أتذكّركَ جيّداً أصغر سنّاً، رغم أن **ملامح وجهكَ هي ذاتها لم تتغير!**

في ظهيرة ذلك اليوم رافقني الراهب جان لوك لرؤية الأب فرانسوا. فوجئتُ به ينتظرني عند باب مكتبه مرحّباً:

- أهلاً بأخينا **لازارو**، تفضَّلْ.

قبَّلتُ يده جرياً على عادة صغار الرهبان حين يلتقون براهب أعلى

مرتبة، فأخذني بيده وأجلَسَني على مَقعَد وجلس قبالتي، وقد عاودت وجهه المرحّب صرامة، عادة ما تُلازِم وجوه رؤساء الأديرة. تأمّلني باهتمام، ثمّ قال بفَرَانْصَاوِيَّة بَرِيْش:

- أَخبَرَني الأخ جان لوك بأنكَ مُرسَل بمهمّة، هلَّا أعدتَ على مسامعي ما قلتَهُ له؟

قلتُ بفَرَانْصَاوِيَّة بَرِيْش:

- بأمر قداستكَ .. كنتُ قد تعرّفتُ في دَيْرنا، **دَيْر القِدِّيس جِرمِن في بَرِيش**، على راهب جِزْوِيْتي يُدعى **البادري راميرو راميريز**، وكان مقيماً عندنا في الدَّيْر بمهمّة تتعلّق بكُتُب ومخطوطات عربية جلبها من **غَرْنَاطَة**، وبعد مدّة من الزمن وصلت رسالة من الفاتيكان تطلبني بالاسم، لتنفيذ مهمّة سرّيّة مقدّسة، وكلّ ما أرجوه منكَ، يا صاحب القداسة، أن يبقى موضوع المهمّة سرّاً بيننا، وأن لا تُخبر أحداً بأمرها أيّاً يكن.

هزّ برأسه هزّات خفيفة بأن أُكمل حديثي، فأردفتُ:

- حين وصلتُ إلى رومة فوجئتُ بالبادري راميرو قد رشّحني لمهمّة تتبُّع **إنجيل برنابا المنحول** الذي سرقه **موريسكي** ادّعى ان اسمه **الأخ مارينو**، بعد أن خدع البابا والكرادلة بأنه راهب فرنجي خبير بلغات الشرق، فتمكّن بحيلة خبيثة من الدخول إلى **مكتبة البابا سيكتوس الخامس**، وسرق منها مخطوط الإنجيل النادر، وقد نمَت الأخبار للفاتيكان بأنه أتى بالمخطوط إلى **إِسْطَنْبُل**، وأنه يسعى لنقلها وطبعها بأكثر من لسان، وقداستكَ تعرف خطورة مثل هذا الأمر، وكيف يمكن أن يُبلبل إيمان الكثير من العوامّ والجَهَلَة.

قال رئيس الدَّيْر:

- ولمَ أنتَ بالذات؟!

- لا أعرف، يا صاحب القداسة، ربّما لمعرفتي بأكثر من لسان، فلساني الأصلي هو **القَطَلُونِيّ** بحكم ولادتي في بلاد **بَرْبَنصَة**، وأُجيد فَرَانْصَاوِيَّة **بَرِيش** بحكم الإقامة في الدَّيْر، وأعرف لسان **اللاطين**، وشيئاً من **القَشْتَالِيَّة**، **والإيطاليانية**، **والعربية** بحكم عملي في مكتبة الدَّيْر مع الكثيرين، وقد لاحظ **الأب راميرو** علي إتقاني لهذه الألسن، وأظنّ أن هذا ما شجّعه على دعوتي للمهمّة.

همهم وهو ينظر إليّ مليّاً، ثمّ قال:

- كيف وصلتَ؟ ولماذا تتنكّر بشخصية **تاجر قَشْتَالِيّ**؟

كنتُ أتوقّع السؤال، وكان جوابي حاضراً، فعرضتُ عليه الورقة الصادرة عن **الملك فيليب بن فيليب** التي استخرجها لي عمّي **سيرخيو غونثالث**، وتدعو لتسهيل انتقالي، بصفتي تاجراً إشبانياً:

- هذه الأوراق استخرجوها لي بتوصية من **الكاردينال فرناندو دي غيفارا**، كوني أُجيد شيئاً من العربية، يا صاحب القداسة، فإن حدث أمر ما، كأن أقع أسيراً بيد قراصنة المسلمين أزعم أمامهم أنني **موركسي**.

أقنعت إجابتي رئيس الدَّيْر، غير أنه قال مُنهِياً الجلسة:

- أهلاً بكَ، أيُّها **الأخ لازارو**، لقد أكّد لي **الأخ جان لوك** أنه يتذكّركَ في **دَيْر القِدِّيس جِرمِن**، ولكن ما يثير استغرابي هو أن أحداً لم يخبرني بهذه المهمّة من قبل، رغم أن بريدنا مع الفاتيكان لا يتوقّف؟!

قلتُ وأنا أتنفّس براحة:

- المهمّة كلّها تجري في جوّ من السِّرِّيَّة، وأنني أرجو الربَّ أن تتكلَّل المهمّة بالنجاح.

خصَّص لي رئيس الدَّيْر سريراً في حجرة **الرهبان البندكتيِّين**، وكانوا أقلّ الرهبان عدداً مقارنة مع **الرهبان الجِزْوِيت الفَرَانْصَاوِيِّين**، و**الكوبوشيِّين والفرانسيسكان**، وأمر لي بكسوة راهب بندكتي، وصرتُ أمضي بعض الليالي مع الرهبان، وأزور، في أيّام معيّنة، بعد أن أرتدي زيّ التاجر القَشْتَالِيّ، **نُزُل البنادقة**، أمضي فيه بعض الوقت مع البحَّارة الذين كانوا يعرفونني بسبب سَفَري معهم أكثر من مرّة.

في أوقات أخرى، وقبل وصول التلاميذ إلى مكتب التعليم الذي يشرف عليه الجِزْوِيت، كنتُ أتسلّل إلى حيِّ الأندلسيِّيْن، وأتوجّه من هناك إلى بيتي، لكي أتفقّد **مصطفى دي أرندا** إن وصل أم لا، وبين الفينة والأخرى أزور **الشريف الأندلسي**، لكي لا ألفت نظره لأيّ شيء يمكن أن يثير ريبته. وفي أحد الأيّام، أخبرني بأن أندلسيّاً يُدعى **مصطفى دي أراندا** سيصل إلى إِسْطَنْبُل خلال أيّام، وأنه سيُسكنه في بيت الطبيب ابن أبي العاص الذي سافر إلى تونس سفراً قد لا يعود منه قريباً.

تظاهرتُ بأنني غير مهتمّ لأمره، فبادرني الشيخ وهو يضحك:

- لا أدري ما السِّرُّ الذي بينكَ وبين ابن أبي العاص، لم أفهم حتّى اليوم لمَ تمقتُهُ هذا المقت كلّه.

- لم أرتح له، وأشكّ بأنه قَشْتَالِيّ كاذب يتنكّر بزيٍّ أندلسي.

وجهاً لوجه مع دُون خيرونيمو

بعد قدّاس الأحد الصباحي، دعاني **رئيس الدَّيْرالأب فرانسوا** إلى مكتبه، وراح يسألني عن مهمّتي، وماذا فعلتُ في الأيّام التي قضيتُها في **گَلَطَه** و**إسطَنبُل**؟

أخبرتُهُ بأن الأمور تسير على ما يرام، وأنني اقتربتُ من تحديد مكان مخطوط **الإنجيل المنحول**، وأنه في القريب العاجل سوف يسمع أخباراً طيّبة.

فاجأني سؤاله:

- ما اسم البادري الجِزْوِيْتي الذي حدّثتَني عنه وكان عندكم في الدَّيْر؟

- **البادري راميرو راميريز.**

- أَوتظنّ بأنه أخ أو قريب لـ **دُون خيرونيمو راميريز**؟

كنتُ على وشك أن أخبره بأمر الكتاب الذي عليّ أن أُوصله لـدُون خيرونيمو، وحين لاحظ دهشتي قال مستنكِراً:

- ما بكَ؟

- للتوّ، يا صاحب القداسة، كنتُ سأسألكَ عنه، إذ حمَّلني شقيقه كتاباً له.

- للأسف لن تستطيع الوصول إليه، لأن الأتراك يبحثون عنه، ويريدون رأسه.

تصنّعتُ القلق، وسألتُ:

- لماذا؟ ماذا يريدون من راهب جِزْوِيْتي؟

قال الأب فرانسوا وقد بدا الأسى على وجهه:

- لا أعلم شيئاً عن أمره، ولكنْ، منذ أيّام و**قاضي كَلَطَه علي أفندي**، ومعه **الصوباشي**، يبحث عنه، ويطالبنا بتسليمه، وإلّا فإنه سوف يقتحم أديرتنا وكنائسنا، وقد هدّدنا بإغلاقها.

تفرّس فيّ قبل أن يسأل :

- قلتَ إنكَ تحمل كتاباً من شقيقه، ما هو مضمونه؟

أجبتُ:

- في الحقيقة هما كتابان، واحد مكتوب الآخر شفاهي. ولذلك عليّ أن أراه وجهاً لوجه.

قال وهو ينظر إلى النافذة أمامه:

- أستطيع أن أرسلكَ بتوصية منّي إلى **كنيسة القِدّيس فرنسيس**، هناك راهب يُدعى **أوتافيو** يمكن أن يساعدكَ، ولكنْ، حَاذِرْ أشدّ الحذر، لأن **علي أفندي** كشّر عن أنيابه.

- لا عليكَ، سوف أتدبّر الأمر، فقط أرسلني إلى الكنيسة.

ارتديتُ زيّ الرهبنة، ومضيتُ برفقة **الراهب جان لوك** إلى كنيسة

القِدِّيْس فرنسيس، وكانت قريبةً من كنيسة القِدِّيْس بندكت، فسلّمني بدوره لراهب جِزْوِيْتي آخر بعد أن أخبره بأنني مُرسَل من الأب فرانسوا.

في الكنيسة؛ استنطقني راهب قَشْتَالِيّ من **مَدْرِيل**، لم يترك شيئاً إلّا وسألني عنه، بما في ذلك **الكاردينال دي غيفارا**، فأخبرتُهُ بأنني لا أعرفه، وأن الورقة استخرجوها لي وأنا في **رومة**. كان الراهب القَشْتَالِيّ يريد أن يتأكّد إن كنتُ أعرف بموت الكاردينال أم لا، فكما علمتُ فيما بعد، توفيّ الكاردينال دي غيفارا بعد أن سافرتُ من **مَدْرِيل إلى رومة** بفترة وجيزة.

طلب الراهب القَشْتَالِيّ رؤية رسالة البادري راميرو، فسلّمتُها له. تأمّلها مليّاً، ثمّ غاب حصّة من الوقت، عاد بعدها ليقول لي:

- سيرافقكَ راهب إلى مبنى **بعثة فَرَانْصَة** في الطرف الشرقي من كَلَطَه.

حين وصلنا إلى مبنى البعثة سأل الراهب الجِزْوِيْتي عن **الأخ أوتافيو**. وبعد برهة من الوقت؛ أطلّ من البَوَّابة وجه نحيل له لحية خفيفة وملامح يشوبها شيء من الذهول، وقد بدا متبرّماً وهو يتفرّسنا.

قال بفَرَانْصَاية بَرِيْش:

- أنا الراهب أوتافيو، ماذا تريد؟

سارع الراهب الذي رافقني إلى الجواب:

- هذا **الأخ لازارو**؛ راهب بندكتي يريد رؤية صاحب القداسة دُون **خيرونيمو راميريز**.

قال أوتافيو وهو يحاول أن يداري غضبه:

- لا يوجد هنا أيّ راهب يُدعى خيرونيمو، لا في مقر البعثة، ولا في غيرها.

قلتُ له:

- لا تقلقْ بشأني، جئتُ أحمل رسالة له من شقيقه **البادري راميرو**.

نظر أوتافيو إليّ بتشكّك، ثمّ غاب قليلاً وعاد ليفتح الباب ويدعوني للدخول. اقتادني أوّلاً إلى حجرة صغيرة تبدو مثل سجن مؤقّت، وأجلَسني إلى كرسي خشبي وراح يسألني:

- مَنْ قال لكَ إن **دُون خيرونيمو** هنا؟

قلتُ ببرود:

- قداسة رئيس دَيْرنا أخبرني بأن **دُون خيرونيمو** موجود في **گَلَطَه**، وأرسلني إلى **كنيسة القِدِّيس فرانسيس**، وهم أرشدوني إلى هنا.

- أين الرسالة؟

عرضتُ عليه الرسالة من دون أن أقول شيئاً، فأخذها من يدي بسرعة وتأمّلها قبل أن يغادر الحجرة ويُقفل الباب عليّ من الخارج، وبعد دقائق عاد ليدعوَني لمرافقته.

دخلنا قاعة مستطيلة شاهقة الارتفاع، تضيئها شموع وفيها مذبح صغير وأيقونات كثيرة معلّقة على الجدران، وبضع كراسٍ للمصلّين. في عمق القاعة ثمّة رجل جالس على كرسيٍّ ووجهه باتّجاه المذبح. حين شعر بدخولنا قال لأوتافيو من دون أن يلتفت:

- دعنا بمفردنا، قُدس الأخ أوتافيو.

مضى أوتافيو في حال سبيله، ونهض الرجل ثمّ التفت نحوي؛ وفي يده الرسالة. تأمّلني مليّاً، ثمّ قال بهدوء مصطنَع، ولكنْ، بصوت عميق رخيم كأنه يأتي من جوف بئر:

- تقدَّمْ إلى هنا .. أين رأيتَ أخي راميرو؟

مادت الأرض تحت قدمي، وكدتُ أسقط مغشياً عليَّ، إذن هذا هو **دُون خيرونيمو**، هذا هو الواشي بوالدي، وقاتل أمّي، والمتسبّب بالألم كلّه الذي لازمني منذ انتزعوني من حضنها **قبل خمس وعشرين سنة** .. ها أنا ذا أقف وجهاً لوجه مع الرجل الذي طاردتُهُ من مَرسَى إلى مَرسَى، ومن بلد إلى بلد. ها هو يقف أمامي مرتدياً مسوح راهب جِزْوِيْتي، بطول فارع، وقامة نحيلة، إذنْ، هذا هو؛ خمسيني بلحية شقراء قصيرة يشوبها البياض، وعينَيْن مطفأتَيْن لا تثبتان في مَحجِرَيْهما، حاسر الرأس عن شَعْر بنِّيٍّ طويل يصل إلى كتفَيْه. ها هوذا غريمي الذي صنع قدري، لا يفصلني عنه سوى خطوتَيْن.

تمالكتُ نفسي، واستجمعتُ قوّتي، وقلتُ متصنّعاً الصلابة:

- تعرّفتُ إلى البادري راميرو في **دَيْر القِدِّيس جِرمِن**، ثمّ التقيتُهُ قبل نحو عام في **رومة**، وكان ذاهباً في مهمّة إلى الهند الشرقية، وعندما علم بأنني أستعدّ للسفر إلى القسطنطينية، طلب منّي أن أبحث عنكَ، وأُخبركَ بأنه كُلِّفَ بمهمّة في الهند الشرقية، وينتظر رسالة منكَ تُطمئنه على أوضاعكَ.

نظر دُون خيرونيمو إليّ بدهشة، وقال:

- أمر غريب، كان يمكنه أن يرسل رسالة عن طريق رهبنتنا! لماذا يرسلها معكَ؟!

- لا أعرف، يا سيّدي، لماذا اختارني لهذه المهمّة.

أشاح بنظره عنّي، وأرسل بصره نحو الأيقونات، وهو يقول:

- كلامكَ غريب، هذا خطّه وإمضاؤه، ولا أشكّ بأنه هو صاحب الرسالة، ولكنْ، لماذا يسألكَ أنتَ عنّي؟!

فاجأني إصراره على التشكيك بي، ومعه الحقّ كلّه، فأنا لا أستطيع أن أُفصح له عن رسالة شقيقه الحقيقية؛ لأنها موجّهة إلى **خيسوس المسلم الأندلسي**، الذي عليه أن يسأل سؤالاً لا يجرؤ **نصراني مؤمن** على حمله، ولا يستطيع **خيرونيمو** الإجابة عنه.

قلتُ، بما أسعفتني اللحظة به من هدوء، وبما أمكنني أن أحتفظ من صلابتي:

- لا أعرف، يا سيّدي، ربّما توسّم بي الأمانة.

التفت إليّ من جديد، وشعرتُ بحدقَتَي عينَيْه وكأنهما تجوسان بدني كلّه، ثمّ تستقرّان في عينَي:

- أيّ أمانة؟ هل هنالك شيء آخر غير خبر مهمّته في **الهند الشرقية**؟

تصنّعتُ البلاهة:

- لا أعرف، يا سيّدي المبجّل، شيئاً سوى أن شقيقكَ طلب منّي قبل نحو عام أن أُخبركَ بأنه في مهمّة في **الهند الشرقية** ولا شيء آخر.

تحرّكتُ من موضعي خطوة، وتظاهرتُ بالضيق، وقلتُ:

- أرجو أن تأذنَ لي بالانصراف .. كلّ ما همّني أن أنفّذ طلب **البادري راميرو**، وها أنا فعلتُ ولا أرى سبباً في أن يكون الموضوع مرِبكاً، أو غريباً.

التفتَ دُون خيرونيمو بسرعة وقال وهو يطوي الرسالة ويفردها:

- لم تُقنِعني.

- لم أفهم قصدكَ، يا سيّدي، أمّا وقد أدّيتُ الأمانة، فهل تأذن لي بالانصراف.

وقبل أن أستدير مغادِراً سألني:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- ما اسمكَ؟

- **لازارو**.

تأمّلني مليّاً كأنه يتحقّق من أمر ما، وقال:

- مِن **دَيْر القِدّيس جرمن** كما قلتَ، أليس كذلك؟

- نعم.

- ماذا حلّ بالمخطوطات التي أرسلناها للدَّيْر؟

- أحضروا **موريسكيِّين** لتصنيفها وترجمة بعضها، ولكنْ، حتّى مغادرتي الدَّيْر قبل أكثر من عام لم يكونوا قد فرغوا من العمل.

- ولمَ غادرتَ الدَّيْر؟

- أرسلوني في مهمّة تتعلّق برهبنتنا هنا في **إسطَنبُل**.

- مع السلامة، أيُّها **الأخ لازارو**.

كتمتُ تنهيدة كان يمكن أن تكون فاضحة، وتقطّعت الحروف في صوتي وأنا أستودعه لأخرج:

- وداعاً، أيُّها **الأخ دُون خيرونيمو** .. كنْ بخير.

وجدتُ الراهب **أوتافيو** ينتظرني عند باب كنيسة البعثة الفرنصاوية. اقتادني إلى الحجرة نفسها التي انتظرتُ فيها قبلاً. وغاب حصّة من الوقت، ثمّ أتى ليحذّرني من أن أتفوّه بأيّ شيء يخصّ هذا اللقاء، أو أيّ خبر عن **دُون خيرونيمو**، فوعدتُهُ خيراً.

خرجتُ من بَوَّابة **البعثة** والخوف والقلق يرافقانني. ثمّة رجل يتبعني. توجّهتُ إلى **نُزُل البنادقة** ، فاختفى الرجل. جلستُ قليلاً في مَضِيْف النُّزُل حتّى استعدتُ شيئاً من هدوئي، وحين غادرتُ متوجّهاً إلى **كنيسة القِدِّيس بندكت**، خرج عليّ الرجل الذي كان يتبعني وقال لي بالفَرَنْصَاوِيَّة:

- الأخ لازارو؟

- نعم.

- أرجو أن تأتي معي.

نظرتُ إليه بتحدٍّ، وقلتُ:

- مَنْ أنتَ؟ وماذا تريد؟

- هناك أخ يريد أن يراكَ، لا تقلق.

وحين حاولتُ أن أتملّص منه وأتابع طريقي؛ ظهر لي رجل آخر من زاوية الزقاق ذاتها، فصرتُ محاطاً بالرجلَيْن. أيقنتُ بعدها أنْ لا مفرّ. تبعتُ الرجل الأوّل نحو خمسين خطوة قبل أن ينعطف باتّجاه زقاق ضيّق، سار فيه ثمّ توقّف عند أحد الأبواب، طرق طرقة واحدة فانفتح، ودعاني للدخول. هبطنا درجاً نازلاً إلى قبو انفتح بابه الخشبي العتيق على دهليز صغير

مضاء بشمعتَيْن اثنتَيْن. أشار لي الرجل بأن أدخل حجرة على يمين الدهليز، فدخلتُها وأنا غير مدرك ما يجري.

كانت الحجرة مضاءة بقنديل زيت شحيح، ثمّة كرسي فارغ، أغلق الباب رجل لم أتبيّن ملامحه، ولكنني عرفتُهُ حين قال:

- أهلاً بكَ من جديد، اجلس.

كان صوت **دُون خيرونيمو**، جلستُ ورحتُ أتأمّل الحجرة الخاوية إلّا من هذا الكرسي. كنتُ واثقاً من أنه لم يصدّقني، لكنْ، لم يخطر لي أن يحتجزني بهذه السرعة. صار يدور حولي بخطوات بطيئة، ولكنْ، موزونة، من دون أن يتفوّه بحرف.

في الأخيلة التي عكستْها مشية خيرونيمو على الجدار المواجه لي، تراءت لي أمّي والدم ينزّ من يدَيْها ووجهها، وهي تنظر إليَّ بعينَيْن اتّسعت حدقتاهما، محاولة بجهد جهيد أن تُبقيَهما مفتوحتَيْن، كما لو أنها تريد أن تقول لي اصمد، إيّاكَ والانهيار.

قال **دُون خيرنمو** بعينَيْن تتفحّصانني:

- أنتَ تعرف بأنكَ كنتَ تكذب، لا أريد منكَ شيئاً سوى أن تصدقني القول .. لماذا بحثتَ عنّي؟

قلتُ متصنّعاً الثبات:

- لأوصل لكَ رسالة شقيقكَ.

قال وقد علت وجهه نظره ساخرة:

- وصلتني رسالة من شقيقي قبل ثلاثة أعوام، يخبرني فيها أنه كُلِّف بمهمّة الهند الشرقية .. ما رأيكَ؟

أُسقِطَ في يدي، ولكنني احتفظتُ بثباتي، وقرّرتُ أن أكون نصف صادق معه، فهذا أهون من حُجَّتي الواهية التي عرضتُها له:

- في الحقيقة هناك رسالة لم أجرؤ أن أنقلها لكَ، كي لا تسيءَ فهمي.

- ما هي؟

- طلب منّي **الأخ راميـرو** أن أسألكَ إن كنتَ قد جحدتَ المسيح حقّاً أم لا؟

- لماذا يسأل هذا السؤال؟

- سأكون صادقاً معكَ أشدّ الصدق، كنّا نخوض جدالات عميقة، وكانت لديه بذور من الشكّ، ويريد أن يسترشد بكَ حتّى يحسم شكوكه، هل يبقى أم يلتحق بكَ وبدِيْنكَ الجديد، وهذا الأمر كما تعلم لا يستطيع أن يكتبه برسالة.

بدت حُجّتي مقنعة، فاستدار وراح يتجوّل في الحجرة جيئة وذهاباً، ثمّ عاد إليّ ليسألني:

- وأنتَ؟ هل لديكَ بذور الشكّ ذاتها؟

- كانت لديّ قبلاً، أمّا الآن، فأنا على **يقين**، وكم سعدتُ حين علمتُ بأنكَ ثابت في إيمانكَ، وهذا الثبات سوف يُريح **الأخ راميرو** كثيراً، فقد كان يتعذّب أشدّ العذاب كلّما تذكّر أنكَ جحدتَ المسيح، وأنتَ مَنْ أنتَ!

تأمّلني مليّاً، ثمّ قال مباغِتاً:

- أنتَ تقول نصف الحقيقة، أريد الحقيقة كاملة، والآن وإلّا لن تخرج من هنا.

- أقسم لكَ بأنني قلتُ الحقيقة.

- ماذا عن مهمّتكَ التي أتيتَ إلى القسطنطينية من أجلها؟

- لا أستطيع أن أبوح بها، فهي أمر يخصّ سيّدنا البابا وحده.

قال بتصميم:

- هل ستقول أم أستدعي الرجل الجِنْوِيّ الجالس خارجاً لكي يجبركَ على الكلام؟ وفي النهاية ستتكلّم.

قلتُ وقد أيقنتُ أن لا سبيل للتملّص:

- سأتكلّم، وليغفر لي الربّ، فهذه مشيئته .. أنا هنا للبحث عن **موركسي** خدع البابا.

بدا الاهتمام على وجهه، فقال:

- ما علاقتكَ أنتَ بالأمر؟

- هذا **الموركسي**؛ كنتُ أخدمه في دَيْر القِدِّيْس جِرمِن حين أتى به الطبيب **إتيان أبِرت** لكي يترجم المخطوطات العربية، وقد فرّ هذا من الدَّيْر قبل عامَيْن وانقطع أثره. ولكنْ، علمنا فيما بعد أنه توجّه إلى الفاتيكان مدّعياً أنه **كاثوليكي مخلص**، وقد زكّاه أحدهم لقراءة ألواح وادي خندق الجنّة، وذلك لمعرفته بألسن الشرق، ومنها اللسان العربي، ولكنه؛ استغلّ ثقة البابا، فسرق شيئاً من مكتبته، وفرّ به إلى إِسْطَنْبُل. وبعد أن استقصوا عنه كثيراً، عرفوا بأنني كنتُ ملازِماً له طوال عام كامل، وبأنني أستطيع تمييز هيئته وصوته مهما غيّر، ولذلك استدعوني إلى الفاتيكان بتوصية من شقيقكَ **البادري راميرو**، وكلّفوني بهذه المهمّة، وهذه هي الحقيقة كاملة.

قال، وقد بدا التصديق على ملامحه:

- وما قصّة الجحود والإيمان التي ذكرتَها لي؟

- أقسم بأنها صحيحة، وذلك كان في **دَيْر القِدِّيْس جِرمِن**، قبل قصّة خداع البابا.

- ما اسم **الموركسي** الذي تبحث عنه؟

- اسمه الذي كنّا نعرفه به في الدَّيْر هو **دُون ألونسو**، أمّا اسمه الذي خدع به البابا، فهو **الأخ مارينو**.

حين سمع دُون خيرنيمو الاسم جحظت عيناه وتراجع إلى الخلف، وهو يقول:

- هل تعرف ما الذي سرقه **مارينو**؟

- لا أعرف البتّة، وأقسم على ذلك .. المطلوب منّي أن أتحقّق منه وأُخبر عن مكانه فقط.

- وأين وصلتَ في مهمّتكَ؟

- مهمّتي بدأت لتوّها.

عاد **دُون خيرونيمو** للدوران، حولي بخطواته البطيئة ذاتها، وبعد برهة من الوقت، قال بتصميم:

- صدّقتُكَ.

ثمّ غادر الحجرة من فوره من دون أن يقول شيئاً، مكثتُ في مكاني بانتظار أن يأتي أحد ما ويأذن لي بالخروج، وبعد حصّة من الوقت، حضر الجِنْوِيّ الآخر الذي كان مع الجِنْوِيّ الذي اقتادني إلى هنا، وقال لي:

- انصرفْ، ولا تنظرْ خلفك.

خرجتُ من القبو كأنني وُلدتُ من جديد .. أكثر ما كنتُ أخشاه أن تفضحني ركبتاي، فطوال الوقت الذي قضيتُهُ في القبو كنتُ أجهد لإخفاء تلك الرعشات التي تملّكتني. أسرعتُ إلى **كنيسة القِدِّيس بندكت**، ولاحظتُ أن الرجل الجِنْوِيّ كان يتتبّعني من بعيد حتّى تأكّد من دخولي إلى الكنيسة، وفور دخولي أخبرني أحد الشمامسة أن رئيس الدَّيْر **الأب فرانسوا** يريد أن يراني. توجّهتُ إلى مكتبه، فنهض وعلى وجهه علامات القلق:

- أين كنتَ؟! قلقنا عليكَ.

- لا شيء حضرة قُدس الأب، مررتُ على **نُزُل البنادقة** لرؤية صديق لي هناك، وها قد عدتُ.

وسألني عن **دُون خيرونيمو**، فأحطتُهُ علماً بما جرى في السفارة فقط، وأخبرتُهُ بأمر الرجل الذي كان يتتبّعني، فطمأنني وقال:

- لا تقلقْ، أيُّها **الأخ لازارو**، هذا بسبب **الأتراك** وليس بسببكَ، فهم يبحثون عن **دُون خيرونيمو** ويريدون رأسه، كما قلتُ لكَ.

- لم أفهم حتّى الآن سبب غضبتهم عليه، وسعيهم وراءه؟

- يتّهمونه اتّهامات شتّى، ولكن أهمّها **الردّة عن الإسلام**، ولكنني أظنّ أن الأمر أكبر من موضوع الردّة، ودليل ذلك هذه الحملات التي يقودها **الصوباشي** للقبض عليه، وهذا لم يحصل من قبل.

- أمر غريب حقّاً! وماذا سيفعل؟ هل سيبقى في مقر بعثة فَرَانْصَة إلى الأبد؟

قال الأب فرانسوا وهو يتلفّت يَمْنَةً ويَسْرَةً:

- علمتُ أن السفير **دي سانسي** يعمل على خطّة لتهريبه إلى بَرِيْش .. هذا سرّ لا يعلمه إلّا الخواصّ، كُنْ حذراً يا **لازارو** من أن تبوح بشيء في محضر من أحد.

قلتُ وأنا أنهض مغادِراً:

- ليحمِهِ الربّ.

على الرغم من سعادتي البالغة لمعرفتي بمكان دُون خيرونيمو، ونجاتي من الفخّ الذي كدتُ أقع فيه، شعرتُ بغُصّة سببها أن خطّة تهريبه، إن تولّاها سفير فَرَانْصَة فحتماً سوف تتكلّل بالنجاح، وبالتالي سأفقد أثره من جديد. وكان عليّ أن أشحذ ذهني لاجتراح خطّة ما؛ تُحبِط سعي **السفير دي سانسي**.

العرس

غادرتُ **كنيسة القِدِّيس بندكت** فجر اليوم التالي؛ وأنا عازم على عدم الرجوع مجدّداً. فلولا تسليم الله لكنتُ الآن طعمة لأسماك **خليج القرن الذهبي**. تجنّبتُ التسلّل من بين بيوت **الإغريقو** الذين يحتلّون جادّة طويلة ملاصقة لبيوت اليهود التي استولى عليها الأندلسيون قبل مدّة. وسبب تجنّبي التسلّل من هذه الناحية، تسلُّح الإغريقو بسلاح فرنجي، وسريان شائعات بأنهم يستعدّون للقيام ضدّ السلطان. وهذا أمر فاجأني، إذ كان هؤلاء **الإغريقو** حين غادرت **إسْطَنْبُل** أوّل مرّة منحازين إلى جانب السلطان، رافضين سعي رهبان الجِزْوِيْت والفرنسيسكان والكبوشيِّيْن كثلكة أطفالهم عن طريق مكاتب التعليم التي أنشؤوها في كنائسهم وأديرتهم الكاثوليكية. وأذكر في تلك الأيّام قبل خمس سنوات أن بطريق الروم الإغريقو في إِسْطَنْبُل كان يرغي ويزبد ضدّ الرهبنات الكاثوليكية التي تسعى لضلال شعبه.

أمّا الآن، وبعد أن توافد إلى گَلَطَه الألوف من أبناء أمّتنا المطرودين بعد **مرسوم فيليب بن فيليب**، وتسهيل **القاضي علي أفندي** لهم السكن في محلّة اليهود القدماء، بدأ **الإغريقو** في هذه الناحية يتخوّفون من إحلال أبناء أمّتنا محلّهم، فهادنوا الكاثوليك، وقبلوا السلاح من **فَرَانْصَة**، وهم الآن يرابطون على تخوم محلّتهم، ليل نهار، تحسّباً لأيّ طارئ.

كان عليّ أن أقطع مسافة طويلة من جهة الشرق حتّى أصل إلى أزقّة

بيوت الحلبيِّيْن، على تخوم الحيِّ الأندلسي القديم، القريبة من **جامع العرب**. فعلى الرغم من خطورة هذه الناحية، بسبب المنحدر الخطير الذي يصعب اجتيازه، غدت هذه الأيّام أكثر أماناً من عبور أزقّة **الإغريقو** التي اختفى فيها بعض أبناء أمّتنا ولم يظهروا بعد ذلك إلّا جثثاً متآكلة في مياه الخليج.

انحدرتُ سريعاً باتّجاه بيتي محاذِراً الانزلاق وانكشاف أمر تنكّري، ولم تكن المسافة بعيدة بين بيتي وذلك المنحدر. وما إن خلعتُ ثيابي الفرنجية، وارتديتُ الجُبَّة التونسية، وجلستُ لأستريح، حتّى سمعتُ طَرقات قوية على الباب. توقّعتُ أن يكون **الشريف الأندلسي** هو الطارق، وكان هو بالفعل، ولكنْ، إلى جانبه رجل أربعيني؛ تفترّ شفتاه عن ابتسامة عريضة.

قال الشيخ، حين رآني أقف ببات البيت صامتاً:

- لم نركَ في صلاة الفجر، فقرّرنا أن نزوركَ في بيتكَ.

ثمّ التفت إلى الرجل الذي يرتدي الجُبَّة والعِمَامَة التونسيَّتَيْن، وأردف بنبرة فيها اعتذار:

- هذا أخونا **مصطفى دي أراندا**، وصل أمس من تونس، ويريد أن يتعرّف إليكَ.

عندها؛ رحّبتُ بهما أشدّ الترحيب، ودعوتُهما للدخول. لم يجلس **الشريف الأندلسي** بعد أن صعدنا إلى الحجرة العليا. اكتفى بالقول إنه سلّم بيت الطبيب ابن أبي العاص لأخينا **مصطفى دي أراندا** ريثما يعود من سفره، واعتذر عن المكوث معنا بسبب موعد مضروب مسبَّقاً مع **قاضي گَلَطَه علي أفندي** لا يستطيع التأخّر عنه.

ولكنه؛ وقبل أن ينصرف عاد نحوي وراح يتأمل باستغراب كبير وجهي الذي أضاءه لهب السراج المتراقص، كأنه يراني للمرة الأولى.

- **من أنت؟**

- عيسى بن محمد!

- ماذا جرى لوجهك؟

- لا شيء حلقت لحيتي وشاربي فقط.

- تبدو رجلاً آخر، سبحان الله!

تبسمت للشريف الأندلسي، فلم يتبسَّم. وغادر صامتاً وهو يلقي على مصطفى دي أراندا نظرة مرتابة.

لم يعلق دي أراندا بشيء، بل راح يحدثني بالقشتالية حديثاً طويلاً حول والدي **ألونسو دي لونا**، و**مخطوط إنجيل برنابا**، وفوجئتُ أن عربيّته ضعيفة، فقال إن السبب في ذلك نشأته في مدينة **سَرَقُسْطَة**، قاعدة **بلاد أرغون**، والتي خرجتْ مبكّراً عن سلطة المسلمين.

تبيّن لي من الجلسة الأولى مع **مصطفى دي أراندا** بأنه متضلّع في القَشْتَالِيَّة والإيطاليانية، ولسان اللاطين، وأخبرني بأنه اتّخذ قرار الانتقال إلى تونس مع زوجته وأولاده مضطرّاً، بعد أن بدأ **ديوان الإيمان** يشكّ فيه، ويعدّ له ملفّ قضية أمام **محكمة التفتيش**.

وحين سألتُهُ إن كان سيُحضِر عائلته إلى **إسْطَنبُل**؟ قال: إن قدومه إلى هذه الديار مؤقّت، وبهدف واحد، هو الحصول على **الإنجيل برواية برنابا**، وترجمته إلى القَشْتَالِيَّة أوّلاً، ليُطبَع ويُنشَر في **إشبانية**، وغير ذلك

لا يفكّر فيه الآن، خصوصاً أنه اتّفق مع صديق أندلسي، حضر معه هو الآخر إلى تونس، يُدعى **إبراهيم طيبيلي**، على ترجمة عدد من المخطوطات.

ودّعتُهُ أمام بيت والدي الذي أصبح بيته، وأخبرتُهُ بأنني سأُحضِر له مخطوط الإنجيل، لأن والدي أخفاه في مكان آمن، لا أحد يعرفه سواي، ثمّ انعطفتُ يساراً باتّجاه البرج.

في منتصف الجادّة لاحظتُ أن رجلاً بزِيٍّ تركي يسير خلفي من بعيد. أبطأتُ السير وتذرّعتُ بتفقّد خُفِّي، وتركتُهُ يسبقني. بدا لي طرف وجهه، وهو يعبر إلى جانبي، مألوفاً. وحين أنهيتُ تفقّد خُفِّي ونهضتُ لأُكمل طريقي، لاحظتُ أنه انعطف يساراً ودخل **بيت الغَرْنَاطِيّ** الذي كُتب على أُسْكُفَّة بابه **لا غالب إلّا الله**. لمتُ نفسي على سوء ظنّي بهذا **الغَرْنَاطِيّ** الذي احتميتُ بشرفة منزله من الأمطار الغزيرة، في ذلك **اليوم العجيب** قبل خمس سنوات!

لا شكّ في أن أخيلة يوم أمس في القبو، وجحوظ عينَي **دُون خيرنيمو** حين سمع باسم **الأخ مارينو**، لم يزالا يهيمنان على مخيِّلتي .. ترى هل عرفه؟ هل كان يخفي أمراً حين تركني أغادر القبو بسلام؟ هل علم بقصّة **إنجيل برنابا**؟ وماذا لو كان يتتبّعني للوصول إلى الإنجيل؟ أسئلة كثيرة كانت نواقيسها تقرع في رأسي، وتزيد من حذري.

عزمتُ على العودة إلى بيتي كي أحسم شكوكي. ومن حسن حظّي أن أحداً لم يكن يتبعني. انتظرتُ في البيت حتّى تغرب الشمس، وفي أثناء انتظاري حضر **مصطفى دي أراندا** وطرق الباب أكثر من مرّة، ولم أفتح له. وقبيل الغروب بقليل، ارتديتُ جُبَّتي التونسية، مع عباءة ثقيلة، وغطّيتُ رأسي بوشاح سميك، وتوجّهتُ نحو **البرج**، ولم ألحظ أن أحداً يتتبّعني.

كان الحارس الأندلسي على وشك المغادرة، فسلّمتُ عليه وسألتُهُ:

- هل رأى أحد ما **الرجل الجِنْوِيّ** الذي قتل الحارس السابق.

نظر إليّ بريبة وقال:

- لِمَ تسأل؟

- فضول منّي، لأنني أرى كثيرين يحومون حول البرج، ولا أستطيع أن أميّز الفرنجي، من التركي، من الأندلسي.

- نحن نميّزهم جيّداً، والرجل الذي قتل **الأخ عبو** - وهي المرة الأولى التي أعرف فيها اسم الحارس السابق - جِنْوِيّ، لا شكَ في ذلك، وهناك مَنْ رآه من جماعتنا، ويستطيع أن يميّزه من بين مائة رجل.

فتحتُ البَوَّابة الصغيرة ودخلتُ إلى البرج، وأشعلتُ شمعة، وصعدتُ إلى المِحْبَس الخامس، ودسستُ الإنجيل تحت إبطي، وانحدرتُ مسرعاً.

طرقتُ باب بيت أبي، ففتح لي **مصطفى دي أراندا**، وكان باسماً كعادته:

- أهلاً وسهلاً بابن أخي .. ادخلْ.

حالة من الذهول انطبعت على وجه **دي أراندا**، دامت حصّة من الوقت وهو يقلّب صفحات مخطوط الإنجيل. قلتُ ممازِحاً:

- ما بكَ؟ كأنكَ رأيتَ لؤلؤة سوداء عظيمة الجرم، أو طيراً بألوان قزحية!

رفع ناظرَيْه نحوي وقال:

- هل تجيد لسان الإيطاليانيِّيْن؟

- نعم.

- هل تصفّحتَ المخطوط؟

- نعم.

- هل قرأتَ ما أقرأ؟

- ليس تماماً، بعض الآيات.

قال، وهو يمسّد لحيته القصيرة:

- هذا إنجيل سيقلب الدنيا رأساً على عقب، وسوف يكون حُجّة على الكاثوليك والبابا، ومحاكم التفتيش.

انقلب ذهول **دي أراندا** إلى فرحة غامرة، وأعلن أمامي أنه سيبدأ بترجمته فوراً، حتّى يكون جاهزاً في وقت قريب.

كنتُ أنظر إلى حماس **دي أراندا**، وأتذكّر كلمات والدي إلى والده، وأنا أقول لنفسي:

- ليت عندي عُشْر ما عند هؤلاء الرجال من الثقة بقوّة الكلمات. ليت عندي إيمان مثل إيمانهم بأنهم قادرون على تغيير الإشبان بمخطوط، أو ألواح رصاصية، أو رقوق جِلْد غزال! ليتَني كنتُ مثلهم، حتّى أنام، ولو ليلة واحدة على أمل بغدٍ أفضل.

ربّتُّ على كتفه وعدتُ إلى بيتي لآخذ قسطاً طويلاً من الراحة، بعد يومَيْن عصيبَيْن لم أذق فيهما طعم النوم. تلك الليلة نمتُ بعمق، ومن دون أحلام، ربمّا منذ سنوات طويلة. ومع إشراقة الصباح توجّهتُ إلى بيت حاجي رمضان لأرى فيروزة. كنتُ أتفاءل بالرحلة القصيرة على قارب

الـ **بريمي**، من **إسْكِلَة كَلَطَه** إلى **إسْكِلَة بَلَاطْيَة**، ففيها كان ذهني يصفو، وتتفتّق أفكاري عن حلول لبعض العقد العَصِيَّة على الحلِّ، وكأنها تتنزّل عليّ من سماء الخليج.

في هذه الرحلة؛ تكاملت في خاطري خطّة للإيقاع بـ **دُون خيرونيمو**، تضطلع بها **فيروزة** بتعاوُن من **مصطفى دي أراندا**. وعزمتُ على أن أخفيَ الخطّة عن فيروزة ريثما تخبرني بجديدها حول **سليم أفندي الأندلسي**.

حين طرقتُ الباب، لم أكن أتوقّع أن أرى **علي رضا أفندي**، كنتُ أظنّ بأنه لن يعود قبل نهاية الربيع. لم يعرفني في البداية، ولكن حين قلت له **أنا عيسى** فتح ذراعَيْه وعانقني وهو يردّد عبارات الترحيب التركية.

دعاني للدخول، وكان عمّال الزرابي منهمكون في عملهم، وفي حجرة المَضِيف في الطابق الأعلى؛ أخبرني أنه عاد قبل أيّام من الشام بعد أن وكّل رجلاً بأعماله هناك، وأنه سوف يذهب إلى بورصة بعد أن اطمأنّ على فيروزة وإيبرو، وأنه لن يغيب طويلاً.

علمتُ، من حديثه الذي لم أفهم نصفه (!)، أن فيروزة أخبرتْهُ بكلّ شيء، ولذلك، كان ممتنّاً أشدّ الامتنان لي ولباقي أبناء أمّتنا الأندلسية، على ما قدّموه لعائلته، رغم حزنه الشديد على والده، وثقته بأن **سليم أفندي الأندلسي**، ليس أندلسياً ولا مسلماً حقيقياً!

من الأمور اللافتة التي أحاطني علماً بها؛ أنه تمكّن في اليومَيْن الأخيرين من رؤية أحد كُتَّاب ديوان الصدر الأعظم، وهو من أبناء قبيلتهم التركمانية العريقة، **قبيلة قاية** التي تنتمي إليها أيضاً **الأسرة العثمانية**، وسأله عن **سليم أفندي الأندلسي**؟ فأخبره أن الصدر الأعظم الجديد **قره محمّد باشا** كان يشكّ في أن **سليم أفندي الأندلسي** يعمل جاسوساً ينقل الأخبار إلى الأعداء! ولذلك طرده من عمله قبل أسابيع.

سألتُه:

- هل ثبتت خيانته؟

ضحك علي رضا ساخراً، وقال:

- وهل تظنّ أن الباشا كان سيكتفي بطرده لو أنه تثبَّت من خيانته؟

وأردف:

- ولكنْ، مع اختفاء **سليم أفندي** في **گَلَطَه** وانقطاع أثره منذ مدّة، وبعد أن علم بشكوكنا حول علاقته مع **قراصنة البُنْدُقِيَّة**، وما جرى لوالدي، وخالتي إيبرو، وأختي فيروزة، باتت شكوكه أكبر، ولذلك تقدّمتُ بدعوى ضدّه إلى قاضي الفاتح، بالأصالة عن نفسي، والنيابة عن أختي وأمّها، ونحن الآن ننتظر الجواب.

أسعدني هذا الخبر كثيراً، لأن حلّ عقدة **سليم أفندي** سوف يُخلي السبيل أمامي لحلّ عقدة **دُون خيرونيمو**، ولذلك وجدتُها فرصة ملائمة لأطلب منه تزويجي أخته فيروزة على سُنَّة الرسول الكريم. فوجِئ **علي رضا** بطلبي في البداية، غير أنه، وبعد أن أعمل فكره قليلاً؛ قال:

- سأسألها وأخبركَ، إن كانت توافق أم لا.

- أرجو أن يكون ذلك قبل سفركَ إلى بورصة.

تأمّل قليلاً، كأنه كان يدوِّر الفكرة في رأسه، ثمّ قال:

- الآن سأسألها.

وغاب حصَّة من الوقت، عاد بعدها باسماً، وهو يقول:

- على بركة الله، لن نجد مَنْ هو أفضل منكَ دِيْناً وخُلُقاً.

والحقّ أن قبول علي رضا فاجأني، إذ كنتُ لا أزال على قناعتي السابقة بأنه عازم على تزويج أخته بأحد أصدقائه، ولكنْ، بعد أن فكّرتُ قليلاً قلتُ لنفسي؛ إن علي رضا أفندي، كان واثقاً من أن أحداً من أصدقائه؛ لن يتزوّج فتاة كانت **أسيرة** لخمس سنوات بيد الفَرَانْصَاوِيِّيْنْ! وهذا الأمر كان من التوافيق الربَّانيَّة التي لازمتْني منذ ذلك اليوم، حين أتى **حاجي رمضان** إلى **جامع العرب**، وأخذني إلى بيته، لأكتب له آية القرآن الكريم.

كنتُ أسعى لأن يتمّ زواجنا في أسرع وقت ممكن، لأن خطّتي للإيقاع بـ **دُون خيرونيمو** لا يمكن أن تتمّ إلّا إذا كانت **فيروزة** زوجتي.

قلتُ وأنا أمدّ له يدي مصافِحاً:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- هل نقرأ الفاتحة على نِيَّة القبول؟

- نعم.

وقرأنا الفاتحة معاً، ورجوتُهُ أن يتم زواجنا قبل سفره إلى بورصة، فقال:

- ما بالكَ مستعجلاً؟

- أظنّ أن خالتكَ وأختكَ تحتاجان رجلاً معهما، ما دام أنكَ ستعود إلى بورصة.

- في الحقيقة كنتُ أفكّر ببيع البيت ودعوتهما للانتقال إلى بورصة، ولكنْ، يبدو أن خططي تغيّرت الآن.

اتّفقتُ مع **علي رضا**، بعد أن شاور **فيروزة** و**إيبرو** ونال قبولهما، أن نتزوّج في يوم الجمعة القادم، لأنه اليوم السابق لسفره إلى بورصة، ولذلك كان علينا أن نتجهّز لهذا الحدث المُنتظَر. وقرّ رأي الجميع أن نسكن في بيت **حاجي رمضان** ريثما تتمّ قسمة الميراث بينه وبين أخته وأمّها.

بشَّ **الشريف الأندلسي** حين رآني واقفاً أمام بيته، وهتف فرحاً:

- أجل؛ هذا عيسى الذي أعرفه!

ثم راح يتلمس لحيتي التي عادت لتكسو وجهي وهو يشدد على حرف الكاف:

- إياك أن تحلق لحيتك مرة أخرى! إياك!

بعد أن جلسنا في حجرة المضيف؛ أخبرتُهُ بموعد زفافي على **فيروزة**، فغضب **غضبة كبرى**، كونه كبير أندلسيِّي **إسطَنبُل** و**گَلَطَه**، وكان يتوقّع أن أستشيره بالأمر قبل أن أُقدِم عليه، كما يفعل الأندلسيون عادة. ولكنْ، بعد أن هدأ غضبه، أصرَّ على أن يتكفّل هو بحفل الزفاف الذي أراده أن يتمّ وَفْق عادات الأندلس. وبجهد جهيد أقنعتُ **علي رضا أفندي** بأن تكون حفلة الزفاف في الحيِّ الأندلسي بـ **گَلَطَه**.

رتّب **الشريف الأندلسي** حفلة النساء مع زوجته في بيته الواسع، وحفلة الرجال في فسحة جامع العرب. وهناك اصطفّت المقاعد صفوفاً متوالية أمام **جوق أندلسي** صدح بأعذب أنغام الطرب الغَرْنَاطِيّ، المطعّم بالمدائح النبوية. وبعد أن عقد القران مأذون شرعي حنفي، توجّهتُ إلى بيتي المُعَدّ سلفاً لهذه المناسبة السعيدة، ووقفتُ أمام الباب أنتظر مع ثلّة من الأندلسيِّيْن بأرفع ما عندنا من ثياب وعطور، فيما انطلق موكب العروس وَفْق عادات الأندلس من بيت **الشريف الأندلسي**، وأمام العروس وخلفها، فتيات أندلسيات يتهادينَ في أنْفَسِ الملابس، ويرفُلنَ في أرفل الحليّ، بعض الصغيرات يحملنَ الشموع، ومنهنّ مَنْ يسرنَ خلف العروس يرفعنَ أذيال ثوبها الأبيض، والآلات اللهْوية تتقدّمهنّ، وسائر الناس من النُّظّار في طريقهنّ صفَّيْن يتطلّعون إليهنّ ولا يُنكرون ذلك، فساروا بها حتّى أدخلوها بيتي.

وجهان لرجل واحد

بعد ثلاثة أيّام من زفافنا، أخبرتُ فيروزة بخطّتي العاجلة للإيقاع بـ **دُون خيرونيمو**، قبل أن تضيع فرصة القبض عليه لينال جزاءه العادل.

لم تتلكّأ ولم تتذمّر بدعوى أنها عروس جديدة، بل على العكس من ذلك، أبدت حماسة كبيرة للبدء بالتنفيذ .. ربّما لأنها لحظتْني عن كثب طوال الأيّام الثلاثة، فعلى الرغم من أجنحة السعادة التي حلّقت بنا عالياً إلى ذرى الطمأنينة والرضا، فضلاً عن شغف كلٍّ منّا بالآخر، ثمّة شيء كان يعكّر صفونا .. شيء رأيتُ انعكاسه في نظراتها، فيجرح فرحنا، ويتسلّل حتّى إلى أحلامي، فيحيلها كوابيس مرعبة.

عرضتُ الخطّة على **مصطفى دي أراندا**، وطلبتُ مساعدته، وقد أحطتُهُ علماً بكلّ شيء يتعلّق بـ **دُون خيرونيمو**، من **ملفّ محاكمة أمّي**، إلى وشايته بوالدي، فوافق على مَضَض، لأنه كان يعتقد أن الدُّون لا يُؤخَذ على حين غِرَّة، فهو مجايله، وابن مدينته **سَرَقُسْطَة**، وجمعهما مكتب تعليم جِزْوِيْتي في مرحلة مبكّرة. لكن انقطاع الصِّلَة بينهما، منذ ذلك الوقت قبل أكثر من ثلاثين عاماً، كان يشجّعه على خوض غمار هذه التجربة.

مؤدّى الخطّة، كما تخيّلتُها وتأمّلتُ في احتمالاتها كلّها، هو عكس القصّة الحقيقية لفيروزة وأمّها، وقد استفدتُ من كلّ معلومة حقّة جرت لهما، الأمر الذي يتيح لفيروزة أن تدّعي بأنها **الخائطة الخصوصية**

للملكة ماريا دي ميديتشي، وقد أرسلتها الملكة إلى **البُنْدُقِيَّة** برفقة أربعة من حرّاسها الموثوقين، لكي تشتري حريراً فارسياً، أطنب التجّار في ذِكْر محاسنه، أمّا وقد اكتشفت أن الحرير لم يصل إلى **البُنْدُقِيَّة**، وأنه بات في **مَرسَى كانديا**، عند تاجر يريد بيعه بنصف الثمن خشية من أن يستولي عليه **القراصنة** قبل وصوله إلى خليج البُنْدُقِيَّة، فقد أرسلت إلى **الملكة** تستشيرها في الأمر. فطلبت الملكة منها أن تسافر إلى **مَرسَى كانديا** لترى الحرير، فإن أعجبها تشتريه كلّه.

وفعلاً سافرت على متن سفينة بُنْدُقِيَّة، ولكن؛ قبل الوصول إلى المَرسَى المنشود، هاجمهم **قراصنة** من تونس، وباعوها في إِسْطَنبُل لأحد تجّار الحرير التُّرك. وبعد عامَين قضتهما في **فابريقة** التاجر التركي، التقت بالتاجر الإشباني الأراغوني **ماتيو دي أراندا**، وهو الاسم النصراني **لمصطفى دي أراندا**، يعاين بضاعة عند سيّدها التركي، وانتهزت فرصة انشغال سيّدها، وسلمت **دي أراندا** ورقة روت له فيها قصّتها، وطلبت منه مساعدتها على الهروب.

فكّر **دي أراندا** مطوّلاً في الأمر، فهو لم يكن يريد أن يخسر صفقاته التجارية مع الأتراك، وفي الوقت نفسه يريد أن يساعد **خائطة ملكة فَرَانْصَة**، فاقترح عليها أن يُوصِلها إلى مقر بعثة بلادها في **گلَطَه**، والبعثة تتولّى أمر إعادتها إلى بَرِيْش.

كان رهاني في نجاح الخطّة يعتمد على أن مبعوث فَرَانْصَة لن يستطيع تأمين خطّتَينْ لتهريب شخصَينْ من إِسْطَنبُل، ولذلك سوف يجمع فيروزة مع **دُون خيرونيمو** في سفينة واحدة.

أُعجب **دي أراندا** بإحكام الخطّة ومعقوليّتها، ولكنْ، بقيت لديه

مخاوف من انكشاف أمره، إذا سألوه عن اسم التاجر التركي ومحلّ إقامته وفابريقته، وقد تولّت فيروزة حلّ هذه العقدة، بأن ذكرت له اسم شريك لوالدها يُدعى **مراد بك**، يسكن قرب مسجد الفاتح، وهو اسم معروف في تجارة الحرير، ليس في **إسْطَنبُل** وحدها، بل في **البُنْدُقِيَّة** و**جِنْوَة** أيضاً.

في يوم موعود، ارتدت **فيروزة** أرفع ما عندها من الثياب الفَرَانْصَاوِيَّة، وارتدى **مصطفى دي أراندا** برّة والدي القَشْتَالِيَّة، وتسلّلا مع صلاة الفجر، عبر أزقّة معتمة من الناحية الجنوبية الشرقية، حتّى وصلا إلى مقر بعثة فَرَانْصَة، وهناك طلبا من الحرّاس أن يقابلا السفير **دي سانسي**، لأمر عاجل لا يحتمل التأجيل.

حين رأى الحرّاس هيئة المرأة التي توحي بنُبل أصلها، ومكانتها الرفيعة، هرعوا إلى مخدع السفير، وأرسلوا له مَنْ يخبره بأن سيّدة فَرَانْصَاوِيَّة نبيلة تريد لقاءه، فهرع مسرعاً، وسمح لها ولماتيو دي أراندا بالدخول إلى مسكنه.

انفرد السفير بفيروزة، التي استعادت اسمها الفَرَانْصَاوِيّ، **شارلوت لافاييت** (!)، وتمعّن بقصّتها، وناقشها وجادلها بالكثير من التفاصيل حول الملكة، وصفاتها، وعاداتها، والقصر، وأقسامه، وأسماء العاملين فيه، وأسماء الحرّاس الذين رافقوها، وبعد ذلك سألها عن القراصنة، وأسمائهم، وأخيراً حين بدأ يميل لتصديقها، سألها عن صِلتها بالكند الشهير لافاييت، فأخبرتْهُ بأنها كانت عشيقة ابنه شارل لافاييت، ومنه أخذت اسمها، وهذا ما أدخل الطمأنينة إلى قلب السفير، وصدّق كلّ حرف قالته. ولذلك قرّر استضافتها في مقر البعثة ريثما يتدبّر وسيلة لتهريبها.

أمّا **مصطفى دي أراندا**، فحدّث السفير وحاشيته، وكان بينهم **دُون خيرونيمو**، عن تفاصيل تهريبه لفيروزة من بيت التاجر **مراد بك**، وذلك

حين نجح في إقناع حوذي من **الروم الإغريقو**، كان يخدمه طوال إقامته في **إسطَنبُل**، بأن يتولّى مهمّة نقل **أسيرة مسيحية** إلى **گَلَطَه**، فوافق الرومي على تنفيذ المهمّة بدافع **الغَيْرة الدِّينية**. وقد رسم هذا الرومي، كما قال لهم، خطّة تهريبها بحكم معرفته الوثيقة بأزقّة المدينة، وعادات أهلها، فاختار وقت صلاة الفجر، حيث اعتاد **مراد بك** أن يصلّيها حاضراً في جامع الفاتح. وفي هذا الوقت تتسلّل **شارلوت** تحت جنح الظلام، إلى العربة، بعد أن ترتدي ثوبها الفَرَانْصَاوِيَّ تحت العباءة السوداء والخِمار، لتنطلق العربة عبر الأزقّة نحو **إسكِلَة بَلَاطْيَة**، ومن هناك يُركبها قارباً تنتقل به إلى گَلَطَه، حيث ينتظرها **دي أراندا** في الإِسْكِلَة، ومنها إلى مقر البعثة.

وكما أخبرني **دي أراندا**، كان **دُون خيرونيمو** يستمع باهتمام إلى كلّ حرف يقوله، تاركاً الآخرين يسألون ويجادلون، من دون أن يتفوّه بحرف، ولكنْ، حين طلب **دي أراندا** الانصراف، بعد أن أدّى المهمّة، أتى مَنْ يخبره بأن دُون خيرونيمو يريد أن يراه في كنيسة البعثة.

ودّع السفير السيّد دي أراندا، وشكره جزيل الشكر على الخدمة التي أدّاها لفَرَانْصَة وملكتها، ونقده بخمسين ريالاً ذهبياً مكافأة على صنيعه. وبعد ذلك توجّه إلى الكنيسة حيث كان **دُون خيرونيمو** ينتظره أمام المذبح.

فوجئ **دي أراندا** حين سمع **دُون خيرنمو** يرحّب به من بعيد:

- كيف حالكَ، **ماتيو**؟ أنا أُدعى **خيرونيمو راميرز**، هل تتذكّرني؟

قال دي أراندا:

- خيرونيمو راميرز من سَرَقُسْطَة؟

أجاب دُون خيرنيمو وهو يتقدّم نحوه باسماً:

- أجل، زميلكَ في مكتب الرهبان الجِزْوِيْت.

عندها أظهر **دي أراندا** فرحة غامرة، واحتضن **دُون خيرونيمو**، وهو يسأله بلهفة:

- خيرنيمو، كيف حالك؟ وما الذي أتى بكَ إلى هذه البلاد؟ وكيف حال أخيك راميرو؟ أهو بخير؟ لم أركما منذ سنين طويلة.

وبدأ الرجلان يتذاكران ببعض الأسماء والأحداث القديمة، وكان **دُون خيرونيمو** يتعمّد استحضار مواقف مضحكة من تلك الأيّام، إلى أن سأل دي أراندا مباغِتاً:

- هل أنتَ مستعدّ لمساعدتي كما ساعدتَ **شارلوت**؟

فوجِئ **دي أرندا** بسؤال **دُون خيرونيمو**، ولكنه قال من دون تردّد:

- أساعدكَ بقدر استطاعتي، قلْ لي ماذا تريد منّي؟

قال دُون خيرونيمو:

- أريد منكَ أمراً واحداً؛ هو ورقة جواز العبور الخاصّة بكَ!

قال دي أراندا:

- كيف أعطيكَ إيّاها؟ وكيف لي أن أعود إلى الديار من دونها؟ إنما ما حاجتكَ بورقة تخصّني؟

شرح دُون خيرونيمو لمصطفى أو ماتيو دي أراندا ظرفه الحرج، وما كان من سعي الأتراك لقتله، وقال إن سبيله الوحيد للنجاة هو الهروب من

إِسْطَنْبُل متنكّراً بشخصية **ماتيو دي أراندا**، التاجر الإشباني. وأقسم له بأغلظ الأيمان أن السفينة التي ستقلّه، وما إن تغادر مضيق **جنق قلعة بوغاز**، حتّى يعود له جواز العبور، ولن يستغرق ذلك أكثر من أسابيع قليلة.

انهمرت دموع **دي أراندا** وهو يخبر **صديقه القديم** بقبول مساعدته، وبعد أن تعانقا، غادر سفارة فَرَانْصَة إلى النُّزُل الذي يقيم فيه، لكي يُحضر جواز العبور. ووَفْقاً للخطّة، توجّه دي أراندا إلى نُزُل البنادقة، واستكرى فيه حجرة مكث فيها إلى منتصف الليل، وحين تأكّد من نوم الجميع، تسلّل عبر الطريق الشرقي البعيد وعاد إلى بيتي قبل الفجر.

وكم كانت فرحتي كبيرة حين علمتُ أن الخطّة تجاوزت ما كنتُ أتوقّعه منها، فها هو **دُون خيرونيمو** يضيف تفصيلاً جديداً لها، يجعلها خطّة كاملة لا تشوبها شائبة. كانت النهاية كما رسمتُها، فيها شيء من المخاطرة، وهي أن تتولّى فيروزة الكشف عن شخصيّتها الحقيقية وشخصية **دُون خيرونيمو** عند **ديوان كاتب المَرسَى التركي**، قبل صعودها إلى السفينة، لأننا لم نكن نحلم بأن يبلغوا **دي أراندا** بموعد السفر واسم السفينة وربّانها. كأن يداً إلهية هي التي راحت تقود الخطّة، تماماً كما تقود يد لاعب **خيال الظلّ دمى البابات** إلى مصيرها المرسوم.

في الساعة نفسها، أخذ مصطفى دي أراندا **جواز العبور**، وعاد إلى نُزُل البنادقة قبل أذان الفجر، ومع إشراقة الصباح، انطلق إلى سفارة فَرَانْصَة، وأعطى الورقة لدُون خيرونيمو، وفور تسلّمه لها، بدأ البحث عن سفينة جاهزة للسفر. وبعد خمسة أيّام، أخبر **دُون خيرونيمو** صديقه **دي أراندا** بأن خطّة الهروب باتت جاهزة، وأن موعد تنفيذها سيكون صباح الغد.

وفي ظهيرة ذلك اليوم، تسلّل **دي أراندا** إلى الحيِّ الأندلسي مخاطِراً

بكلّ شيء، ليُخبرَني بجديده .. وحين وصل إلى بيتي كنتُ واقفاً أمام النافذة أتقلّب على جمر الانتظار والقلق. فاجأني حضوره، وكدتُ أقفز من النافذة لِلِقائه.

قال ونحن نصعد الدرج الخشبي:

- سَفَر دُون خيرونيمو وفيروزة موعده صباح الغد، على متن سفينة من سفن البنادقة.

تركتُ **مصطفى دي أراندا** في بيتي، وأسرعتُ إلى **قاضي گَلَطَه علي أفندي** لأخبره الخبر الذي سينزل على قلبه مثل الثلج والبرَد، وكما توقّعتُ، استدعى من فوره **الصوباشي**.

في صبيحة اليوم التالي، وصلت إلى مَرسَى **ميِّت أسكله سي** عربة بحصانَيْن، هبط منها التاجر الإشباني **ماتيو دي أراندا** ومعه زوجته الفَرَانْصَاوِيَّة **شارلوت لافاييت**، وما إن عرضا أوراقهما على **كاتب المَرسَى** التركي، حتّى أشار بيده إلى **الصوباشي** الذي كان ينتظر مع رجاله تلك الإشارة، فتقدّم من **دُون خيرونيمو** وقبض عليه .. في اللحظة عينها انطلقتُ مسرعاً نحو **فيروزة**، لكي أُبعدَها عن **الصوباشي** ورجاله، وسط ذهول **دُون خيرونيمو** والريّان والنوتية البنادقة. وقبل أن يمضي مخفوراً مع الجنود، صاحت به **فيروزة** ودموعها تغسل وجهها:

- **سليم أفندي**؛ أنا **فيروزة** ابنة **حاجي رمضان**.

صعقت المفاجأة **دُون خيرنيمو**. نظرتُ إلى فيرزة وأنا عاجز عن فهم ما يجري، فقالت لي بالفَرَانْصَاوِيَّة:

- دُون خيرونيمو، قاتل والدتكَ، يا خيسوس، هو نفسه سليم أفندي قاتل والدي!

تراخت قدما دُون خيرونيمو وهو ينظر إليّ، محاوِلاً إيجاد رابط بين **لازارو وفيروزة**! عندها اقتربتُ منه بقدر ما سمح لي وقلتُ:

- هل تريد معرفة اسمي الآن؟ أنا **خيسوس دي لونا، ابن ألونسو وماريانا** .. هل تذكّرتها؟

عندها امتقع وجه دُون خيرونيمو، وجحظت عيناه، وكاد أن يسقط أرضاً لولا رجال الصوباشي الذين كانوا يقبضون على ذراعَيْه بقوّة.

وحين أيقن هؤلاء أنه بات عاجزاً عن الوقوف، جرّوه جرّاً على حجارة الطريق التي كانت تأكل جِلْد ركبتَيْه، وصعدوا به نحو **دار القضاء** في أعلى هضبة گَلَطَه..

حوكم **دُون خيرونيمو** بتهمة الارتداد عن الإسلام، واستتابه القاضي ثلاثة أيّام، غير أنه أصرّ على إيمانه الكاثوليكي حتّى آخر رمق، بل راح يجدِّف على الإسلام بحضرة الجميع. وهنا حكم عليه القاضي بفصل رأسه عن جسده.

في أواخر شهر يوليوز من سنة 1616 مسيحية رأيتُ **جثّة دُون خيرونيمو** مقطوعة الرأس، معلّقة على خشبة أمام بَوَّابة البرج بخطاف كبير، يشبه خطاطيف تعليق الذبائح في دكّان القصّاب، اخترق ظهره وبرز من صدره، والناس متجمعون حول الجثة، بعضهم باسم الثغر فرح بما يرى، والبعض الآخر واجم من رهبة الموت، وثمّة مَنْ مرّ غير عابئ بشيء.

ختام

كان يمكن لحكايتي أن تنتهي عند واقعة فصل رأس دُون خيرونيمو عن جسده، لولا لقاء عابر مع **أحمد بن قاسم الحجري** في دار **الشريف الأندلسي سنة 1638 مسيحية**. يومها كان أحمد بن قاسم متحرّقاً لرؤيتي منذ أن علم بقصّة أسْرِي في **دَيْر القِدِّيس جِرمِن**، وكان ذلك قبل سبعة وعشرين عاماً خلت.

ضاق صدري من ثرثرات الحجري وتفاخُره الدائم بمعاركه وجدالاته مع النصارى، ولذلك اقتصدتُ في الكلام معه بأقصى ما استطعتُ من اقتصاد. ولكن ما لفتني هو حديثه عن عمله في أثناء سكنه في القاهرة، **سنة 1637 مسيحية**، في دكّان **الحكيم ابن أبي العاص** في **الغورية**، أميناً على قبض ما يبيع التاجر من عطارة وأدوية وكلّ ما كان للبيع.

ويبدو أن معرفة **الحجري** بوالدي ظلّت سطحية رغم عمله في دكّانه، فهو يعتقد بأنه حفيد **الشيخ الحبيس**، بينما الشيخ الحبيس هو والده **جَدّي ميغيل دي لونا**، وكذلك لا يذكر شيئاً عن صِلَته بالشيخ **الأُكَيْحِل الأندلسي** الذي هو جَدّه لأمّه، وهذه أشياء كنتُ أعتقد أنها لا تفوت شخصاً مثل **أحمد بن قاسم الحجري**، وهو مَنْ هو بين قومه!

الغريب أن استطراد الحجري لم يثر اهتمام أحد، ولا حتّى **الشريف الأندلسي** ذاته، ولذلك لم يعلّق عليه أحد. أمّا أنا، فاكتفيتُ بالصمت، عازماً على السفر إلى القاهرة في أقرب وقت لِلِقاء انتظرتُهُ أكثر من اثنَيْن وعشرين عاماً.

هناك، في الغورية وبعد بحث، عثرتُ على والدي، **ألونسو دي لونا، أبو عيسى محمّد بن أحمد البَيَاسِيّ** في دكّان للحكمة والعطارة، وقد بلغ من العمر عِتِيّاً. وقفتُ أمامه من دون أن أتفوّه بكلمة .. تفرَّسني بعينَيْن سرت فيهما دهشة غامرة سرعان ما اخضلّتا بالدمع. نهض متثاقلاً وقد افترّت عن ثغره ابتسامة، وأقبل يعانقني بقوّة واهنة وقد شعرتُ بحلقه يرتجف وهو يحاول أن يكتم بكاءه، أمّا أنا، فقد نفرت دمعة من عيني، وجفّ ريقي وبتّ عاجزاً عن الكلام. مضت حصّة من الوقت ونحن جالسان، لم ننطق فيها حرفاً واحداً، ممسكَيْن بأيدينا.

كسر بسعاله الصمت، فقلتُ له:

- انتظرتُ رسالة منكَ.

- عدتُ بعد موت جدِّكَ لأتولّى أمر الجماعة، وفور وصولي قبض عليّ **ديوان الإيمان** وأرسلني إلى السجن، وعرضني على **محكمة التفتيش**. كانت التهمة التي واجهوني بها هي الرسائل التي أرسلتُها للبابا والملك. وقالوا إنها تُثبت **هرطقتي** .. دافعتُ عن نفسي وأفحمتُهُم، لكنهم حكموا عليّ بالسحن مدى الحياة.

- وكيف خرجتَ؟

- اتّهموني بالجنون، وعرضوني على ثلاثة أطبّاء، قالوا في شهاداتهم إنني مريض الجسد سليم العقل. وقبل اثنَي عشر عاماً خيّروني بين البقاء في السجن مدى الحياة، أو الخروج إلى **بلاد المسلمين**. فاخترتُ الخروج، ورافقني في خروجي النخبة المختارة من جماعتنا.

- لمَ لا تأتي معي إلى **إسطَنبُل**؟

- بل لمَ لا تنتقل أنتَ إلى **القاهرة** للعيش هنا؟ لا أخفيكَ، يا بني، أنني لا أستطيع ترك جماعتي هَمَلاً.

- عندي زوجة، وولد، وبنت.

افترّ ثغره عن ابتسامة رائقة.

وأضفتُ: زوجتي تُدعى **فيروزة**، والولد يحمل اسمكَ، والبنت اسم أمّي، وصار عندي بيت وتاريخ في تلك المدينة، ولا أقوى على مفارقتها.

سرح ببصره بعيداً، وراح يسترجع صوراً، ثمّ هزّ رأسه قائلاً:

- الحقّ أنها مدينة لا تُنسَى.

مكثتُ معه شهراً كاملاً، كان يطوف بي في أسواق القاهرة وخزائن كُتُبها، وكان يسأل الورّاقين وأصحاب الخزائن عن مخطوط **تاريخ قَطَلُونِيَة**، وكانوا جميعاً يتسمون وهم يهزّون رؤوسهم علامة النفي. من الواضح أنه كان يُلحّ عليهم بالسؤال، ربّما منذ سنوات.

أحد هؤلاء الورّاقين قال له وهو يضحك:

- لم أعثر عليه، ولم يسمع به أحد .. ليس ثمّة مخطوط بهذا الاسم، يا شيخ.

لم يعبأ بضحك الورّاق الساخر، بل رفع إصبعه في وجهه وقال متوعّداً:

- سأعثر عليه وأُحضره لكَ لتراه!

في الأعصار؛ كان يأخذني في نزهة إلى ضفّة النيل العظيم، المقابلة للجزر الخضراء الجميلة التي تتوسّط النهر، نجلس قليلاً على حجارة مشذّبة مخصوصة للمتنزّهين، نعود بعدها قبل حلول الظلام، نصلّي في **جامع الحسين** المغرب والعشاء، ثمّ نقصد البيت، ونواصل أحاديثنا إلى أن ننام.

في هذه النزهات كنّا نسير ببطء، نتحدّث في كلّ شيء .. حدّثني عن انتقاله من الأندلس إلى مُراكُش بعد أن خَلُّوه من السجن، ومن هناك

انتقل وجماعته إلى **الجزائر**، بعد أن أتاهم خبر بأن **سلطان المؤمنين** قرّر أن يُقطِعَهم بلدة **دَزنَة** على **ساحل بَرقَة**.

من **الجزائر** ركبوا سفن القرصان، وتوجّهوا إلى **دَزنَة**، وبنوا دُوراً تكاثرت، وأمست، بالبساتين المحيطة بها، حَيّاً كبيراً أشبه بجنّة من جنان الأندلس.

قال إنه فكّر كثيراً بدعوتي للقدوم إليه، ولكن والي طرابلس كَبَسَهُم في ليلة ليلاء، وأخذهم على حين غِرَّة، وقتل مائة من خيرة رجالهم، **بدعوى الكفر**. فما كان أمام مَنْ بقي منهم، وعلى رأسهم والدي، سوى طلب النجاة فِرَاراً إلى **القاهرة والإسكندرية**.

حدّثني عن **دكّان الحكمة والعطارة** الذي افتتحه في الغورية، وكيف استهجن المصريون أن يفتتح حكيم لنفسه **بيمارستاناً**، ولكنهم بعد أن رأوا الفائدة المتحصّلة منه، اعتادوا عليه وصاروا يُقبلون على التداوي عنده.

كان الدكّان، كما رأيتُهُ، كبيراً مقسوماً إلى حجرتَيْن كبيرتَيْن، إحداهما داخلية للكشف على المرضى، والأخرى تطلّ على الجادّة الرئيسة، وفيها الأدوية، والنقيع، والعطارة الجافّة، وكان عنده ثلاثة من الأجراء، الأندلسيين، ومعهم حلبيّ من مريدي الطبيب الشهير **داود الأنطاكي** نزيل القاهرة.

حين علم أنني بدأتُ أستعدّ للعودة إلى **إسطَنبُل**، وهن جسده مرّة واحدة، وبات عاجزاً عن مفارقة البيت. قلتُ له:

- سأبقى إلى جانبكَ.

قال مهوّناً:

- عارضٌ وينقضي.

- لن أرحل قبل أن أراكَ قد استعدتَ عافيتكَ.

- اعتدتُ على هذا المرض منذ أن كنتُ في السجن.

- وإذن؟

- سافرْ إلى عائلتكَ، وانتظرني، قد أزوركَ.

- ماذا تريدني أن أفعل بالمخطوطات في البرج؟

قال مندهشاً:

- أمَا زالت هناك؟

- نعم.

- هي لكَ.

- سوف يُخلون البرج عمّا قريب، ويحوّلونه لـ **مرصد فلكي**.

تبسّم وهو يمسّد لحيته:

- لمَ لا؟ لمَ لا؟ ابن برجكَ فوق بيتكَ، يا عيسى، وَضَعْ فيه المخطوطات.

ثمّ أردف:

- عشْ دائماً في برج، وانظر الدنيا من عَلٍ.

اعتدل في جلسته حتّى أصبح مواجهاً لي. نظر إلى عينَيّ وقال:

- هي الأقدار، يا عيسى؛ تقود خُطانا حيث تشاء. نسير حيث تريد لنا أن نسير، ونَقفُ حيث تريد لنا أن نتوقّف. لا فرق إن كنّا عمياناً أم مبصرين، حمقى أم حصيفين، شجعاناً أم مرتعدين، فما سيحدث سوف يحدث ..

- نعم هي الأقدار، يا أبي.. نعم هي الأقدار. والأقدار بحارٌ مائجة، مرة نكون ساكني قيعانها المُوحشة.. ومرة ربابنتها الجسورين..

ملحق

إتيان أوبرت: هو المستشرق الفرنسي الشهير إتيان هوبير دي أورليان

إِسْطَنْبُل: إسطنبول

إشبانية: إسبانيا

أطناش: أثينا

الإغريقو: هم اليونانيون بلسان الأندلسيِّيْن

ألَهايَه: لاهاي في هولندا

بَرْبَنصَة: هو إقليم البروفانس جنوبي فرنسا

بُرضُيُوش: بوردو الفرنسية

بَرِيْش: باريس

بُونَة: عِنَّابَة الجزائرية

جزيرة إِقْرِيْطِش: جزيرة كريت

طُولُوث: تولوز الفرنسية

فابريقة: هي الورشة أو المشغل

فَرَانْصَة: فرنسا

فلانضس: هي الأقاليم الفلامنكية التي تشكّل حالياً هولندا وجزءاً من بلجيكا

قطلونية: كاتالونيا

قَلْبِن: جان كالفن، المصلح البروتستانتي الشهير

لسان اللاطين: أي اللغة اللاتينية

لُوطِري: مارتن لوثر، المصلح البروتستناتي الشهير

لَيْذَا: لايدن المدينة الهولندية الشهيرة بجامعتها

مخِيْكُو: المكسيك

مَذْرِيْل: مدريد

مَرسَى البركة: هو ميناء لوهافر الفرنسي على المحيط الأطلسي

مِسْتِرْضَام: أمستردام

مُورِسِي: الأمير موريس دي ناسو

نَبَرَّة: هي نافارا في منطقة الباسك شمالي إسبانيا الحالية

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذه رواية ليست ككل الروايات. مكتوبة بالتنقيب "بالإبرة" في وثائق مضى عليها قرون، بما يعني ذلك من صعوبة الكشف عن مكانها، عن الأرشيف النائمة فيه، ومن ثم ترميمها، وقراءتها بلغتها القديمة، وقبل ذلك البحث عن طرق الوصول إليها واستخدامها.

تغطي الرواية جانباً من المرحلة الأكثر قسوة في التاريخ الإسلامي في الأندلس بعد سقوطها، المرحلة الموريسكية، حيث تم إجبار المسلمين على اعتناق المسيحية، ومن ثم مراقبتهم لمعرفة "صدق مسيحيتهم"، عبر محاكم التفتيش. من هذه النقطة الظلامية، من محاكمة إحدى السيدات الموريسكيات وقتلها، تبدأ الرواية متخذة تاريخ 1592 بداية مثيرة لها.

كان لا بد لغونثالث، الرجل الإسباني الكاثوليكي، من سبب كبير يُشعل الشك في قلبه المؤمن برواية المحكمة، حول السبب الحقيقي الذي أدى إلى مقتل أمه، ولماذا قالت له أمه فيما تودّع الحياة: أنت عربي مسلم، واسمك عيسى بن محمد. فما الحكاية، وما السر؟

حرفاً حرفاً أُنْشِئ تاريخ الرواية، وكذلك اسْتكشِفت الأحداث والشخوص وسلوكهم ومشاعرهم وتوجهاتهم وأفكارهم ومصائرهم. ومنذ البداية يكشف تيسير خلف المغامر نهاية الحكاية، ولكنه يحيط بالغموض الرواية نفسها، لنصل إلى رواية فريدة مكتوبة ليس بالتخيل وبالقراءة وبالتاريخ فحسب، بل بالوثيقة أيضاً.

الناشر

مكتبة
t.me/soramnqraa

ISBN 979-12-5591-036-7
9 791255 910367
المتوسط